ظواهر نفسية وجنسية

عبد اللّه حسين

ظواهر نفسية وجنسية

تأليف
عبد الله حسين

هنـــداوي

ظواهر نفسية وجنسية

عبد الله حسين

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩ ٢١٢٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٨
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

جميع الحقوق الخاصة بتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤,٠. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2020 Hindawi Foundation.
All rights related to design and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All other rights related to this work are in the public domain.
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

المحتويات

شعار المؤلف	٧
كلمة المؤلف	٩
ترجمة حياة المؤلف عبد الله حسين	١١
علم النفس الفردي	١٣
علم السلوك الإنساني الحديث	٣٥
العقدة النفسية	٣٩
أكذوبة العقل الباطن	٤٥
الملكات العقلية	٤٧
الأمراض الخُلقية والأمراض النفسية	٤٩
الأمراض العضوية	٥٣
الأمراض الوظيفية العصبية	٥٥
الأمراض الخلقية	٥٧
الحب الحسي والجنسي	٥٩
الحب والمرأة	٦٣
الكهولة عهد الغرام	٦٥
فنون الجنون	٦٧
ملاحظات مُسافر في القطار الدولي عن نفسية الرجال والنساء	٧٥
نفسية التعب	٧٩
مكافحة الشيخوخة والموت	٨٣
سر الحياة	٨٩

الفوضى الجنسية عند المجرمين	٩٥
الحرية الجنسية عند الشعوب الهمجية	٩٩
الملابسات النفسية في الصلات الجنسية	١٠٣
محور فن الحب	١١٣
الجريمة والشذوذ الجنسي	١١٥
العلم يكشف ضمائر المُجرمين	١٢١
عقدة أوديب والطفل بين أمه وأبيه	١٢٧
مرضى قابلون للشفاء	١٤١
من هو الإنسان العادي؟	١٤٥
الرأس والجنس	١٥٣
الغريزة الجنسية عند الفتيات	١٥٥
أثر الحرب في الإجرام	١٦١
الطب والعدالة	١٦٧
الغيرة	١٧٣
آثار الغدة الدرقية في النفس الإنسانية	١٧٩
كيف تؤثِّر الألوان في نفسك؟	١٨٥
المخاوف التسعة	١٨٧
الانفعالات النفسانية عند الحيوانات	١٩٣
أثر الألوان في الحياة	١٩٩
نفسية المُعلنين عن الزواج	٢٠٣

شعار المؤلف

١

كل كتاب جديد لا يُضيف جديدًا إلى المعرفة، بين أن يكون رجعًا لصدى غيره أو لغوًا غير جدير بالقراءة.

٢

غالى بنفسيَ عِرفاني بقيمتِها فصُنتُها عن رخيصِ القَدرِ مُبتذَلِ

كلمة المؤلف

هذا الكتاب «ظواهر نفسية وجنسية» من سلسلة «الدراسات النفسية والروحية» التي مضينا في إخراجها كُتبًا مُتتابعة، إلى جانب ما نُصدِره من سلسلة الدراسات العربية والإسلامية، وسلسلة الدراسات التاريخية، وسلسلة الدراسات القانونية. وقد عُنينا بإخراج سلسلة الدراسات النفسية والروحية؛ لأن الحرب ووَيلاتها تُفضي إلى طائفة من الانفعالات وألوان من الاضطراب وصور من القلق، بما تُحدِثه من الانقلابات والانتصارات والهزائم، واليسر السريع والفقر المُريع، وأشباح الموتى والجَرحى والأسرى، وحالات اليُتم والأيم والتبطل. وقد عالجنا في كتابنا «ظواهر نفسية وجنسية» صورًا من علوم النفس والعقدة النفسية «عقدة أوديب»، وتحدَّثنا عن أكذوبة العقل الباطن، وهي نظريةٌ جديدة لنا ناقَضنا بها الشائع أو المقرَّر عن العقل الباطن، وعالجنا الملكات العقلية، والأمراض الخلقية والنفسية والعضوية والوظيفية والعصبية، والحب الجنسي، وفنون الجنون، وفلسفة التعب، وسر الحياة، ومكافحة الشيخوخة، والفوضى الجنسية عند المجرمين والشعوب الهمجية، والصلات الجنسية، والجريمة والشذوذ الجنسي، والمرأة والجريمة.

وقد توخَّينا في بحثنا هذا أن نُشارِك المؤلِّفين والباحثين، وأن نسترشد بآرائهم في دراسة بعض الظواهر النفسية والجنسية التي تؤثِّر في حياتنا الإنسانية والاجتماعية والروحية، ومن ثَم في حياتنا كلها؛ لِما هناك من الصلات بين العقل والجسم، وبينهما وبين الإنسانية عامة. وسنُتابع دراسة هذه العوامل في مؤلَّفاتنا التالية، شاكرين لقُرائنا ما يتفضَّلون به علينا من آيات الثناء والتشجيع.

عبد الله حسين
١٩٤٧-١٩٤٨

ترجمة حياة المؤلف عبد الله حسين

وُلِد المؤلِّف في مدينة القاهرة بدار المؤيد، وهو خريج مدرسة فكتوريا الإنجليزية، ومدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية، ومدرسة الشيخ صالح أبي حديد، والمدرسة الإعدادية، وكان أول طلبة البكالوريا، وكذلك خريج مدرسة الحقوق الملكية (التي أصبحت الآن كلية الحقوق في جامعة فؤاد الأول بالجيزة)، وخريج قسم الدكتوراه الفرنسية «شعبة العلوم السياسية والاقتصادية»، وقسم العلوم الجنائية بالجامعة المصرية القديمة، وحامل دبلوم معهد الدراسة الإيطالية، ودبلوم المعهد الألماني. ومن الصحف التي نشرت رسائله وأحاديثه: جرائد التيمس، والمانشيستر جارديان، والديلي هيرالد، والإيجبشيان جازيت، والجازيت دي لوزان، والبوبولودي روما، والجرنالي ديطاليا، ولو أنيتيه.

وكان أحد شُبان ثلاثة قابلوا الزعيم سعد زغلول وأصحابه قُبَيل فكرة تأليف الوفد المصري. وقد توثَّقت صِلات المؤلف بالزعيم سعد، وتُبودِلت بينهما رسائل وأحاديث. هذا وقد أُتيحَ للمؤلِّف مُقابلة أعاظم الرجال كملوك العرب وإمبراطور الحبشة، وفي أوروبا كالبابا ولبران وديمورج، وهما من رؤساء الجمهورية الفرنسية، لويد جورج ومكدونالد وتشمبرلن وتشرشل وهريو من رؤساء الوزارات البريطانية، وليدن وبريان وبلوم وموسوليني والمئات من رجالات أوروبا. كذلك درس العمل في صُحفها التي نشرت رسائله وأحاديثه. وللمؤلف مقالات ودعايات لمصر في صُحُف أوروبا والبلاد العربية والأفريقية ومجتمعاتها. وقد عاصر المؤلف في صِباه الحركة الوطنية والفكرية الأولى، التي كان من أعلامها محمد عبده وعلي يوسف وقاسم أمين ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش. وعاصر في مَطلع شبابه الحركة الوطنية الثانية بزعامة سعد زغلول. وهو عضو اللجنة الاستشارية العليا للتعاون التي وضعت قانون الجمعيات التعاونية في ١٩٢٧، وأحد مؤسِّسي جمعية نهضة القُرى، ومؤسِّس جمعية الشبيبة المصرية، وجمعية

الدراسات السودانية، وجمعية الدراسات الأفريقية، ولجنة الدراسات العربية والإسلامية، ولجنة الدراسات النفسية والروحية والاجتماعية، واتحاد ضاحية الأهرام، وعضو البعثة المصرية للسودان، وعضو لجنة جوبا، وعضو الاتحاد العربي، والأستاذ السابق بقسم الصحافة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وفي أثناء دراسته الابتدائية أنشأ مجلة المُفيد، وفي ١٩٣٠ أصدر الجريدة القضائية، وفي ١٩٣١ أنشأ مجلة الإدارة والبوليس القضائي. وهو مُحامٍ ومُحرِّر بالأهرام.

أما في باب التأليف فقد أخرج عشرات المؤلفات، من ذلك: كُتُبه عن السودان، والمسألة الحبشية، والمسألة الهندية، والمسألة اليهودية، وتاريخ ما قبل التاريخ، وعصور ما قبل التاريخ، وميلاد الحضارة، ونشأة الحياة والحضارات الكبرى، وهذا حدث لي، وفاتحة الدراسات العربية والإسلامية، وفاتحة الدراسات النفسية والروحية، وكيف تكون سعيدًا ومحبوبًا وزعيمًا، والدولة الإسلامية، وأسرار الحياة الدولية، والمرأة الحديثة، والتعليم الجامعي والعربي، وعلى هامش القضاء وأشهر المُحاكمات، والملك عبد العزيز آل سعود والمملكة العربية السعودية، وظواهر نفسية وجنسية، وأسرار التصوف، ومجموعات الجريدة الوطنية، ومجموعات الإدارة والبوليس القضائي، وشرح القانون التِّجاري، والتعاون الزراعي، والمرأة الحديثة وكيف نسُوسها، و...

علم النفس الفردي

أصدر الأستاذ بول جيوم — أستاذ علم النفس في السربون — كتابًا عنوانه: «مدخل إلى علم النفس» في عام ١٩٤١، حين كانت فرنسا تحت الاحتلال الألماني. ويدور هذا الكتاب على المُوازنة بين علم الطبيعة وعلم النفس، مع بيان الأدوار التاريخية التي قطَعها علم الطبيعة حتى أصبح علمًا. كذلك علم النفس لم يُولَد في تاريخ الفكر علمًا كاملًا، ولكنه اجتاز المرحلة السابقة على الدور العلمي. قال في مقدمة الكتاب[١] بعد أن قرَّر وجود علم النفس العلمي: «إن الباحثين المُوقِنين بأهمية أعمالهم وقوَّتها تُحفِّزهم الهمَّة إلى إكمال هذه البحوث والدفاع عنها أمام النقد.» وقال في خاتمة الكتاب: «إن إحدى القلاع التي تصدُر عنها مُقاومة علم النفس هي، ولا ريب، تلك الفلسفة التي تُعلَّم في الفصول النهائية من مدارس الليسيه؛ ذلك أن علم النفس الذي يتعلَّمونه هناك ليس إلا جزءًا من مذهب، ونوعًا من الجدل يقوم على خدمة الفلسفة، وذلك العلم بعيدٌ كل البُعد عما يُدرَّس تحت هذا الاسم اليوم في جامعات العالم أجمع.»[٢]

هذا وليس جيوم آخر عالم فرنسي نادى بهذا الرأي؛ فقد سجَّله من قبلُ ألفرد بينيه، وكان رئيس معمل النفس بالسربون، فقال في كتابه «النفس والجسم»[٣] بعد مناقشة جملة التعريفات لعلم النفس: «هذا إذن هو التعريف الذي نضعه لعلم النفس، إنه يدرس عددًا

---

[١] ص٣٧٤، من الكتاب المذكور، مجلة الكتاب، ص١٤٠.

[٢] مقال الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في الكتاب.

[٣] الدكتور أحمد الأهواني.

معيَّنًا من القوانين نُسمِّيها عقلية؛ لتكون في مُقابِل قوانين الطبيعة الخارجية ...» والعلم هو الذي يحفل بكشف القوانين.

وكتب الأستاذ بيرون مقدمة لكتابه «علم النفس التجريبي» تقع في عشرين صفحة، لخَّص فيها المراحل التاريخية التي اجتازها علم النفس، وميَّز بين العلم والفلسفة، وأثبت استقلاله عنها.[٤]

وانفصل أدلر عن مدرسة فرويد عام ١٩١٢، وأخذ يُبشِّر بعلم نفس جديد سمَّاه علم النفس الفردي. يرى فرويد أن الغريزة الجنسية هي القوة الدافعة في سلوك البشر، فاختلف أدلر معه، وذهب إلى أن شعور الإنسان بالنقص هو الذي يدفعه إلى تعويضه؛ وذلك لوجود النزعة إلى القوة والسيطرة والتفوُّق في كلٍّ منَّا بالفطرة. فبينما يتَّخذ فرويد الغريزة الجنسية أساس السلوك، يجعل أدلر غريزة السيطرة الدافع إلى التصرف في الحياة.

اعتمد أدلر على فكرةٍ بيولوجيةٍ مجرَّبة، وهي أن العضو إذا أُصيبَ بضعفٍ قام عنه عضوٌ آخر بأداء وظيفته، مثال ذلك: إذا استُؤصلت إحدى الكُليتَين تضخَّمت الأخرى حتى تقوم بوظيفة الاثنتين. وانتقل أدلر من هذه البداية البيولوجية إلى تعليل ظهور الأمراض العصبية والنفسية؛ فإذا شعر المرء بنقصٍ ما تشكَّل سلوكه بأحد أشكال ثلاثة: الانحلال أو المرض العصبي أو النبوغ. فإذا لم يتغلَّب على الشعور بالنقص انزلق إلى الفساد والانحلال، أو هرب إلى الأوهام يحتضنها ويعيش في ظلها، وهذا هو المرض العصبي، فإذا استطاع تعويض نقصه أصبح نابغًا.

ضع هذه الألفاظ الثلاثة (الانحلال، المرض العصبي، النبوغ) بعضهما إلى جانب بعض، تنفُذْ إلى صميم نظرية أدلر في تعويض الشعور بالنقص.

هذا فيما يختصُّ بتفسير الأحوال العصبية التي عُني بها أول كل شيء. أما الأشخاص العاديون فإن سلوكهم في الحياة يتوقَّف على الطريقة التي يحلُّون بها هذه المشكلات الأساسية في الحياة، وهي: اختيار المهنة، والصلة بالمجتمع، والحب.

وليست هذه المشكلات الثلاث واقعةً تحت باب الأخلاق ومعايير القيم؛ فلم يكن أدلر كاتب أخلاق أو فيلسوفًا، بل كان عالمًا نفسانيًّا؛ ثم إنه لم ينظر فيما يجب أن تكون عليه

[٤] «علم النفس الفردي» الكتاب.

حياة الإنسان، وأنه «إذا كان على المرء أن يعيش بين بني جنسه، بل إذا كان حب المجتمع فطرة فيه؛ فإن على الفرد أن يُلائم بين نفسه وبين مُقتضيات بيئته ... إلخ» (ص١٤٠). ويبدو أن الروح الفلسفي الجدلي الذي أقبل به الأستاذ رمزي على تأليف هذا البحث، هو الذي حدَاه إلى الوقوع في هذا اللَّبْس المُنافي لعلم النفس. والرأي عند أدلر أن أسلوب الحياة لا يُفرَض على المرء فرضًا بالوراثة، بل يُحدِّده مركز الأسرة التي ينشأ فيها الطفل، وأن «تكوين الأنماط البشرية يبدأ من هذه الفترة المُبكرة». ولا ريب أن الطفل قبل الخامسة لا يعرف القيم والمعايير الخلقية، بل يكتسب أسلوب الحياة بالقدوة والمثال، ومن البيئة التي يعيش فيها.

ولقد ذهب مكدوجل جملةً إلى أن كتابات أدلر عسيرة الفهم، كثيرة التناقض، قليلة التماسك. أما تحامُل مكدوجل على أدلر فأمرٌ مفهوم؛ لأن صاحب مذهب الغرائز المُتعددة وما يتصل بها من انفعالات، يجب أن يُدافع عن مذهبه مع إنكار مذهب كل عالم سواه. يقول مكدوجل: «إني لَأجد آراء أدلر عسيرةً كل العسر على الفهم، بل هي أشد عسرًا من آراء فرويد.» وانظر معي إلى ما يقوله الأستاذ وودورث، ومنزلته معروفة في هذا العلم: «نستطيع أن نقول إن آراء أدلر أسهل من آراء فرويد.» ويقول في موضعٍ آخر: «إننا إذا نظرنا إلى مذهب أدلر نجد أن علم النفس الذي قال به مُتماسكٌ بكل تأكيد.» ولو اطَّلعنا على ختام الفصل الذي كتبه مكدوجل عن أدلر لَبرح الخفاء، وعرفنا السر في تلك الحملة، وفيه يقول: «إني لَأرى أن نظرية أدلر يمكن أن يُعبَّر عنها بوضوحٍ أكثر، وأن تأخذ مكانًا لائقًا في جملة نظرية الأمراض العصبية، لو أنه اعترف بالغريزتَين الأساسيتين اللتين أسمَيتهما بالسيطرة والخضوع.»

وممَّا يتَّصل بعلم النفس الفردي، التحدثُ عن اللاشعور؛ إذ يُنقِّب المرء في مؤلَّفات أدلر، ويَذرَعها هي ومؤلَّفات أتباعه جَيئةً، ثم يَذرَعها ذُهوبًا، عساه يقع على فصلٍ واحد يُغنِيه في الحديث عن اللاشعور، أو عن جانب من فصل يستطيع أن يخرج منه برأيٍ حاسم عمَّا يقولون فيه، ثم يتناول اللاشعور — واللاشعور عماد المدرسة التحليلية كلها — عند أصحاب المدرسة التحليلية (فرويد وأدلر ويونج) فلا تجد شيئًا. وفي أحد كُتُب أدلر فصلٌ من عشر صفحات عنوانه «اللاشعور»، جاء فيه: «إن بعض المَلَكات النفسية لا ينبغي البحث عنها في عالم الشعور، ولو أننا نستطيع توجيه الانتباه إلى حدٍّ ما بواسطة الشعور، إلا أن الباعث على هذا الانتباه لا يقع في الشعور، بل في أهوائنا، وهذه بدَورها تقع في الأغلب في دائرة اللاشعور.»

يعترف إذن أدلر باللاشعور وعلى الخصوص في أحوال العلاج النفسي. وقد أثبت الأستاذ رمزي هذا الرأي بعد ثلاث صفحات من ابتداء الفصل، فقال: «كان أدلر يرى أن علاج النفس ينبغي أن يبدأ بإخراج أفكار العظمة والسيطرة إلى نطاق الشعور.» ومعنى ذلك إخراجها من اللاشعور إلى الشعور. ثم ذكَر مثالًا أورده أدلر عن علاج فتاة كانت تُصيبها نوباتٌ عصبية مع التفكير في الانتحار والرغبة في التشرد: «وتبيَّن أدلر أن هدف المريضة اللاشعوري الذي انسرب إليها منذ طفولتها هو أن تُحوِّل نفسها رجلًا» (ص١١٦).

وليس صحيحًا أن أدلر وأتباعه «رأوا أن الشعور ضربٌ من النشاط العقلي»؛ ولهذا عاد ينتقد أدلر وأصحابه بقوله: «إنهم يخلطون بين الشعور والانتباه.» ولم يخلط أدلر بين الشعور والانتباه، بل ميَّز بينهما، ووضَّح ذلك فيما نقلناه عنه في الفقرة السابقة.

يذهب أدلر إلى أن مَيلَين عظيمَين يُوجِّهان جميع الظواهر النفسية، هما: الشعور الاجتماعي، والنزعة إلى السيطرة. ويتوقَّف عليهما تحديد المشكلات الأساسية في الحياة: الصلة بالمجتمع، واختيار المهنة والحب. فإذا أنكر الإنسان الحياة الاجتماعية ابتعد عن الناس ونفر منهم، وأصبح غير اجتماعي. وقد يزيد الشذوذ عند بعضهم، فتصدُر عنهم أفعالٌ عجيبة، أو يرتكبون الجرائم. ويتوقَّف اختيار المهنة على فهم طبيعة المجتمع، وانقسامه إلى طبقات، وانقسام كل طبقة إلى أصحابِ مِهنٍ مختلفة، ثم انتساب كل فرد إلى المهنة التي تُلائمه.

أما ميول الفرد الجنسية التي هي عند أدلر الحب، ففيها يقول: «لأن الحب أصل والحياة الجنسية فرع، ولأن الحب ينشأ منذ الطفولة، ولا تظهر الحياة الجنسية [في مذهب أدلر] إلا عند البلوغ.» ويعزو أدلر الاضطرابات التي تعتري حياة الأطفال النفسية إلى عدم شعورهم بالمحبة، وهو يذهب إلى أن قسوة المُستبِدِّين وكراهيتهم وظلمهم للعباد يرجع إلى ذلك العامل الذي يثبت في أنفسهم منذ الطفولة. ويعترض الأستاذ فالنتين، أستاذ التربية في جامعة برمنجهام، على هذه النظرية الأدلرية الأخيرة بأن الإحصاءات الدقيقة المؤيِّدة لها تنقُصنا، ولكنه من جهةٍ أخرى يعترف بأن تقارير عيادات الطفولة أثبتت أن الأطفال الذين يفقدون حب آبائهم يصبحون مصدر مشكلات كثيرة؛ لأن الطفل الذي يلتمس الحب فلا يجده يركبه الحسد والغيرة، ويميل إلى سلوكٍ يُحاول به استرعاء الأنظار إليه وإثبات سيطرته، وقد يدَّعي المرض في بعض الأحيان التماسًا للعطف.

ولقد ضرب أدلر مثالًا طريفًا يُوضِّح به كيف يؤدِّي شعور الطفل بفضل المحبة إلى أفعالٍ انتقامية، وهو قصة طفلة صغيرة كانت سببًا في غرق ثلاثة أطفال: «كانت تنعَم

بحب أبوَيها إلى سنِّ السادسة، ثم أنجبا طفلةً حوَّلا إليها عطفهما وحبهما، فشعرت الكبرى بكراهيةٍ شديدة لأختها، وأخذت تضطهدها؛ فنهرَها أبواها. وحدث بعد ذلك أن سكان ذلك المكان عثروا على طفلةٍ صغيرةٍ غريقة في النزهة القريبة من القرية، وعثروا على طفلةٍ ثانيةٍ غريقة، ثم ضُبِطت الطفلة أخيرًا وهي تدفع ثالثة إلى الماء، فاعترفت بجرائمها، وأُرسِلت إلى المصحَّة.»

علم النفس الجنائي

آثار الانفعالات النفسية هي الأعراض التي تبدو على الأعضاء الظاهرة أو الباطنة لجسم الإنسان، بسبب عامل من العوامل التي تؤثِّر في تلك الأعضاء تأثيرًا خاصًّا، كالسرور والحزن والغضب والخوف والتهيُّج والهبوط وغيرها. فكل حالة من هذه الحالات لها تأثيرها الخاص في المجموع العصبي، وبجملته جهاز الحركة. وقد دلَّت الخبرة على أن حالتَي السرور والحزن، وهما إجمالًا الحالتان الرئيسيتان اللتان تتفرَّع عنهما معظم الحالات الأخرى، لهما نتيجتان عكسيتان من حيث التأثير في أعضاء الجسم، وأعراضهما مُتضادَّة؛ فحالة السرور تزيد في مدى الحركات الخارجية، وتجعلها أكثر من المعتاد؛ وتُقلِّل من مدى الحركات الداخلية، وتجعلها أقل من المُعتاد؛[٥] على نقيض حالة الحزن، فإنها تؤدِّي إلى عكس ذلك؛ أي إلى إضعاف الحركات الخارجية وتقوية الحركات الداخلية؛ بمعنى أن حركة الانبساط تقلُّ، وحركة الانقباض تزيد أكثر من المألوف.[٦]

وإنه لمَّا يُوجِب الحيرةَ معرفةُ العلة الأساسية لهذه الظواهر العضوية المُتباينة؛ فقد يسأل الإنسان نفسه: لماذا تُولِّد حالة السرور انتشارًا في عضلات الجسم وأعضائه، وحالة الحزن والكآبة تُولِّد فيه قبضًا وانكماشًا؟ ولماذا لا يكون الأمر معكوسًا؟ ولكن في اعتقادي أن هذا اللغز يسهل حلُّه إذا كنَّا نُسلِّم بصحة قانونَي «الوراثة» و«النشوء والارتقاء»؛ فإن هذه المظاهر المُتباينة قد ورثناها عن جدَّتنا الأولى في عالم الأحياء، وهي الخلية البسيطة مَنشأ الكائنات الحية وبجملتها الإنسان؛ فهي صفاتٌ غريزية في الإنسان والحيوان من مبدأ خلقهما حتى الآن.

---

[٥] والمراد بالحركات الخارجية والداخلية هنا هي حركات البسط والقبض.

[٦] بصرف النظر عن كَوْن الحركات مصدرها الأعضاء الخارجية أو الأعضاء الباطنية (مقال الدكتور محمد فتحي بك في «مجلة القانون والاقتصاد»).

ولكن الاقتناع بذلك يقتضي منَّا تسليمًا بتوافُر غريزة أودعها الله في نفس كل كائن حي منذ القِدم، وهي غريزة حب البقاء، وأن جميع أعمال الإنسان والحيوان ومقاصده ترمي إلى هذه الغاية، حتى إن الميل الجنسي وكل ما يتفرَّع عنه مَرجعه إليها؛ لأن القصد منه التناسل؛ أي بقاء النوع. فغريزة حب البقاء قد يتولَّد عنها كثيرٌ من العوامل التي ترمي إلى الغاية نفسها. ومن بين هذه العوامل ميلُ الكائن الحي إلى السعي لتحصيل قوَّته، ومن البدهي أن هذا السعي يتطلَّب منه البسط والانتشار، بعكس عامل الخوف أو الفزع؛ فإنه يدعوه إلى الانكماش والتقلص. وهذه الظواهر التي تُشاهَد في الأحياء الراقية تُشاهَد في الأحياء الدنيئة، حتى في أبسطها تركيبًا مثل الأميبا.[٧] فبعمل التجارب على هذا الكائن الحي الدقيق بوضعه تحت عدسة المِجهر (الميكرسكوب)، يُلاحَظ أنه يتأثَّر بالمُنبِّهات. فإذا وُخز بسنٍّ حادٍّ كسنِّ الإبرة، أو مُسَّ سطحه بسائل كاوٍ أو حِرِّيف، أو سُلِّط عليه تيارٌ كهربائي شديد، أو قُرِع بجسمٍ صلب على اللوح الزجاجي الموضوع عليه الحيوان؛ يتقلَّص وينكمش في الحال، ويأخذ شكلًا كرويًّا، كمن يريد أن يجمع كل قُواه المُنتشرة، ويلمَّ شتات أطرافه في نقطة ارتكاز واحدة يتَّخذها مركزًا للدفاع، أو لمُواجهة الخطر المُحدِق به. وعلى النقيض من ذلك إذا لامسه سائلٌ مُغذٍّ؛ فإنه ينبسط وتظهر أطرافه، وتنتشر بقصد الْتِهام العناصر المُغذِّية التي بداخل ذلك السائل وهضمها. ويُسمَّى النوع الأول من المُنبِّهات، وهو الذي يدفع الخلية إلى التقلُّص أو التكوُّر، بـ «المُنبِّه المُنفِّر»؛ والنوع الثاني الذي يُنبِّهها إلى البسط والانتشار بـ «المُنبِّه الجذَّاب». وهذه التجارب معروفة لكل باحث فزيولوجي وبيولوجي.

وقد تُشاهَد هذه الحالات في وضوح في بعض الحيوانات ذات الخلايا المُتعددة. ولو كانت من النوع المُنحط كالديدان والحشرات، والحيوانات ذات الأصداف والدروع الطبيعية كالمحار والقواقع؛ فإنها بمجرد اللمس تتقلَّص وتنكمش، أو تتكرَّر، أو تهرع إلى أصدافها ودروعها؛ وبالعكس إذا قابلت ما تستطيبه أو تلتذُّ به؛ فإنها تنفرد وتنتشر،

[٧] وهي قطعة من مادةٍ زلالية تُعرَف بِاسم البروتوبالاسما — أي المادة الأولية — وبداخلها نواةٌ صغيرة، وهي ذات حركة زحفية تؤدِّيها بواسطة نُتوءات تبرُز من مادتها الزلالية المُحيطة بالنواة كالأطراف، وتُسمَّى بالأعضاء الكاذبة، ويُسمَّى هذا النوع من الحيوان حيوانًا أوليًّا، ويُسمَّى أحيانًا ذا الخلية الفردية؛ تمييزًا له عن الحيوانات المركَّبة من خلايا.

وتفتح أصدافها وتبرُز منها. وقد نُفسِّر بهذا ما نسمعه أحيانًا ونعدُّه من قبيل الأساطير والخرافات، من أن زيدًا من الناس اجتذب إليه الوحوش بقيثارته، أو الطيور بصفيره، أو الثعابين بمِزماره؛ فإن السرور أو الطرب يجتذبها إلى مصدره، في حين أنها تفرُّ من الألم، وتهرع إلى أوكارها، وتنكمش فيها خوفًا ورعبًا.

وكما أن الكائنات الحية من أول الخلية البسيطة إلى أرقاها نوعًا، وهو الإنسان، يجذبها السرور إلى مصدره وينشرها، وتنفر من الألم وتفرُّ من وجهه؛ كذلك عضلات الجسم وأنسجته وخلاياه خاضعةٌ نفسها لهذه المؤثِّرات. فلو عُرِض سطح عضلة من العضلات لسائلٍ حِريف أو كاوٍ أو شديد البرودة أو الحرارة، أو وُخزت بآلةٍ مدبَّبة، أو سُلِّط عليها تيارٌ كهربائي قوي؛ انكمشت العضلة وتقلَّصت، حتى ولو بعدَ قطعِ العصب المُحرِّك (لكيلا يكون هناك شكٌّ في أن للفعل المُنعكِس دخلًا في تقلُّصها). أما لو وُضع عليها سائلٌ مُغذٍّ لذيذ، وعلى درجة من الحرارة مُعتدلة، أو دُلكت دلكًا لطيفًا؛ انبسطت العضلة وانشرحت.

ولا أظن أنني مُخطئٌ إذا ما قلت إن كلمة «انبساط» التي يستعملها عامَّتنا للتعبير عن حالة السرور ما هي إلا كلمةٌ بليغة المعنى، مُنطبقة تمامًا على تلك الظاهرة الطبيعية التي أيَّدها العلم الصحيح، حتى في أبسط الأحياء تركيبًا وأدقها حجمًا. فلننظر كيف يفعل بنا السرور؛ فإنه يحملنا على بسط أيدينا وأرجُلنا وسائر أعضائنا، وكثيرًا ما نُشاهِد الصبي عند الفرح يُصفِّق بيدَيه مبسوطتَين، ويُطوِّح برِداء رأسه نحو السماء طربًا، ويفتح شدقَيه بالصياح والتهليل. ولننظر كيف يفعل بنا الحزن أو الخوف من الانقباض والانكماش وتقلُّص العضلات.

أليست لكلٍّ منَّا خبرة بما يعتري الإنسانَ عند رؤية الأشباح المُخيفة، أو سماع الأصوات المُزعِجة، أو لمس الأجسام الغريبة في الظلام؛ من قشعريرةٍ خاصة في البدن، أو انقباض في الجلد يقف منه الشعر أحيانًا، وخفَقان في القلب، واضطراب في حركة التنفس، وامتقاع في لون البشرة، وبُرودة في الأطراف؟ وما ذلك إلا لكَونِ رؤية الشبح المُخيف، أو سماع الصوت المُزعِج، أو لمس الجسم الغريب، كلها عوامل نفذت عن طريق الحواس (البصر أو السمع أو اللمس) إلى المخ، فأيقظت فيه ذكرى مُخيفة، فتظهر في الحال آثار الانفعالات على الإنسان.

فإذا سلَّمنا بهذه الطريقة التي تدلُّ على صحتها وتؤيِّدها الشواهد الكثيرة في حياتنا اليومية، أمكننا أن نُدرِك في سهولةٍ سرَّ انكماش عضلات الجسم في حالة الخوف وانبساطها

في حالة السرور؛ فهي غريزة ورِثناها عن جدَّتنا الخلية من بدء خلقها في العصور الأولى، وحملتها إلينا سفينة الوراثة مع ما تزوَّدته في مراحلها من ثمرات الأجيال الغابرة، وهي تمخر عُباب الدهر جريًا على سنة النشوء والارتقاء، ولا زالت ممثَّلة في الخلايا الكثيرة التي تتألَّف منها مجموعة أجسامنا البشرية حتى الآن.

غير أن المؤثِّرات النفسية قد تكون مباشرة، كوقوع حادث فُجائي يصطدم بالحواس، فيُنبِّه مركز الحركة من المجموع العصبي، فتبدو آثار الانفعال الخاصة بكل حادث على حسب نوعه؛ وقد يكون التنبيه بطريقٍ غير مباشر، بتنبيه مركز الحركة بواسطة الذاكرة أو المُخيِّلة، وعندئذٍ تبرُز آثار الانفعال النفساني على أعضاء الحركة بالصورة التي أَلِفها الإنسان واعتادها من قبلُ في مثل هذه الأحوال. أو في كلمةٍ أخرى، إن الانفعالات قد يكون مصدر التنبيه فيها إما خارجيًا، كأن يطرُق عامل الخوف أو الحزن أو السرور باب الحواس، فيُوقِظ مركز الحركة وهو يدفع الأعضاء إلى العمل؛ وإما باطنيًّا بأن يقع التنبيه على المركز العصبي للحركة من الداخل مباشرة بوساطة عامل نفساني باطني، كذكرى حادثٍ مُؤلِم أو مُخيف أو مُحزِن أو سارٍّ، فتتجلَّى على الأعضاء الأعراض الخاصة بكل عامل من هذه العوامل.

ولأجل تقريب ذلك للفهم يمكن، من قبيل الفرض، تشبيه الحوادث أو ذكرياتها بالتيارات الكهربائية، وتشبيه الأعصاب بالأسلاك المُوصلة للتيار ومركز الحركة، سواء كان من المراكز الواقعة في المخ أو في الحبل الشوكي بالمُحرِّك «الدينامو»، والحافظة بوعاء تُخزَّن فيه السيَّالات الكهربائية للحوادث عند وقوعها، كما تحفظ القُوى الكهربائية في البطاريات المعروفة بالمُكثفات. فإذا وقع حادثٌ ما، أو اصطدم بإحدى الحواس الخمس، كحاسة اللمس مثلًا التي تكون بمثابة أحد قطعي الاتصال، يمرُّ السيَّال الكهربائي بـ «أعصاب الحس»، ومنها إلى مركز الحركة (الدينامو)، فيتنبَّه المركز المذكور، ويقوم بأداء وظيفته، وهي تحريك الأعضاء المُسلَّط عليها ذلك المركز، ويدفعها إلى الحركة بواسطة الأعصاب المُحرِّكة.

فإن كان الحادث مُزعِجًا أو مُنفِّرًا قامت الأعضاء المُخصَّصة للدفاع عن الجسم بواجبها، وإن كان جذَّابًا أو مُحرِّضًا تولَّدت فيها الحركات الخاصة بالتعدِّي أو الهجوم، وإن كان سارًّا بدَت على الكائن الحي علامات السرور والانشراح، وإن كان مُحزِنًا بدَت عليه آثار الكآبة والانقباض.

ولكن مثل هذه الحوادث لا تمرُّ عادةً من غير أن تترك صورةً خالدة في الذاكرة، وهي حكمةٌ أودعها الخالق — سبحانه وتعالى — في نفس المخلوق؛ لكي يتَّخذ له منها عِبرة وموعظة، ولكي تُكسِبه في مستقبل حياته خبرةً تَقِيه شر الوقوع في الخطأ، أو الاندفاع إلى مواضع الخطر مرةً أخرى. فإذا ما لمس الطفل النار مرة ولذعته، رسخت هذه الذكرى المُؤلِمة في ذهنه؛ لكيلا يلمِس النار مرةً ثانية. فإذا وقع بصره عليها ولو عن بُعدٍ تنبَّهت لديه ذكرى الألم، بل ربما تقلَّصت عضلات جسمه في موضعه السابق فلا يقربها. ولعل الكثير منَّا لاحظ كيف تتقلَّص عضلات المَعدة، ويعترينا تهوعٌ وغثيان قد يعقبهما قيءٌ أحيانًا بمجرد وقوع بصرنا على دواء أو شراب علِمْنا بالخبرة أنه كريه الطعم، بل ربما كان مجرد تذكُّره كافيًا لدى البعض منَّا لإحداث هذه الأعراض.

فممَّا تقدَّم يتبيَّن لنا كيف أن صور الحوادث تُحفَظ في المخ، وفوق ذلك؛ فإن الشواهد كلها تؤيِّد أنها لا تُحفَظ فيه فقط لمجرد الحفظ، بل تُحفَظ فيه بترتيب ونظام، كما لو كان لكل نوع منها مُستودَعٌ خاص به يُشحَن بجانب من السيَّال الكهربائي لكل حادث حالَ مرورِه بالأعصاب واشتغال المُحرِّك؛ وذلك حتى يسهل الرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى الحكم على أمر من الأمور عن طريق المُوازنة والقياس.

فإذا أُوقظَ في الذهن نوعٌ من الخواطر أو الذكريات، اندفع السيَّال الكهربائي من المُستودَع الخاص بذلك النوع إلى مركز الحركة، فيقوم هذا بتنبيه أعضاء الحركة الخاضعة له. وهذا ما يُعبَّر عنه بحسب الاصطلاح العلمي أو الفني بالدافع الذاتي.

إنما لا يُفهَم من ذلك أن هناك اتصالًا دائمًا بين مُستودَعات الحوادث وبين المُحرِّك، لكيلا يكون التنبيه واقعًا باستمرار على مركز الحركة، بل هذا الاتصال مقطوع، كما لو كان في طريق الأعصاب المُوصلة بينهما زرٌّ كهربائي قاطع للتيَّار، لا يتصل إلا إذا عمدت يد عامل من العوامل المُنبِّهة إلى وصله؛ حتى لا يتحمَّل الإنسان في حياته أوجاع مصائبه الماضية بغير ضرورة أو مُقتضٍ، ولا ينوء تحت عبء ما يحمله في ذاكرته من مجموعة آلامه وأوصابه التي انتابته في ماضي العمر.

فإذا ما ضغطت يد العامل المُنبِّه على «زر» الاتصال، اتصل التيار، وانطلق من المُستودَع بعض الشحنة إلى مركز الحركة، وعندئذٍ تتكرَّر الانفعالات الخاصة بهذا النوع من الحوادث في صورة قد تكون مُخفَّفة نوعًا ممَّا لو كان الحادث مُحقَّقًا، كما لو كانت المُكثفات فقدت بمرور الزمن جزءًا من قوة كهربائيتها.

ويرجع الإسهاب في هذا الموضوع، وهو ما للانفعالات النفسية من الارتباط بالجرائم، إلى الرغبة في تعليل آثار تلك الانفعالات، وردِّها إلى أسباب الطبيعية؛ حتى يمكننا فهمها علميًّا، والاستفادة منها عمليًّا، ولكني قبل أن أنتقل إلى جوهر الموضوع أريد أن أدفع مقدَّمًا اعتراضًا يبدو من الكثيرين، وهو أن المُجرِم الماهر المُدرَّب الذي ماتت من قلبه كل عاطفة قد يستطيع استخدام كل ما أُوتي من قوة في أن يُخفِي عواطفه، فلا تبدو عليه آثار الانفعال.

صحيح قد يكون من الهيِّن عليه أن يُخفِي الآثار الظاهرة لحركاته وإشاراته الخارجية، أو يُلطِّف كثيرًا من حدَّتها بحيث لا تبدو محسوسة، كما أنه ليس من المحتَّم أن يبكي المرء عند الحزن أو يضحك عند السرور، ولكن ليست الأعيُن والشِّفاه والأيدي والأرجُل هي التي تشهد علينا دون غيرها، فإن هذه إذا التزمت الصمت وقويت على الكتمان، فهناك أعضاءٌ أخرى لا سلطان لإرادتنا عليها قد تكشف الستار بالرغم منَّا عن الرواية التي تُمثَّل في مَسرح المُخيِّلة، وتنمُّ عن تفاصيل المعركة التي تدور رحاها في ميدان الضمير. وبيان ذلك أن في الجسم نوعَين من الأعضاء من حيث الحركة؛ فالنوع الأول تتألَّف منه الأعضاء ذات الحركة الإرادية؛ أي الخاضعة في حركاتها لمركز الإرادة في المخ، كالأيدي والأرجُل والشِّفاه والجفون والعيون وغيرها من سائر الأعضاء التي يمكننا تحريكها أو وقف حركتها كلما أردنا؛ والنوع الثاني يتألَّف من الأعضاء ذات الحركة غير الإرادية، كعضلات القلب المُبطنة لجدران الأوعية الدموية والعضلات، والأنسجة الأخرى لبعض الأحشاء الصدرية والبطنية والحوضية، وكذلك غُدَد العرق والدمع واللُّعاب وغيرها من الغُدد ذات الإفرازات المختلفة.

فالنوع الأول من الأعضاء خاضع في حركته لجهازٍ عصبي يختلف في نوعه عن الجهاز العصبي للأعضاء ذات الحركة غير الإرادية. ويُسمَّى الأول بـ «الجهاز العصبي الإرادي»، والثاني بـ «الجهاز العصبي الذاتي». والأول مراكزه العصبية واقعة في منطقة الحركات الإرادية من المخ، والثاني مراكزه العصبية بعيدة عن مراكز الإرادة مقطوع الاتصال بها. ومعظم هذا الجهاز الأخير مؤلَّف من سلسلة من العُقَد العصبية واقعة على جانبَي العمود الفقري (ومعروفة بِاسم العظيم السمبتاوي)، وتقوم عُقَد أخرى قائمة في الدماغ، والبعض الآخر في جدران الأعضاء نفسها عليها هذه المراكز في القلب.

فالفرق بين هذَين الجهازين جليٌّ واضح من حيث التأثير في حركات الأعضاء؛ فإن كان في وُسْعنا أن نمنع أيدينا وأرجُلنا عن الحركة، أو إبداء أي إشارة تنمُّ عمَّا نُبطِن في

نفوسنا؛ فمَن منَّا يستطيع أن يُغيِّر بإرادته دقَّات قلبه، وسرعة نبضه، ودرجة امتلائه، وقوة ضغط دمه، وكمية إفراز غُدة من غُدَد جسمه، أو حركات أمعائه أو أحشائه الباطنية، أو درجة حرارة جسمه؟ فإذا كان ليس في وُسْعنا ذلك، وعلِمْنا بالتجربة والمُشاهَدات أن لكل انفعال نفساني آثارًا خاصةً به، ومميزاتٍ تُسجِّلها علينا أعضاؤنا المُتمتعة بالحركة الذاتية كما يسجِّل الترمومتر والباروميتر درجات الحرارة والرطوبة، وأن أمهر مُمثِّلي العالم مهما بلغ من الدُّربة والحنكة لا يقوى على سترها وإخفائها؛ ألسنا نجني من وراء دراسة هذه الآثار وكشفها أجلَّ فائدة عملية؟ أو إنه بقدر ما يُوجَد لدينا من الآلات المُتقَنة الصنع، التي بها نستطيع رصد حركات الأعضاء الباطنية بدقة، بقدر ما يسهل علينا كشف ما يجُول بخاطر المتَّهَم الموضوع تحت الاختبار، واستخراج مكنون أسراره، وإن آلاتٍ كهذه يكون مثلها كمثل المِجهر الذي يكشف لنا أنواع الجراثيم ودقائق الأنسجة المختلفة للجسم في تشخيص الحالات المرَضية؟

علم النفس الجنائي العملي

إلى هنا قد انتهينا من الكلام في الموضوع من الوجهة العلمية، بقي علينا أن نتكلَّم عنه من حيث التطبيق، وكيف يمكننا الاستفادة منه في الأبحاث الجنائية عمليًّا.

ولنبدأ الآن بتجربةٍ سهلة نتيجة الاختبار الشخصي،[٨] وقد أجريتها على الآلة الموسيقية المعروفة بـ «الكمنجة»؛ فقد أجريت عليها تمريناتٍ عديدةً على وترٍ مُنفرد في أوقات وحالاتٍ نفسانية مختلفة، فلاحظت أن لكل حالة منها تأثيرًا خاصًّا على حركات العفق (أعني الضغط على الأوتار بالأصابع لإحداث النغمات المختلفة)، وبمراقبة تأثير كل حالة منها مراقبةً دقيقة ظهر أنه في حالة السرور تنخفض أصوات الأنغام المُتولِّدة من العفق على مسافاتٍ مقدَّرة عن أصولها قليلًا، وذلك سواء عند الصعود بالأصابع على وجه الكمنجة لتوليد الأنغام العالية، أو عند النزول في اتجاه طرف الكمنجة الوحشي المعبَّر عنه بـ «البنجق» لتوليد الأنغام المُنخفضة؛ أي إن حالة السرور تُولِّد انخفاضًا في النغمات المعفوقة على العموم، سواء في حالة الصعود (وهي التي تستدعي جذب الساعد للداخل)، أو في حالة النزول (وهي التي تستدعي بسطه للخارج)؛ وإن حالة الحزن تُولِّد ارتفاعًا في

[٨] مقال الدكتور محمد فتحي بك وتجربته.

الأصوات المعفوقة على العموم (أي في حالتَي الصعود والنزول)، وحالة الغضب والتنبيه العصبي تُولِّد ارتفاعًا في النغمات الصاعدة وانخفاضها في النغمات الهابطة على أصولها قليلًا، وحالة الهبوط والانحطاط تُولِّد انخفاضًا في النغمات الصاعدة وارتفاعًا في النغمات الهابطة. وإذا ما عرفنا أن النغمات الصاعدة هي التي تتولَّد من الزحف باليد على وجه الكمنجة إلى الداخل، وهذا يقتضي قبض الساعد، وأن النغمات الهابطة تتولَّد من تحريك اليد إلى الخارج، وهذا يقتضي بسط الساعد؛ استخلصنا النتيجة الآتية:

- السرور يزيد حركات البسط، ويُقلِّل حركات القبض.
- الحزن يُقلِّل حركات البسط، ويزيد حركات القبض.
- الغضب يزيد حركات البسط، ويزيد حركات القبض.
- الهبوط يُقلِّل حركات البسط، ويُقلِّل حركات القبض.

وقد قام علماء النفس بتجارب عديدة بالطُّرق الفنية الصحيحة، فتبيَّن بالاختبار أن لكل حالة نفسانية تأثيرًا خاصًّا على حركات التنفس والنبض والدورة الدموية وغير ذلك، بحيث إذا قِيسَت تلك الحركات بدقة، ودُوِّنت في شكل موجات بوساطة الأجهزة المخصَّصة لذلك، والمعروفة لدى علماء الفزيولوجيا؛ أمكن في سهولةٍ تشخيص الحالة النفسية المُتسلِّطة على الشخص في وقت الاختبار، ومعرفتها في دقة. فلأجل قياس التنفس وُضِع جهاز يُسمَّى البنوموجراف، وهو مؤلَّف من أسطوانةٍ حلزونية من السلك، مكسوَّة بغلافٍ رقيق من المطَّاط (الكاوتشوك)، تُربَط على الصدر، بحيث إن أقلَّ حركة في التنفس تؤثِّر في طول الأسطوانة، فتنكمش أو تنفرد بحسب حالتَي الشهيق والزفير، وفي نهاية الأسطوانة أنبوبةٌ رقيقة من المطاط. وفي طرفها «ترمسة» مجوَّفة صغيرة من المطاط كذلك، وهذه يرتكز على أحد سطحَيها ذراعٌ صغير يعلو وينخفض مع سطح «الترمسة» عند انتفاخه أو انبطاحه، تبعًا لدرجة امتلائها بالهواء القادم من الأسطوانة عند انكماشها، أو تفريغه منها عند انفرادها. وهذا الذراع الصغير مسلَّط على ذراعٍ أطول منه بمثابة مؤشِّر أو عقربٍ طويل لكي يُضعِف حركة الذراع الصغير ويُكبِّرها حتى تبدو أخف الحركات كبيرةً واضحة. والمؤشِّر أو الذراع الكبير تارةً يكون مركَّبًا على وجه لوح مدرَّج لقياس حركات التنفس، وتارةً يكون طرفه مسلَّطًا على سطح شريط من الورق ملفوف على أسطوانةٍ ذات حركة آلية بطيئة مُنتظمة، ويكون طرف المؤشِّر مغموسًا في الحبر لكي

يرسم على سطح الشريط الموجات الناشئة عن حركات التنفُّس من شهيق وزفير. وقد دلَّ الاختبار على النتائج الآتية:

- في حالة السرور يُسرع التنفس ويصير خفيفًا (تأمَّلْ في الضحك).
- في حالة الحزن يُبطئ التنفس ويصير عميقًا (تأمَّلْ في التنهُّد).
- في حالة الغضب يُسرع التنفس ويصير قويًّا.
- في حالة الهبوط يُبطئ التنفس ويصير خفيفًا.

ولَمَّا تمَّت تجارب على النبض بوساطة جهاز خاص معروف بِاسم سفجموجراف، وهو جهازٌ بُنِي على نظرية البنوموجراف تقريبًا، ويُركَّب فوق المِعصم عادةً، حسَّاس لنبض الشريان الكعبري؛ تبيَّن ما يأتي:

- في حالة السرور يُبطئ النبض ويصير قويًّا.
- في حالة الحزن يُسرع النبض ويصير ضعيفًا.[٩]
- في حالة الغضب يُسرع النبض ويصير قويًّا.
- في حالة الهبوط يُبطئ النبض ويصير ضعيفًا.

وهناك أيضًا جهاز يُسمَّى بـ «البلتزموجراف» لقياس مقدار توارُد الدم في عضو من الأعضاء، وهو مؤلَّف من أسطوانة من الزجاج تُملأ بالماء، ويُغمَر العضو المراد اختباره كالساعد مثلًا، ويُحكَم سدُّ فُوَّهتها بمعجونٍ يمنع تسرُّب الماء، وبها ثقبٌ متَّصِل بأنبوبةٍ رفيعة من المطَّاط، في نهايتها «ترمسة» صغيرة من المطَّاط مسلَّطة على عقربٍ يتبَع في حركته ضغط الهواء الذي يرِد إلى «الترمسة»؛ فأقل زيادة في توارُد الدم في العضو المُختبَر يبدو أثرها في كمية الماء التي تملأ الأسطوانة، فيرتفع الماء قليلًا؛ وبذلك يضغط على كمية الهواء التي بداخل الأنبوبة؛ وبالتالي «الترمسة»، فتنتفخ هذه الأخيرة قليلًا فيتحرَّك العقرب. وقد وُجِد بالتجربة أن لكل انفعال تأثيرًا خاصًّا في كمية الدم التي تتوارد على ذلك العضو الموضوع تحت التجربة.

كذلك تبدو آثار الانفعالات النفسانية في حركة الساق الناشئة من الدقِّ على وتر الركبة بتأثير الفعل المُنعكِس، وبمعنى أن الزاوية التي تتألَّف من هذه الحركات تختلف

[٩] ممَّا هو جدير بالملاحظة أن لحالتَي السرور والحزن أثرهما في ضربات القلب على نقيض ما في التنفس.

درجتها باختلاف الحالات النفسية المُتنوعة؛ أي إن لكل حالة منها زاويةً خاصة بها. وقد استُخدم لذلك جهازٌ خاصٌّ ذو مِطرقة صغيرة تدقُّ على ذلك الوتر دقاتٍ مُتساوية القوة في فتراتٍ مُنتظمة، ثم رُصدت الحالات النفسية المختلفة حال إجراء هذه العملية. وعلى هذا القياس قِيست معظم حركات الجسم وسكناته.

تجارب الأستاذ منستربرج

وقد وضع العلَّامة هوجو منستربرج، أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة، وأحد أعلام علم النفس العملي الحديث؛ بعضَ تجارب قيِّمة في هذا الموضوع، وذات فائدة عظمى، ننقل بعضها لأهميتها:

التجربة الأولى: جاء بلوحٍ مركَّب على أربع «بيل» يتحرَّك على سطحٍ أملس؛ ليكون اللوح سهل الحركة ما أمكن، ثم أمر الطالب المُراد اختباره بأن يضع يده على اللوح المذكور بعد أن حمل ذراعه بالقرب من المِرفق بحاملٍ متَّصِل بحبلٍ معلَّق في السقف؛ لتكون يده مُطلَقة الحرية في التحرك إلى أي اتجاه كان. وأحضر بطاقاتٍ عديدةً على كلٍّ منها حرفٌ معيَّن من الأحرف الهجائية، واختار من بينها حرفًا عرَضه على الطالب، وأمره أن يحصر ذهنه فيه جيدًا. وبعد ذلك وضع الحرف بين باقي الأحرف التي صُفَّت في شبه نصف دائرة حول اللوح الذي عليه يد الطالب، فلاحَظ أن يده تحرَّكت في اتجاه مكان الحرف الذي كان حصر فيه ذهنه. ولمَّا نقل الحرف المذكور من مكانه تحرَّكت اليد ثانيًا في اتجاه المكان الجديد لذلك الحرف. وهكذا كلما غيَّر مكان الحرف تحرَّكت يد الطالب نحو المكان على غير قصد منه. ومن ذلك علِم الأستاذ منستربرج أن هناك صلةً بين حركة اليد وبين الحرف الذي ارتبط به ذهن الطالب، وقال: «إنه لو جيء، قياسًا على ذلك، بمجرمٍ يُنكر سلاحه الذي وُجِد بمحل الحادثة، ووُضع هذا السلاح بينَ أسلحةٍ عديدةٍ أخرى في شبه نصف دائرة حول ذلك اللوح الذي يُكلَّف الجاني بوضع يده عليه، وشُوهِدت يده تتبَع في اتجاهها مكان ذلك السلاح دون سواه؛ لدلَّ ذلك على أن للمتَّهَم صلة بالسلاح المذكور.» وقد أطلق على هذا الجهاز البسيط اسم أتوماتوجراف؛ أي كاتب الحركة الذاتية؛ لأنه ركَّب في طرف اللوح جهازًا صغيرًا يُسجِّل اتجاهات الحركة على قطعة من الورق أسفل اللوح.

التجربة الثانية: لَمَّا كانت حالة الخوف ينشأ عنها تقلُّص في عضلات الجسم، وخاصةً عضلات أعضاء الحركة، فقد استخدم الدكتور منستربرج كرةً صغيرة من المطَّاط متَّصِلًا بها أنبوبةٌ رفيعة، في نهايتها «ترمسة» صغيرة من المطَّاط أيضًا، والترمسة مسلَّطة على ذراعٍ صغيرٍ متَّصِل بذراعٍ كبير يعظم الحركة مركَّب على لوحٍ مقسَّم، بحيث إن أقل انقباض في الأصابع يُحدِث ضغطًا على الكرة التي في قبضة اليد يظهر أثره مكبَّرًا على اللوح بوساطة المؤشِّر. فإذا ذُكِر أمام المتَّهَم اسم المجني عليه أو اسم متَّهَم آخر كان شريكًا له في الجريمة بين عشرين اسمًا مثلًا لأشخاصٍ آخرين، ولُوحِظ أن المؤشِّر تحرَّك عند ذِكر اسم المجني عليه أو الشريك دون باقي الأسماء؛ أمكن أن نستنبط من ذلك وجود علاقة بين المتَّهَم والشخص المُسمَّى بالرغم من تجاهُله إياه؛ وما ذلك إلا بسبب كَوْن سماعه هذا الاسم أحدث في نفسه انفعالاتٍ نتيجة الخوف، فتتقلَّص عضلات اليد والأصابع، فيضغط الشخص، على غير قصد منه وبدون انتباه، على الكرة التي في يده، فيضغط الهواء الذي فيها، ويملأ الترمسة فتنتفخ؛ وبذلك يتحرَّك المؤشِّر.

التجربة الثالثة: لاحَظ منستربرج أن لكرة العين نوعًا من الحركة، قد يكون مستقلًّا عن إرادة الشخص وقصده، فتتحرَّك في اتجاهٍ معيَّن وهو لا يعلم من أمرها شيئًا. ولإثبات ذلك قد جهَّز بطاقاتٍ كتب على كلٍّ منها كلمة من الكلمات العادية، إنما جعل من بينها كلمةً ذات تأثير خاص في نفس الطالب الذي ستُجرى معه التجربة، وأخذ يعرض عليه الكلمات تباعًا بعد أن اتفق معه مبدئيًّا على أمورٍ معيَّنة، وهي أن يقرأ الطالب الكلمة التي تُعرَض عليه ويتأمَّلها، ثم يُغمِض عينَيه ويُدير وجهه إلى أحد الجانبَين قليلًا، ثم يفتح عينَيه في الحال؛ فلاحَظ أنه في الكلمات الاعتيادية كانت كُرتا العينَين تتبَعان في اتجاههما اتجاه الوجه أثناء تحوُّله عن مكان الكلمة، أما الكلمة ذات التأثير الخاص فإنه عند عرضها لاحَظ أن كُرتَي العينَين لا تزالان في اتجاه تلك الكلمة بالرغم من تحوُّل الوجه عنها إلى جانبٍ آخر، كما تبيَّن له ذلك من مُشاهدة عينَي الطالب حال فتحه جفنَيه عقب إدارته وجهه. وقد كرَّر الأستاذ التجربة مرارًا، فكانت النتيجة واحدة في كل مرة؛ ومن ذلك أيقن أن للكلمة ذات الأهمية الخاصة تأثيرًا خاصًّا في حركات العينَين واجتذابها إلى مصدرها، حتى ولو أُديرَ الوجه إلى اتجاهٍ آخر.

فلو كنَّا في المسائل الجنائية نعرض تباعًا على المتَّهَم الموضوع تحت الاختبار أسلحةً عديدةً مختلفة من بينها السلاح الذي وُجِد في محل الحادث، وظهر لنا أثناء إجراء التجربة على الوجه السالف الذِّكر أن لهذا السلاح، وحده دون باقي الأسلحة التي

عُرِضت على المتَّهَم، الأثرَ نفسه الذي للكلمة الخاصة لدى الطالب، بمعنى أن كُرتَي عينَي المتَّهَم لم تتحوَّلا عنه بالرغم من إدارته وجهه إلى اتجاهٍ آخر؛ كان ذلك دليلًا على وجود علاقة للمتَّهَم بهذا السلاح، بالرغم من إنكاره ملكيته وتجاهُله إياه.

التجربة الرابعة: وهي أن يؤتى بلوحَين من النحاس، كلٌّ منهما متَّصِل بأحد طرفَي سلكٍ كهربائي متفرِّع من بطاريةٍ كهربائية، وفي طريق التيار جلفانومتر دقيق (وهو عبارة عن جهازٍ ذي إبرةٍ مغناطيسية لقياس مقدار مُقاومة التيار)، ويضع المتَّهَم المُراد اختباره إحدى يدَيه على لوح والأخرى على اللوح الآخر، ثم تُذكَر له أسماءٌ كثيرة من بينها اسم شريكه في الجريمة أو اسم المقتول مثلًا، فيُشاهد أن إبرة «الجلفانومتر» تتحرَّك عند ذِكر أحد هذَين الاسمين دون غيرهما من الأسماء الأخرى. وهكذا كلما أُعيدَت التجربة كانت النتيجة ثابتة. ومن هذا يُستدلُّ على وجود ارتباط بين المتَّهَم وبين الشخص المُسمَّى. كذلك الحال لو ذُكِر أمامه أمرٌ يدَّعي جهله أو أنه لا يهمُّه، ولُوحِظ تحرُّك عقرب المقياس؛ فإن ذلك يدل على كذبه فيما يدَّعي.

وإني لإخال القارئ يُساوره الشك والدهشة، ولكن على حد المثل السائر: «إذا ظهر السبب بطل العَجب.» فتعليل ذلك ليس بالأمر العسير، فكلُّنا نعلَم منذ عهد المدرسة أنه إذا أُحرِج أحدنا أثناء الامتحان بسؤالٍ صعب، أو وُجِّهت إليه من المُمتحِن كلمة أو عبارةٌ مُحرِجة؛ أخذ العَرق يتصبَّب من جبينه؛ وما ذلك إلا لكَوْن السؤال أو الكلمة المُحرِجة نبَّهت غُدَد العرق إلى العمل فيكثر إفرازها. كذلك الحال بالنسبة للمتَّهَم الذي ذُكِر أمامه اسم شريكه في الجريمة، أو ذُكِرت أمامه أمورٌ لها ارتباط بالواقعة أو بتفاصيلها أو طريقة ارتكابها؛ فإنه بالرغم من تظاهُره بعدم المُبالاة، وتصنُّعه الجهل لِما يُلقى على سمعه، نرى عقرب «الجلفانومتر» ينحرف عن موضعه؛ لأن سماعه هذه الوقائع يُنبِّه من مجموعه العصبي المراكز المُتسلِّطة على غُدَد العرق، حيث توجد في راحة اليدَين بكثرة فيزيد إفرازها؛ وبذلك تزيد مُقاومة التيار الكهربائي فيتحرَّك العقرب.

ومهما يكُن التنبيه ضعيفًا، والزيادة في إفراز الغُدد العرقية طفيفة، فإنها تكفي لأن يظهر أثرها في التيار الكهربائي حال مروره في جسم المتَّهَم وقت الاختبار، كما قد يكون لإفراز الغُدد الصمَّاء بتأثير الانفعال النفسي شأنٌ يُذكَر في تغيير مُقاومة التيار الكهربائي حال مروره بالجسم.

الفائدة العملية من هذه التجارب للمُحقِّق

ومن ذلك يبين كيف أن استخراج مكنون الفكر قد يكون بطُرقٍ هي في حدِّ ذاتها على جانب من البساطة، غير أن مُقاومة المتَّهَم لنتائجها تكون مع ذلك خارجة عن طاقته البشرية، وفوق مُتناول كل ما أُوتي من عزم وإرادة، وأنه لا يقوى على سترها مهما حاول إخفاءها.

فمِثل هذه الوسائل لو هذَّبتها الأيدي العالمة العاملة، وارتقت مع توالي الأزمان جريًا على سنة الرُّقي الطبيعية لجميع الأشياء؛ لا بد أن تصبح يومًا ما كأداةٍ نقرأ بها أفكار غيرنا كما لو كنَّا نقرأ كتابًا. ومع ذلك فإني أرى أن علم النفس العملي في الوقت الحاضر قد يؤدي لنا خدماتٍ جليلةَ القدر عظيمة الفائدة في التحقيقات الجنائية.

ورُب مُعترِض على هذا يقول: كيف يعتمد القاضي في حكمه بإدانة متَّهَم على مجرد استنتاجات تافهة كظواهر الخوف والاضطراب التي تبدو على شخصٍ متَّهَم بجريمة، في حين أنه كما يمكن تعليل هذه بأنها نتيجة ارتكاب الجُرم، يمكن كذلك تعليلها بأنها نتيجة ارتباك البريء ورهبته موقف الاتهام؟ وهو اعتراض طالما كنت أسمعه من الكثيرين، ولكن هذا خطأٌ محض في فهم المُراد باستخدام علم النفس في التحقيق الجنائي.

فليس هذا هو الغرض المقصود من القول باستخدامه عمليًّا في وقتنا الحاضر، فإنه بالرغم من أن علم النفس الحديث مؤسَّس على قواعد علمية صحيحة نتيجة الاختبارات المُتكررة والتجارب الطويلة، وبالرغم من كَوْنه قطع شوطًا بعيدًا في مِضمار الرُّقي بجانب العلوم الطبيعية الأخرى، وبلغ شأوًا عاليًا في معارج التقدم والفلاح؛ فإنه لم يصل بعدُ إلى الدرجة التي يمكننا معها استخدامه كفاية في ذاته لإقامة الدليل على متَّهَم ليس عليه أي برهان آخر، ولكن ذلك لا يمنع من استخدامه في الوقت الحالي كمجرد وسيلة للوصول إلى الأدلة المعدودة أمام المحاكم الآن، والتي تُثبِت الجريمة على المتَّهَم بالبرهان المقبول قانونًا أمام القضاء، ولست أرى أي محل للاعتراض على ذلك متى كان المتَّهَم لديه الضمان الكافي بأن الذي ستقبَله المحاكم في إثبات التهمة عليه إنما هي الأدلة وأوجُه الإثبات العادية التي اصطلح عليها القضاء، وأنه لم يكن الغرض من استخدام علم النفس إلا كواسطة للوصول إلى تلك الإثباتات القانونية، وهناك فرقٌ عظيم بينَ عدِّه كواسطة للوصول إلى غايةٍ معيَّنة وبين جعله هذه الغاية نفسها. وحَسْب القارئ الحادثة التالية التي أذكُرها بهذه المناسبة على سبيل المثال لتكون بمثابة برهان حي ودليل عملي محسوس، وهي

تتلخَّص في أنه في عام سنة ١٩١٤م وقع حادث شروع في قتل بإحدى القُرى التابعة لمركز السنبلاوين، وملخَّصه أن شخصًا من الأهالي أُطلقَ عليه عيارٌ ناري من يد مجهول حال خروجه من القرية قاصدًا غيطه، وكان الوقت قُبَيل العشاء، وقد أُطلقَ العيار من مزرعة على جانب الطريق، فأُصيب المجني عليه في ساعده الأيسر. ولما كنت وكيلًا لنيابة ذلك المركز وقتئذٍ فقد قمت للتحقيق، وفي خلاله حامت الشبهة حول شخص كان خطيبًا لزوجة المجني عليه، ولكن والدها أبى أن يُزوِّجها منه لسوء سلوكه، وزوَّجها من المجني عليه.

أخذت في البحث[١٠] عن هذا المتَّهَم، فوجدته في مكانٍ بعيد عن مكان الحادث بمسيرة ربع ساعة، وهو يروي زراعة كان معيَّنًا خفيرًا عليها، وكانت بيده عصاه، وقد شهد اثنان من أهالي القرية بأنهما رأياه عقب سماعهما العيار يسير على شاطئ التُّرعة متَّجِهًا نحو المزرعة التي وُجِد فيها، وكان مُجدًّا في السير قليلًا وبيده تلك العصا. ولما كان المتَّهَم خفيرًا خاصًّا لزراعة بعض الأعيان، ومرخَّصًا له بحمل السلاح؛ فقد سُئل بطبيعة الحال عن سلاحه، فادَّعى فقْدَه منذ عشرين. وما غيَّر أن الشهود شهدوا بأنهم رأوه يحمله قبل الحادث بيومٍ واحد، ولكن نتيجة التحقيق لم تتقدَّم بعد ذلك خطوةً واحدة، في حين أن ما وصلت إليه من الأدلة لم يكن سوى شبهات لا تكفي لإدانة المتَّهَم قانونًا، غير أنها كوَّنت عندي شِبه عقيدة بأنه هو الفاعل؛ ولذلك حصرتُ اهتمامي في البحث عن السلاح؛ لأنه كان الطريق الوحيد المفتوح أمامي للبحث. وبعد قليل من التأمُّل لاح لي أن السلاح لم يُخبَّأ في القرية، وأن البحث عنه فيها عقيم، ولا بد أنه يكون خارجها؛ لأن المتَّهَم لم يكن لديه من الوقت ما يكفي العودة إليها بعد الحادث كما هو ظاهر من الوقائع المُتقدمة. وبطبيعة الحال أرجأت التفتيش إلى الصباح؛ لأن البحث عن السلاح في وسط المزارع والغيطان ليلًا ضربٌ من العبث، فوضعت الحرس الكافي حول تلك المزارع لكيلا يقرَبها أحد.

ولمَّا طلع النهار خرجت لإجراء البحث والتفتيش، وبصحبتي المتَّهَم كعادتي عند كل تفتيش، لعلِّي أستفيد ممَّا قد يبدو عليه من التأثيرات النفسية حال إجراء البحث؛ إذ كان ذلك يُساعدني أحيانًا في الوصول إلى غايتي، ولكني بمجرد أن خرجت من القرية وقفت برهةً حائرًا؛ لأني وجدت أمامي ميدانًا للتفتيش متَّسِع الأرجاء مُترامي الأطراف، وأنَّى لي

[١٠] مقال الدكتور المستشار محمد فتحي بك في مجلة «القانون والاقتصاد».

أن أهتدي إلى المكان الذي خبَّأ المتَّهَم سلاحه فيه، وخاصةً أن التفتيش في الخلاء يتطلَّب عناءً شديدًا ومجهودًا عظيمًا قد يستغرق كل نهاري ولا أصل إلى نتيجةٍ ما؟ وبينما أنا مُسترسِل في أفكاري وحيرتي إذ تذكَّرت في الحال بعض تجارب العلَّامة منستربرج بشأن ضربات القلب وتأثير الانفعالات النفسانية فيها، فوضعت يدي في يد المتَّهَم، وبينما كنت مُمسِكًا بمِعصمه وضعت إبهامي[١١] خلسة على الشريان الكعبري (وهو الذي يجسُّ منه الأطباء النبض عادة). وبعد أن تملَّكت موضع النبض منه جيِّدًا، وأصبحت دقَّات قلبه تحت إشرافي ومُراقبتي؛ ألقيت عليه أسئلةً عديدةً مُتتابعة بشأن محل إخفاء السلاح، وعددت الأمكنة التي يحتمل أن يكون أخفاه فيها، فذكَرت له بعض المزارع، ثم ساقيته الخاصة، ثم الترعة فالقناة فالمَصرف وهكذا؛ فلاحظت أن النبض عند ذِكر المَصرف كان يشتد ويُسرع كثيرًا، وإذا ما حوَّلت الكلام عنه إلى أماكن أخرى كان النبض يهدأ ويكاد يعود إلى حالته الطبيعية، وهكذا كلما ذكَرت له المَصرف يعود النبض فيَقْوى ويُسرع، وكان أثر الانفعال محسوسًا لدرجةٍ أثارت دهشتي، وكانت دقَّات قلبه قويةً واضحة، حتى خُيِّل إليَّ أني أسمعها من صدره، فترجَّح لديَّ أن المتَّهَم ألقى سلاحه في ذلك المَصرف، ولكنه مصرفٌ عميق متَّسِع العرض مُمتد الطول، والبحث فيه شاقٌّ، فضلًا عن أنه يستلزم مهارة في الغوص، ففي أي مكان منه ألقى المتَّهَم سلاحه؟ إن هذه لمُعضِلةٌ ثانية، ولكن بعد أن قدحتُ زناد الفكر قليلًا أمكنني تعيين ذلك المكان وتحديده بوجه التقريب، والفضل في هذا راجع إلى العصا التي كانت بيد المتَّهَم؛ فهي التي أشارت لي عليه ودلَّتني إلى موضعه. وتفسير ذلك أن للمتَّهَم ساقيةً خاصة على مَقربة من المَصرف، وقد اعتاد أن يترك عصاه فيها حينما كان يحمل بندقيته في أثناء الحراسة، كما عِلمت ذلك اتفاقًا من التحقيق؛ فالعصا كانت إذن عند ساقيته وقت ارتكابه الجريمة، ولم تكن معه بطبيعة الحال؛ لأنه كان يحمل سلاحه، وبعد أن أطلق العيار فرَّ هاربًا نحو الساقية، وتناول عصاه منها كما هو ظاهر من وجودها معه عند ضبطه. ولمَّا كانت الساقية مِلكه الخاص، فهو لا يُخاطر بإلقاء سلاحه فيها، وإنما أول شيء يتبادر إلى ذهنه هو المَصرف؛ لقُرْبه وصعوبة انتشال البندقية منه نظرًا لعمقه. ولما كان الجاني شديد الرغبة عادةً في التخلص من سلاحه بأسرع ما يمكن، فإن أقرب مكان من المصرف إليه هو الواقع تجاه الساقية، هو المكان

[١١] ولو أن الجس عادة بالسبابة أو الوسطى؛ حتى لا أُوقظ الشبهة من نفسه، وألفت نظره إلى قصدي.

الذي يتبادر إلى الذهن أنه ألقى سلاحه فيه؛ حتى يصبح حُرًّا طليقًا من الدليل الخطير الذي يحمله بين يدَيه. وعلى أثر مرور هذه الخواطر مِلتُ إلى مأمور المركز، وعيَّنت له المكان الذي يجب البحث فيه أولًا، ولكن المتَّهَم عندما رأى الرجال المكلَّفين بهذا البحث متَّجِهين نحو ذلك المكان بدَت على وجهه دلائل الارتباك والحيرة، وشحب لونه وجفَّ لعابه. ولكي يُداري اضطرابه وقتئذٍ، ويُظهِر عدم اكتراثه بما يجري حوله؛ أخذ يُولِّي وجهه شطر موضع آخر، ويُحوِّله عن مكان البحث من المَصرف، ولكن بالرغم من كَوْنه أدار وجهه فإن كُرتَي عينَيه كانتا لا تزالان في اتجاه ذلك المكان نفسه، فازداد اعتقادي بوجود السلاح فيه، وقوِي أملي في الحصول عليه. وبالفعل لم تمضِ خمس دقائق في البحث حتى انتُشلت البندقية من قاع المَصرف.

إن هذه المُشاهدة البسيطة أثارت اهتمامي بعلم النفس التجريبي، وزادتني إيمانًا بجليل قدره ويقينًا بجزيل نفعه، حيث رأيتُني أجتني ثمار تجربة من أسهل التجارب بغير الاستعانة بأية آلة أو جهاز خاص، فلم أشَأ أن أتركها تمرُّ بدون أن يكون لها أثرٌ رسمي ثابت، فسجَّلتها في مَحضري الذي أخذتْ به محكمة الجنايات فيما بعد، واعتمدت عليه في إدانة المتَّهَم. وكنت منذ ذلك الحين أجد لذةً مُضاعفة وشوقًا عظيمًا في مطالعة ما كتبه علماء النفس في هذا الصدد، وتطبيق ما أقف عليه من المعلومات في الحياة العملية.

وممَّا تقدَّم نرى كيف كان البحث عن سلاح المتَّهَم في ميدان مُخيِّلته أسهل منالًا وأقل عناءً من البحث عنه في ميدان الطبيعة الفسيح المُتعدد الأمكنة المُتشعِّب الأرجاء.

فالتجارب النفسية قد تؤدِّي على تفاهتها وسهولة تناولها أجلَّ الخِدم للمُحقِّق وأعظمها فائدة إذا عرف كيف يستخدمها وينتفع بها. ومن ذا الذي يُنكِر على علم النفس فضله على القانون وشدة حاجة رجال القضاء إليه؟ فهو للمُحقِّق كنبراسٍ يُضيء له ظُلمة الحوادث، فيستعين به في أشدها غموضًا على استجلاء غامضها، كما أنه يكون له منه أداةً ماضية يستخدمها في هَتْك ما أُسدلَ على بعض الجرائم من الأستار والحُجب الكثيفة. وبه يستعين القاضي على فهم عقلية كل متَّهَم أو شاهد، وفهم كثير من الأمور والمُعضِلات التي يُشكِل على الكثيرين فهمها أو تعليلها تعليلًا صحيحًا، فيكون له خير ضمان من الوقوع في الخطأ أو الزلل، وبه يستطيع أن يُقدر العقاب المُناسب لكل مُجرِم تقديرًا صحيحًا، ويختار له أكثر أنواع العقاب مُلاءمةً لعقليته، كما أن القاضي الفطِن قد يستطيع به أن ينفُذ إلى خاطر الشخص؛ فإن كان شاهدًا يتبيَّن مواضع الصدق والكذب من شهادته، أو

كان متَّهَمًا يقرأ ما سطَّرته يد الحوادث على صحيفة ضميره، ويعلَم منها إن كان مُجرِمًا حقًّا فيدينه، ويتبيَّن مَبلغ تأصُّل الإجرام من نفسه، أو بريئًا فيقضي ببراءته.

وهو للمُحامي أكبر عَون على فهم حقيقة موقف مُوكِّله ودراسة عقليته، بل عقلية القضاة الذين يتولَّون مُحاكمته، فيسهُل عليه التفاهم معهم ومُخاطبتهم بالأساليب والعبارات التي يسهل إقناعهم بها، والتي يستطيع بها أن يبثَّ إلى أفهامهم كل ما يجول في خاطره من آراء مع ما يُعزِّزها من الأدلة والبراهين، وأن يبسط لهم بأسلوبٍ شيقٍ سهل الفهم عليهم كلَّ ما يُحيط بمُوكِّله من الشئون والظروف والأساليب المُوجِبة لتخفيف العقاب عنه أو إعفائه منه أصالة.

فعِلم النفس في الواقع علمٌ جليل القدر، يحتاج إليه القاضي والمُحقِّق والمُحامي والطبيب والمُربِّي والمُعلِّم والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والموسيقي والمُصوِّر والشاعر والمُمثِّل والروائي والمُؤرِّخ والحفَّار والنقَّاش حتى التاجر والصانع، ويمكن إجمال مزاياه في أوجز عبارة بأنه «لغة العقول»؛ إذ به يمكنها أن تتخاطب وتتفاهم، وبه يمكننا أن ندرسها ونقرأ ما فيها، ونقف منها على دخائلها وما تُكنُّه من أسرار، ونُشخِّص أدواءها وما بها من عِلل أو شذوذ، ونضع لها العلاج الذي يُلائمها ويُساعد على شفائها وتقويمها.

علم السلوك الإنساني الحديث

يقول البروفسور كارل مانهايم: «إن الشيء الطريف في علم النفس في عصرنا هذا هو أن علم الاجتماع وعلم العمران البشري وعلم النفس، وهي العلوم التي كان كلٌّ منها في الماضي يعمل في ناحيةٍ مختلفة، قد نجحت في صبِّ نتائجها في بوتقةٍ واحدة نشأ منها علمٌ واحدٌ تام يُسمَّى «العلم الحديث لسلوك الإنسان». والاكتشاف الرئيسي لهذا العلم الحديث هو أنه لا يمكن أخذ أي فرع من الشعور أو رد الفعل أو الحركة أو التفكير كقضيةٍ مسلَّم بها، أو كأمرٍ مُبرَم لا يتغير؛ إذ من المُحتمل جدًّا أن يقوم الشخص بأفعال أو يُفكِّر بطريقٍ مُغاير لما كان يُفكر فيه إذا رُوِّض على ثقافةٍ أخرى. وبالطريقة نفسها يقوم التعرُّض مُبكرًا إلى تجارب مختلفة ومؤثرات ثقافية متغايرة بدَورٍ كبير في تكوين شخصيتنا.»

وقد قال ذات مرة الفيلسوف المعروف والاقتصادي المشهور آدم سمث: «إن الاختلاف بين الشخصيات غير المُتجانسة وبين الفيلسوف والحمَّال العادي مثلًا، ليس ناتجًا من الطبيعة بقدر ما هو ناتج من العادة أو الثقافة.» وقد ثبت هذا القول منذ ذلك الحين في غرفة استشارة علماء النفس عن طريق الدراسات الوصفية بالمُقارنة بين الأجناس البشرية من القبائل المختلفة، وكذلك بما يُلاحظه علماء الاجتماع في السلوك العام لطبقاتٍ مختلفة من الشعب تنتمي كلها إلى بيئةٍ واحدة.

والباحث في السلوك الإنساني لا يأخذ أية قضية على أنها أمرٌ مسلَّم به لا يمكن تغييره؛ لأنه قد تعلَّم ألا ينخدع بالمظهر الخارجي وبانفعالات النفس وتعبيراتها، بل يخترق بثاقب فكره هذه القشورَ الظاهرية إلى جوهر الحقيقة، كما أنه تعلَّم أن يدرس وسائل التكييف الاجتماعي التي تُكون العادات.

وهذه العادات — رغم أن الإنسان لا يكتسبها في الحقيقة إلا بالترويض المُمض — قد يظنُّها الفرد كامنة في نفسه من الأصل، كما عرف العالم كيف أن الغرائز والميل إلى تفضيل شيء على آخر، كثيرًا ما تكون نتيجة للبيئة. ونستطيع أن نُبرهِن على صحة هذا القول إذا ما نظرنا إلى اختلاف عادات الطعام باختلاف الشعوب، أو بدراسة الأذواق المختلفة أو الطُّرق المُتباينة للاستمتاع بأوقات الفراغ. وعرف العالم أيضًا أن الحالة العاطفية التي تُسيطر على بلاد بأكملها إنما تكتسبها البلاد بالتكييف والتمرين على السواء؛ فطبيعة الإنجليزي مثلًا في سيطرته على عواطفه لا تقلُّ في كونها نتيجة التقليد الاجتماعي عن ثورة العواطف عند الإيطالي أو الإسباني.

ووجد العالم عن طريق دراسة الثقافات — دراسة مُفاضلة وتمييز — أن الاحترام الذي تفرضه الشخصيات العديدة المُتباينة يُكيِّفه الاجتماع أيضًا، سواء امتدح الإنسان شخصًا يتبرَّع بمُساعدته للناس، أو قدَّر القديس المُتواضع على الدوام، أو أُعجب بالعصامي الخشِن. وهو يعلم أيضًا أن نظريات الناس وطُرُق تفكيرهم وقدرتهم على التمييز والتعلُّم من الخبرة والموانع التي تمنعهم عن مواجهة الحقائق، هي أغلب ما تكون ناتجة عن الثقافة الاجتماعية؛ ومن ثَم يمكن تغييرها إذا ما ظهرت في أنواع الثقافة عوامل جديدة لتكييفها أو نظريات لتوجيهها. وقد صدق جون ستيوارت مِل، فيلسوف القرن الماضي، حين قال: «هناك حقيقة قد ثبتت صحتها، وهي أن كل الفرق الذي قد كان والذي يمكن أن يكون بين طبقة من الناس وأخرى، يعود جميعه إلى الثقافة والتعليم.» ومع أننا لا نعرف إلى الآن ما فيه الكفاية عن طبيعة الغرائز الأساسية، إلا أننا نُدرِك مرونة تشكيلها في الأشخاص، ولا نعرف في دقةٍ أنواع العوامل الاجتماعية التي تُوجِّه سلوك الإنسان وجهةً خاصة، ولكننا نعرف حالاتٍ مختلفةً تكفي لوضع نظريات لاكتشاف ما يأتي فيما بعد، ولا نعرف كيف وُجِدت أنواع تلك الشخصيات المُسيطرة القوية في مختلف القبائل والأمم، ولكننا نعرف عنهم ما يكفي لمُساعدتنا على توسيع نطاق طُرُق البحث لملاحظة طبيعة الإنسان والشخصيات التي يمكن أن تنتمي إليها. ومع أنه ترك للمستقبل ضبط هذه المُلاحظات، فإننا نعرف ما يكفي ما يمكننا من الوصول إلى نتائج تقريبية صحيحة نسبيًّا للأغراض العملية.

أما عن احتمال استخدام الأيدي العاملة في طُرُق الخير أو الشر، فقد أظهرت ذلك الدولُ الإجماعية في وضوح. ومع أن زعماء تلك الدول لم يتوصَّلوا إلى تحقيق أغراضهم عن طريق دعايتهم وتنسيق مجهوداتهم المشتركة في الثقافة وتكوين الشعب، فإنهم أثبتوا

على الأقل أن تغيير أفكار الناس وطُرُق تصرُّفهم وتكوين شخصياتهم أمرٌ ممكن الحدوث. ومن الخطأ أن نعتقد أن حشد الأيدي العاملة وتوجيه الجهود الإنسانية قد ظلَّ الخاصية المُميزة لسياسة الإجماعيين؛ إذ إن الدول الديمقراطية أيضًا تستخدم أساليب الدعاية لتؤسِّس نظامًا تعاونيًّا للشباب، وهي تُحاول أيضًا أن تنهض بسياسةٍ تعليمية يكون هدفها تنشئة أبناء الشعب الذين يصلحون للمجتمعات الديمقراطية؛ إذن فلا يستطيع أحد أن يشكَّ في أنه في الوُسع إعادة تكييف الأفكار والعادات والميول عند الشعب، وسيسع العلمَ الحديث في الوقت المناسب تفسيرُ طريقة الحصول على هذا التكييف.

وحين يصل العلم الحديث إلى تفسير أسرار تكييف السلوك وتغييره، يجب علينا أن نُقرِّر ما نريد أن نفعل بهذه القوة الجديدة العظيمة التي لا بد أن تصبح مِلك أيدينا إن عاجلًا أو آجلًا. أما إن استمرَّ العالم والمثقَّفون في عدم الاكتراث بموضوع علم السلوك الإنساني الحديث، فسيتولَّى أمرَه مُروِّجو الاضطرابات والقلاقل وأصحاب الدعايات. وقد أظهروا ما فيه الكفاية على أنهم يعرفون جيدًا كيف يتعمَّدون حشد الأيدي العاملة بقصد فصم عُرى الوفاء والتقاليد والمُثل العليا، ويعرفون كيف يُنظِّمون العمل بحيث يعود عليهم بالمنفعة.

العقدة النفسية

ليس من شك في ما لـ «الشعور» و«اللاشعور»، أو قل «العقل الواعي» و«العقل الباطن»، من أهمية عند علماء النفس، كل منطقة من هاتَين المنطقتين في عملية التفكير الإنساني؛ ذلك أن «الشعور» ليس إلا المنطقة السطحية في عملية التفكير. أما معظم دوافع التفكير البشري، وأهم الأسس التي تتحكَّم في سلوك المرء وتصرفاته، فمردُّه إلى «اللاشعور»؛ تلك الخِزانة الهائلة التي يحتفظ الإنسان فيها على وعي منه بكل غرائزه وذكرياته وتجاريبه؛ ممَّا دعا «فرويد» — واضع علم النفس الحديث — إلى القول بأن «العقل الباطن» هو أصل كل نزوع نفسي؛ أي إنه هو الذي يُوجِّه الإنسان في تصرفاته، وإن بواعثه هي التي تتحكَّم في سلوكه.

ذلك أن شواغل النفس التي لا يقوى الإنسان على مُواجهتها جِهارًا يُنحِّيها من طريقه جانبًا، فيتشاغل عنها ويتناساها هربًا منها، ويتخيَّل أنه بذلك قد تخلَّص من هذه الشواغل؛ غير أنها تظل قابعةً ساكنة في قرارة «عقله الباطن»، تتحيَّن الفرص للإعراب عن نفسها؛ وذلك بالهتاف هتافًا خفيًّا مُتواصلًا في أذن صاحبها بأن يأتي من الأعمال ما فيه راحتها وإشباعها، وأن يكفَّ عن الأعمال التي لا تُوائمها ولا تجد راحة فيها. وعلى ضوء هذه الحقيقة العلمية، أمكننا تفسير كثير من تصرفاتنا التي تصدُر في الظاهر على غير وعي منَّا أو بغير إرادتنا؛ فإن هذه التصرفات ليست في الواقع إلا صدًى واضحًا لتلك الأصوات الحبيسة التي نكتمها في أعماق نفوسنا، نُحاول دفنها هناك والتخلص من سماع نباحها المُزعِج!

انظر مثلًا إلى ذلك الرجل المهذَّب الذي جلس إلى مائدة الطعام في وليمةٍ جامعة، فجلس تجاهه زميلٌ له كان هو لا يُطيق في قرارة نفسه أن يراه أو يُجالسه؛ لأنه يكرهه بسببِ إهانةٍ بالغة لحقته منه، ولكن للمجتمع آدابه وتقاليده، وللحياة أوضاعها

وضروراتها؛ فهو لذلك يرى في زميله هذا صورة العدو الذي قال عنه الشاعر إنه «ما من صداقته بد»، فيُجالسه ويُطاعمه ويُحادثه ويُسائله ويستجيب له، وهو في كل ذلك يتتبع نداء «العقل الواعي» الذي يدعوه إلى نسيان إساءات زميله إليه والتغاضي عنها، وصرف النظر عن الثأر لنفسه منه؛ إما لأنه لا يقوى على ذلك، أو لأنه يخشى عاقبة مثل هذا التصرف على نفسه، كل ذلك نتيجة تدبير «العقل الواعي» وتفكيره. أما «العقل الباطن» فإنه لا يفهم هذا المنطق، ولا يعرف عن العداوة إلا أنها شعورٌ ينبغي الإفصاح عنه فورًا بالعمل على تحطيم العدو، وإزالته جملة واحدة من الطريق. ويُلاحظ الإنسان أن هذا هو أسلوب التفكير البدائي الهمجي الذي لم تصقله الحياة الاجتماعية الراقية باصطناع المُلاينة والمُجاملة والمُداراة؛ حتى تستقيم بين الناس طرائق المعيشة، وحتى يدوم بينهم ذلك التعاون اللازم للحياة المستقرة، ولكن انظر بعد ذلك إلى هذا الزميل وهو يطلب إلى صاحبنا في أدب وابتسام أن يتفضَّل بمُناولته ملعقة مثلًا ممَّا أمامه، واعجبْ من أن صاحبنا يُسرع في أدبٍ جم وابتسامةٍ عريضة إلى أقرب سكين، فيتناولها ويُقدِّمها على غير وعي منه إلى زميله، وهو لا يحسُّ بأن «عقله الباطن» قد خانه، وكشف عن مكنونات نفسه حين دفعه دفعًا إلى تقديم هذه السكين بدلًا من الملعقة المطلوبة. والتفسير واضحٌ ظاهر؛ فإنه مهما يكن من يقظة العقل الواعي، ومهما تكن قوة تماسُكه، ومهما يكن مبلغ تأثُّره بآداب المجتمع وأوضاعه؛ فإن من ورائه تلك القوة الطاغية الأخرى؛ قوة «اللاشعور» أو العقل الباطن؛ تلك القوة الجبَّارة المُتربصة الحبيسة التي لا تفتأ تدور في مجاهل النفس حول نفسها، تتحسَّس مَنفذًا تنفُذ منه إلى ظاهر الحياة، حتى إذا سنحت سانحة لم تتردَّد في إثبات وجودها والتنفيس عن مكنوناتها. وصاحبنا الذي ننظر إليه في هذا المثال يُسرُّ العداوة لزميله الذي جمعت بينه وبينه هذه المأدبة، ويودُّ فيما بينه وبين نفسه لو استطاع أن يتخلَّص منه ويقضي عليه، ولكن هذه الخاطرة ليست ممَّا يُسيغه المجتمع المُتحضر، ولا هي من أساليب الحياة الراقية، تمقُتها التقاليد ويُعاقِب عليها القانون، ويخجل منها المُواطن الصالح؛ ولكل ذلك إذ ينفر من هذا الخاطر، ويُشيح بوجهه عنه، ويذوده عن عقله الواعي بيدَيه، ولكن نظرًا لأن الإنسان لا يتخلَّص من رغباته وميوله وغرائزه بمثل هذه السهولة، فإن هذا الخاطر يرسب في قرارة «اللاشعور»، ويقع في ذلك الجُب الذي يعجُّ بكل مخوف مرهوب من نوازع النفس وميولها، أو بكل ممقوت مرذول من خوالجها، فإذا حان الحين وأُتيحت الفرصة برَز من مَكمنه، ووثب من كهفه المُظلم على غير وعي من صاحبه، فوضع السكين في يده بدلًا من الملعقة، كأنما يريد أن يقول له: «إن هذه

السكين هي ما يجب أن تُقدِّمه لهذا الزميل المكروه المرذول، فأجهِزْ بها عليه بدلًا من أن تضع نفسك في خدمته فتُقدِّم له ما يريد.»

ذلك أثر من آثار «اللاشعور» في عمل «الشعور». وقد رأينا في هذا المثال أن التعبير الذي اصطفيناه «اللاشعور» كان تعبيرًا ماديًّا واضحًا اعتاد الناس أن يُسمُّوه — تأدُّبًا منهم أو جهلًا بحقيقته — «سهوًا» أو «خطأً غير مقصود»، في حين أنه في الواقع هو عين المقصود وجوهره. على أن النكبة الحقيقية تأتي عندما تنزوي إحدى الرغبات المكظومة في غياهب النفس تحت ضغط شديد من وعي صاحبها؛ فإن التنفيس عن مثل تلك الرغبات يُلطِّف حدَّتها ويذهب بقسوتها. أما كَبْتها والتشدُّد في إخفائها، فإنه يُكسِبها عنفًا وضراوة لا قِبل للإنسان باحتمالها، فتبقى تلك الرغبات الحبيسة في باطن النفس؛ لتُرسِل جمعها من حين إلى حين عن طريق سلوك الإنسان وتصرفاته الظاهرة، أو لتتَّخذ للتعبير عن وجودها صيغةً رمزية قد تتشكَّل في شكل علة من العِلل، تستطيع تلك الرغبات بواسطتها أن تُحقِّق شيئًا من أغراضها. وعندما تتعقَّد حالة الإنسان على هذه الصورة يُقال عنه إنه قد انعقدت في نفسه «عقدة»، وإنه أصبح لا بد لحل هذه «العقدة» من الوصول إلى منطقة «اللاشعور»، والتنقيب في مكنوناتها وبين محتوياتها عن تلك الرغبة الحبيسة التي تطوَّرت إلى «عقدة»، ثم الخروج بها إلى منطقة الشعور لكشفها أمام «العقل الواعي»؛ كيما ينفضح سرُّها ويبطل سِحرها. وتُسمَّى هذه العملية في علم النفس الحديث بعملية «التحليل النفسي».

زعموا أن أديبًا كبيرًا من كبار أدبائنا وشعرائنا كان إذا حلَّ عليه المساء وغاب نور الشمس، أدركه انقباضٌ شديد تضيق له نفسه ولا تهدأ حتى يقوم فيسير في الطرقات هائمًا على وجهه ساعة أو بعض ساعة، ثم يعود إليه هدوءه رويدًا رويدًا حتى تستقرَّ حاله ويملك زمام نفسه من جديد، فيُجالس أصحابه ويُحادثهم ويسمر معهم، ويُداعب ويتفكَّه كما لو لم يكن به شيء منذ ساعة من الزمان. وكان لا يعرف هو لذلك تعليلًا، ولا يستطيع أن يفهم له سببًا معقولًا. وبقي على حاله هذه حتى أدركته الشيخوخة، ثم حدث أن جلس يومًا فتذاكَر مع بعض إخوان الطفولة أنه كان وهو صبيٌّ صغير قد خرج معهم في عصر أحد الأيام يلعب ويرتع، وأنهم ذهبوا به بعيدًا عن منزله، ثم لما فرغوا من لهوهم انصرف كل واحد منهم إلى أهله، وتركوه وحده ليعود كذلك إلى منزله، ولكنه لم يستطع أن يعود وحده لعدم معرفته الطريق، ولبُعدِ المكان الذي كانوا فيه عن المنزل الذي كان يسكنه، وأنه أدركه الغروب وهو في حيرته تلك، وشمل المدينةَ الظلامُ وهو لا يزال يضرب

في طُرقاتها على غير هدًى، فجزعت نفسه وداخَله الوهم، وأحسَّ بأن شياطين الإنسان والجن تريد أن تتخطَّفه، واعتقد أنه ضائع لا محالة، وأنه لا سبيل له إلى لقاء أهله في ذلك اليوم أو إلى الأبد. واقترنت هذه المخاوف كلها في نفسه بساعة الغروب وغياب الشمس. وعلى الرغم من أن الله أدركه برحمته بعد ذلك بقليل، فألقى في طريقه من يعرفه ويعود به سالمًا إلى داره، إلا أنه ظل بقية عمره لا تنزل به هذه الساعة من النهار حتى يُصيبه مسٌّ من ذلك الضيق الذي ملأ نفسه في ذلك المساء الأغبر الملعون!

وكان تفسير هذه الظاهرة عند من عرفوها أن عاطفتَين اعتركتا في نفس هذا الأديب: العاطفة الأولى هي عاطفة الخوف الذي اعتراه في ذلك المساء بسبب بقائه وحيدًا في الطريق، وعدم قدرته على العودة وحده إلى داره؛ والعاطفة الثانية هي إحساسه بأن هذا الخوف لم يكن له ما يُبرِّره، وأن المجتمع ينظر إلى صاحبه نظرة زراية واستخفاف. وقد رأى صاحبنا بعقله الواعي أن يتجاهل ذلك الخوف ويتناساه؛ حتى لا يُعرِّض نفسه لزراية الناس واستخفافهم. وانقطعت الصلة بعد ذلك بين عقله الواعي وبين ذلك الحادث، وحسب أنه تخلَّص إلى الأبد من ذِكراه، في حين أن «اللاشعور»، الذي لا تفلت من قبضته صغيرة ولا كبيرة ممَّا يلقاه الإنسان في هذه الحياة، ظل مُتشبِّثًا بتلك الذكرى يُطلِقها عليه في حينها عندما يأتي المساء كل يوم، كما تنطق الأشعة السينية الخفية عن قطعة من الراديوم!

وفي مرةٍ أخرى أُصيبَ موظفٌ صغيرٌ حديث السن بشلل في ذراعه أعيا الأطباء أن يقفوا له على سبب، أو أن يُوفَّقوا إلى طريقة لعلاجه، وظل هذا الموقف التعِس على حاله تلك إلى أن تهيَّأت له الأسباب للاتصال بمن كان على علمٍ صحيح بأصول «التحليل النفسي»، فعرف من مناقشته والتحدث معه أنه في اليوم الذي نزلت به تلك الكارثة كان قد اختلف مع رئيسه في العمل خلافًا شديدًا، وأن هذا الرئيس كان قد استغلَّ مكانته في ذلك الحادث، فأطلق لسانه بالكلام القارص الجارح الذي لم يملك الموظف أن يردَّ عليه بمثله، وأنه في سَورة غضبه حدَّثته نفسه بأن يرفع يده ليلطم بها وجه رئيسه، ولكن منعه من ذلك ما كان يخشاه على نفسه وعلى مستقبله من أعقاب تلك اللطمة، فعاد إلى منزله مغمومًا كئيبًا، ونام ليلته حزينًا تعسًا، ثم استيقظ في اليوم التالي وذراعه مفلوجة بهذا الشلل الذي أصابه. وكان التفسير النفسي لهذا الحادث أنه حين وقع الصراع في نفس هذا الموظف بين الرغبة في الانتقام لكرامته من رئيسه الذي ألحق به تلك الإهانات البالغة، وبين إحساسه بالخطر الشديد الذي يتهدَّد مستقبله إذا هو ردَّ تلك الإهانات بمثلها؛ لم

يرَ بدًّا من تغليب سلامة مستقبله على رغبته في الانتقام، ولكن هذا التقدير إن كان يُريح «العقل الواعي»، فهو لا يتَّفق مع مذهب «العقل الباطن» الذي يأبى إلا أن يأخذ الأمور بنواصيها، وإلا أن يأتيها من وجهها لا يُداورها ولا يُحاورها. فلمَّا آثر صاحبه السلامة على الانتقام، انزوت عاطفة الانتقام في حناياه، وتكوَّنت منها تلك «العقدة» التي رمز لها «اللاشعور» بذلك الشلل؛ ليدلَّ به على أن صاحبه أراد أمرًا لم يقوَ على تنفيذه. ومن عجائب «التحليل النفسي» أن ذلك الموظف لم يكَد يقف على هذا التفسير حتى انفرجت أزمته، وأخذت حاله تتحسَّن إلى أن ذهبت عنه نهائيًّا آثار ذلك الفالج المُبكر!

والخلاصة أن جوارح الإنسان الظاهرة لا تعدل شيئًا إذا قِيست بقُواه الخفية، وأن من ضمن تلك القُوى الخفية «العقل الباطن أو اللاشعور»، وهو ذلك المُستودَع الهائل الذي تتجمَّع فيه الرغبات المكظومة، والغرائز الحيوانية الضارَّة التي لا يرتضيها المجتمع، والمخاوف الكثيرة التي يُحاول الإنسان الهروب منها فتَبِين، وفي صور السهو والخطأ غير المقصود والأحلام، وإذا اشتهرت أصبحت عقدة داخل «اللاشعور». وممَّا يذكُره «فرويد» أن فتاةً ألمانيةً هستيريةً مُربيةً خائفة، اعترفت له بعد جلسات عديدة من مُحادثتهما في ماضيها، أنها كانت لها مُربيةٌ قاسية تناولت منها ماءً كانت الفتاة رأت الكلب يشرب منه، فتقزَّزت ومرضت بأعصابها، ولكنها شُفِيت بظهور هذا السبب.

ملخَّص العقدة النفسية

وعلى هذا تُلخَّص العقدة النفسية عند جلَّة علماء النفس، أن هناك عقدةً نفسية متى كان هناك مُشكِل داخل النفس يُحيِّرها ويُربكها ويُقلقها، يرجع سببه إلى حادثٍ نزل بالإنسان أو واجهه في طفولته أو شبابه أو كهولته أو شيخوخته، فترك أثرًا مؤلمًا أو مُخيفًا تبدو ذِكراه ما بين الفينة والفينة، أو حين يوجد ما يدعو إلى التذكُّر، كطُروء حادث مُماثل للحادث الأول المؤلم.

ويبدو أن في البيئات الجاهلة والبدائية والقديمة ذات التقاليد والسواق، وفي الأمم التي يفشو الحكام أو الوالدان والرؤساء؛ تتجلَّى العُقَد النفسانية.

أما الأذكياء وأما المشغولون والطماحون، فقلَّما تجد العُقَد سبيلًا إلى نفوسهم، وقلَّما يرجع الزعماء والعظماء والقادة إلى الخلف، بل هم إلى الأمام؛ ومن أجل هذا ليس لديهم الوقت لاستذكار الحوادث الأليمة واستظهار الآلام القديمة.

يقول ستيفان زفايج في كتابه «بلزاك»: «إن سبب شهرة هذا الكاتب الفرنسي الكبير الذي عُقِد له لواء القصة في القرن التاسع عشر، يرجع إلى «عقدةٍ نفسية» أثَّرت في شخصيته وتفكيره، ودفعته إلى كتابة تلك القصص التي خلَّدها التاريخ.»

فقد نشأت عقدته النفسية من المُغالاة في حب العظمة والتقرُّب من العظماء ومُجالستهم، وتملَّكت هذه العقدة «بلزاك»، وجعلته ينكبُّ على الكتابة، ويعمل ١٢ ساعة في اليوم الواحد، فأخرج قصصه التي لقيت نجاحًا جعل الناشرين يتسابقون في الحصول على الاستئثار بإذاعتها، فكانوا يدفعون له ثمن القصة قبل أن يكتبها.

وقد قال إيليا أرنبورج — الكاتب السوفياتي المعروف — على أثر زيارته لأمريكا في الشتاء منذ أعوام، قال بعد أن انتقد النظام الرأسمالي وعدَّد عيوبه: «إن ميزة الأمريكي العادي هي أنه لا يشكو من أية «عقدة نفسية»؛ فهو يشعر بأنه ينتمي إلى أمةٍ فتيَّة تحرَّرت من العادات والتقاليد، بل لم يكن لها عادات أو تقاليد تردُّها دائمًا إلى الوراء، وتعُوق تقدُّمها في هذا العصر الحديث.»

أكذوبة العقل الباطن

إجماع علماء النفس قد انعقد أو كاد ينعقد على أن للإنسان عقلَين مُتباينين؛ أحدهما هذا العقل الظاهر البارز الذي به نُصرِّف شئوننا اليومية، ونسأل ونجيب ونسعى إلى غاياتنا ونتحدَّث عنها؛ أما ثانيهما فهو عقلٌ خفي مُستتر «باطن»، ليس مرئيًّا ولا بارزًا ولا ملحوظًا. وهذا «العقل الباطن» هو مخزن خواطرنا وأفكارنا وتقاليدنا ومُستودَع آلامنا وأعمالنا السابقة، وهو نائم لا يستيقظ إلا في الليل كالأحلام، أو في فترات الكسل والدعة. فإذا أصابنا حادثٌ ما في طفولتنا مثلًا، حين نكون عاجزين عن الإدراك أو تصوير الإدراك وتصوُّره؛ كان «العقل الباطن» بمثابة المرآة تعكس في أعماق مادتها هذا الحادث وتحفظه، وتُضيف إليه الحوادث التالية.

وعندنا أن نظرية «العقل الباطن» أكذوبة؛ ذلك أن لنا نفسًا واحدة وعقلًا واحدًا وجسمًا واحدًا وشخصيةً واحدة، ولكن الذي يحدث هو تلك الطوارئ والألوان التي تجعل نفوسنا وعقولنا وأجسامنا وشخصياتنا كأنها مُتغيرة مُتجددة. فإذا رأيت منزلًا ذا لون أصفر، ثم بعد عام رأيته ذا لون أخضر؛ فإن البناء هو هو، والتغيير قد حدث في الطلاء، فلن يكون — والأمر كما أوضحنا — المنزل منزلَين أحدهما يُغاير الآخر.

الواقع أن للإنسان حالتَين؛ حالة العمل اليومي في طعامه وشرابه وكتابته وحديثه وسعيه وعمله وحركته، وحالة النوم والسكون والهدوء، أو التحرير من العمل اليومي المُضني المُشغِل المُنهِك المُلهي عن الحوادث الماضية. وقد يحدث في أثناء هذا العمل اليومي أن يمرَّ أمام الإنسان أشخاصٌ يُحيُّونه ويُجيبهم عن تحيتهم جوابًا آليًّا، ولا يذكُر بعدئذٍ أنهم حضروا إليه، وأنهم حيَّوه، وأنه استجاب إلى تحيتهم.

أما حين يهدأ الإنسان من عمله، خاصة على سرير المرض وفي سكون الليل وفي النوم؛ فليس ثَمَّةَ ما يشغله عن الأشياء الأخرى؛ فهو عندئذٍ مُتمعِّن في لون الحجرة ونوع

الأثاث وقوة الضوء وحركة الأنفاس، مُستيقظ للمس والهمس، مُستذكر الحوادث السابقة يعرضها كشريطٍ سينمائي، ويربط بين حوادثها برباط لم يكن مألوفًا لديه.

ولقد اختبرت هذا حين مرضت وحين نزلتْ بي بعض المُلمَّات والأزمات؛ فاستذكرت حوادث سابقة، وعرضتها مُتسلسلةً مُتلاحقةً مُتناسقةً منطقية، كما يعرض المُؤرِّخ الحوادث في شريطٍ واحد، فتبدو النتائج كأنها ثمرةٌ منطقية للمقدمات. ومن هنا يقول الكاتب أو الشاعر أو المهندس أو العالم: «قمت في الليل أو كنت في الحمام أو في مكان التطهير، فخطرت ببالي فكرة المقال أو القصيدة أو المشروع أو الاختراع.» فيعدُّ هذا وحيًا وإلهامًا، في حين أنه ثمرة تسلسُل مراحل الحياة الشخصية ذاتها تمَّت مع نموِّ الأعضاء، وأفادت من كل ما قرأت وطالعت وشاهدت. وبما أنها قد نسيت ما مضى، فقد اعتقدت أن الذي طرأ من الحل والمشروع والاختراع هو وحي أو إلهام، هبط من السماء واستوى خلقًا جديدًا.

ومن أجل هذا نقول إن «نظرية العقل الباطن» أكذوبة ينبغي العدول عنها، وإن الأصحَّ أن يُقال إن للعقل حالتَين؛ الحالة العادية والحالة غير العادية؛ أعني حالة الفراغ والتحرر من الأعمال اليومية التي تكون آلية.

هذا ما نُنادي به مُخالِفين علماء النفس، مُعتقدين أن كثرتهم قد آثرت ابتكار نظرية العقل الباطن تقريبًا للمعاني وتفسيرًا للأحلام والعُقَد النفسية، وعلاجًا للأوهام والأمراض العصبية، وتبسيطًا للمُعمَّيات، وتوضيحًا للمُبهَمات، وفوق كل ذي علم عليم.

الملكات العقلية

مما يؤكِّده علم النفس الحديث أن الإنسان العادي لا يستفيد إلا من خُمس الملكات العقلية، وتبقى الأربعة الأخماس الأخرى خاملة ما لم يعمل على تدريبها وتنشيطها واستغلالها في حياته اليومية.

وتنشأ معظم العيوب التي تشُوب تفكير الإنسان عن إهماله لبعض المبادئ الأولية والقواعد البسيطة، كالتسرُّع في الإجابة عن الأسئلة والحكم على الأشياء، أو كالحياء والخوف اللذَين قد يعتريانه عند مواجهة الغير. ومن اليسير عليك أن تعرف مدى النقص في تفكير شخص ما إذا لاحظت كيفية إجابته عن الأسئلة البسيطة، فإذا قلت له مثلًا: «ما هي الفأس؟» فأجابك: «إنها أداة تُستعمل لحفر الأرض.» دلَّ ذلك على عقليةٍ غير مُنتظمة التفكير؛ إذ إن هناك أدواتٍ غيرَ الفأس يشملها هذا التعريف، كما أنك لم تسأله عن استعماله حتى تكون إجابته هكذا.

فاعمل على أن يكون كلامك على هذا النحو، بل عوِّدْ نفسك على تحديد المعاني وتوضيح الحديث. وسيتطلَّب منك ذلك بعض الوقت والجهد، ولكنك سوف تشعر في النهاية بأنها خير وسيلة تُساعدك على تركيز قُواك العقلية، وتُمكِّنك من إيجاد الحلول الصحيحة لما يُواجِهك من مشاكل وصعوبات في حياتك.

وتتوقَّف القدرة على الانتباه والمُلاحظة على الموضوع والعمل الذي تُعالجه، والشخص العادي لا يمكنه أن يُوجِّه كل انتباهه إلى موضوعٍ ما إلا إذا كان ذا أهمية حيوية لديه. ومهما تكن الأهمية التي تُعلِّقها على الموضوع يجب أن تكون قادرًا دائمًا على تركيز انتباهك فيه وحده.

إن قوة الانتباه تُشبِه شعاع الضوء؛ تضعف كلما انتشرت.

ويمكنك أن تُدرِّب نفسك على تقوية ملَكة الملاحظة والانتباه بمُمارسة بعض التمرينات العقلية البسيطة في أوقات فراغك، كأن تُمعِن النظر في أي شيء يقع عليه بصرك، وتحُوطه بنظرةٍ فاحصة لمدة لا تزيد على خمس دقائق، ثم تتركه جانبًا، وتكتب له وصفًا شاملًا، مُحاولًا وضع التفصيلات التي عِلقت بذهنك عنه، ثم ترجع إليه مرةً أخرى وتُقارنه بكتابتك؛ لتتعرَّف على نواحي النقص في ملَكة الانتباه عندك، وتعمل على تقويتها لتكرار مثل هذا التمرين.

والذاكرة من الملَكات التي تظل ثابتة على الحالة التي خُلِقت عليها، فلا يمكن تقويتها تقويةً محسوسة وإن أمكن ذلك في بعض الحالات، وكل ما يمكن عمله في سبيلها هو تحسين طريقة التذكر بتطبيق نظرية التداعي والاقتران؛ فكلما اقترن الموضوع الذي تريد أن تتعلَّمه أو تذكُره ببعض الظواهر الثانوية البسيطة، ساعد ذلك على سهولة استرجاعه، وتصوُّره كحقيقةٍ واضحةٍ ملموسة بكل تفاصيلها؛ إذ إن هذه الظواهر الثانوية تكون بمثابة حلقات يستند إليها التفكير في الرجوع إلى الماضي لاستدعاء الصورة كوحدةٍ كاملة، وهذه هي التي يعتمد عليها علم التربية الحديث في تعليم النشء.

وما من شيء يؤثِّر على نشاط الفكر وحدَّة الذهن كما يؤثِّر عليها الثقة بالنفس؛ فهي التي تمنع عنك الخوف والتردُّد والخجل، وتُضفي على حركاتك وتصرفاتك جوًّا من السكينة والاطمئنان يُساعد ملَكاتك الفعلية على العمل في هدوء ونشاط. فاعمل على أن تُعزِّز ثقتك بنفسك، واحذر من أن يستولي عليك شعورٌ قويٌّ بالندم والخطيئة يُحوِّل الاتجاهات الصحيحة لنشاطك الفكري.

وإذا أدَّت بك الظروف إلى أن تفقد بعض ثقتك بنفسك، فلا تُظهِر هذا الضعف لغيرك، بل ابذل كل ما في وُسعك حتى تبدو للناس هادئًا مُطمئنًّا لا تضطرب ولا تتردَّد، ولا تحنِ رأسك، بل تظاهَرْ بالشجاعة والقدرة على مواجهة الصعاب وحدك. واعلم أن الثقة بالنفس تُكتسَب بالمِران والتكرار والإقدام، وليتأكَّدِ الذين تُثبِّط هِممَهم أفكارُ الإخفاق وصور الهزيمة أن «من لم يرتكب خطأً لن يُحرِز نصرًا». والإخفاق خير من الهرب؛ لأن الأول يقترن بالشجاعة، وهي عامل البناء في كيان الإنسان، بينما ينطوي الآخر على مِعول الهدم والفناء. فخيرٌ لك أن تقول «لقد حاولت وأخفقت»، من أن تقول «لا يمكنني».

الأمراض الخُلقية والأمراض النفسية

تنزل بالمرء، إلى جانب الأمراض البدنية، اضطراباتٌ نفسية لا سبيل للإرادة أن تتحكَّم فيها. فهذا يُدمِن الخمر إدمانًا يؤثِر بغيره الموت على الحياة، وهذا يستسلم للانفعال والعنف وسرعة التهيج، وذاك مُستهتر أو يائس أو يُفكر في الانتحار، أو ينغمس في شهواته الجنسية. وكلٌّ من هؤلاء قد يُحاول أن ينتزع نفسه من سلطان هذه الآفات بلا جدوى، والناس ينحون عليهم باللائمة، ولكن العلم الحديث يحكم عليهم بالبراءة بدعوى أنهم — أسوةً بالمُصابين بأمراضٍ عصبية أو جنونية — غيرُ مسئولين عن أفعالهم، وأنهم كسائر المَرضى لهم على المجتمع حق للعلاج.

من الحِكم القديمة المأثورة أن الزمان — أو الحياة — إذا قلب للمرء ظهْرَ المِجن، ولم يجد المرء للتغلب عليه من سبيل؛ فإما أن يلجأ إلى السباب والشتائم، وإما أن يُصيبه وجع في الرأس، وإما أن يُكثر من الدعاء والصلاة، وإما أن يشرب الخمر حتى يسكر، وإلا فيُجنُّ أو ينتحر. وهذه الحكمة وإن كان ينقصها شيء من الدقة، فإنها حقيقةٌ علمية لا شك فيها. إن الحياة جهاد، والمرء في جهاده تعتريه عقبات تؤدِّي إلى اضطرابات، يمكن تقسيمها إلى أربعة أنواع، وهي:[1]

(١) أمراضٌ بدنية — أو عضوية كما يُسمُّونها — وأعراضها عادةً جسمانية، وأسبابها جسمانية، وإن تأتَّى عنها أحيانًا أعراضٌ نفسية.

---

[1] الهلال.

(٢) اضطراباتٌ نفسية — أو أمراضٌ عصبية أو وظيفية كما يُسمُّونها — وأعراضها كذلك جسمانية أو نفسية، ولكن أسبابها غير جسمانية، ترجع إلى نزاع في العقل الباطن.

(٣) أمراض خلقية، وهي، كالاضطرابات العصبية أو الوظيفية، أسبابها غير جسمانية، وترجع إلى نزاع في العقل الباطن، أو رغباتٍ مكبوتة لا يشعر بها صاحبها، مثال ذلك: الشذوذ الجنسي، والاستسلام للغضب والعنف رغم أنف صاحبه، ونزوع أرستقراطية من أسرةٍ شريفة إلى نشل السلع كلما زارت محلًّا تجاريًّا.

(٤) الشرور أو الآثام، وهي كل ما يُخالف مبادئ السلوك والأخلاق، وتختلف عن الأمراض الخلقية في كَوْن مُرتكِبها يأتيها عمدًا ومن تلقاء ذاته، ولإرادته التحكم فيها، ويستطيع أن ينأى عنها إذا شاء.

وقد يصعب أحيانًا الفصل بين هذه الأنواع، على أنها — بوجهٍ عام — يتميَّز بعضها من بعض، ولكلٍّ منها علاجٌ خاص. ويمكن التمثيل على هذه الأنواع والتفريق بينها، إذا تأمَّلنا في بعض الغرائز الأصلية كالخوف والميل الجنسي والطموح، كما يأتي:

الخوف

(١) أُصيبَ جندي في ساحة القتال بشظية من قنبلة، فأحدثت تلفًا في المخ نتج عنه شلل في الساق، وجُنَّ في الوقت ذاته. هذا مرضٌ بدني أو عضوي، أعراضه جسمانية ونفسية معًا.

(٢) جندي لم يُصَب بشيء، ولكنه يخشى ذلك، فيحدث في عقله الباطن نزاع أو نضال بين الرغبة في الهرب والقيام بواجب التضحية والشهامة وحب الوطن، وبالرغم من أنه لم يُصَب بأذًى ينتج عن هذا النضال النفساني شلل في الساق كالحالة السابقة. هذا مرضٌ عصبي أو نفساني أو وظيفي كما يُسمُّونه؛ لأن الشلل لم يتسبَّب من أي خلل في الجسم.

(٣) جندي حدث له ما حدث في الحالة السالفة، إلا أنه لم يُصَب بشلل أو أي خلل في عضو من أعضائه، ولكنه أصبح رغم أنفه وعلى غير إرادته مُشاكسًا عنيفًا، مُحبًّا للخصام، كثير المُعاكسة لزملائه إلى أقصى حد، يأتي أعمالًا مُستهترة تُعرِّض الغير للخطر. هذه الحالة تدلُّ على اضطراب في السلوك، ومخالفة جريئة غير معقولة للنظام العسكري. الجندي هنا مُصاب بمرضٍ أخلاقي.

(٤) جنديٌّ آخر حدث له ما حدث في الحالة الثانية، إلا أنه لا يُصاب بالشلل، ولا بمرضٍ أخلاقي كما في الحالة الثالثة، وإنما يهرب من الجيش، ويُقال عنه إنه جبان. هذا مجرد

شر أو إثم، ولا يُسمَّى مرضًا أخلاقيًّا كالحالة السالفة؛ لأن الهرب حدث عمدًا وعن سبق إصرار، وبإرادته لا رغم أنفه.

الميل الجنسي

(١) امرأة اندفعت في تيَّار ميولها الجنسية، فأُصيبت بالزهري — وهو مرضٌ عضوي أو جسماني في أصله وأعراضه — ولم تُعالَج علاجًا كافيًا، فكمن ميكروب الداء في مخِّها؛ ممَّا ختم حياتها بالجنون، وأعراض الجنون عقلية، وإن كان سببه في هذه الحالة مرضًا عُضويًّا، والأعراض العقلية والعضوية هنا تُعالَج كأنها عضوية فقط.

(٢) امرأةٌ سليمة الجسم والعقل، تزوَّجت من رجلٍ سليم الجسم والعقل، ولكنها كانت تتألَّم كلما اقترب منها زوجها، وبالرغم من أن الألم هنا كان عضويًّا — في عضو التناسل — فإن سببه كان عقليًّا أو عصبيًّا. وقد تبيَّن من التحليل النفساني أنها في طفولتها كان قد اعتدى على عفافها أثيم، وقد كان الحادث نسيًا منسيًّا، ولكن الزواج أخرجه من العقل الباطن وأودعه العقل الواعي. هذا مرضٌ عقليٌّ محض، أو عصبي أو وظيفي كما يُسمُّونه.

(٣) امرأة كالحالة السابقة، أي اعتُدي على عفافها في طفولتها، ورغم نسيانها الحادث فإنها أُصيبت في مرحلة المُراهقة بداءٍ لم تستطع التخلص منه رغم كل محاولة، وهو شذوذٌ جنسي عافت بسببه الرجال وأحبَّت النساء، وما لم تُعالَج قد تُفسد غيرها. وهذا، ولا مِراء، مرضٌ أخلاقي؛ لأنه خارج عن إرادتها.

(٤) امرأة كالحالة السابقة ضعيفة الشخصية، استسلمت عمدًا لشهواتها الجنسية، واندفعت فيها بإرادتها. هذه الحالة مجرد شر أو إثم، وليس مرضًا خُلقيًّا.

الطموح

(١) قد يدفع الطموح بصاحبه إلى المُجازفة والمُخاطرة، فيُصاب بالملاريا أو ذات الرئة أو مرض في القلب. هذا مرضٌ عضوي أو جسمانيٌّ محض.

(٢) قد يكون الطموح أساسًا لعقدةٍ نفسية، كالمُغالاة في تقدير الذات — أو مركب الكمال كما يُسمُّونه أحيانًا — ممَّا يؤدِّي بصاحبه إلى «النورستانيا» مثلًا، كما يحدث لرجال الأعمال ورجال الفن. هذا مرضٌ وظيفي أو عصبي.

(٣) في الحالة السابقة قد يكبت الرجل الطُّموح، فتبدو عليه ميول القسوة والعنف و«السادزم»؛ أي الميل لتعذيب الغير، ويُحاول أن يتخلَّص من هذه الميول بلا جدوى. هذا داءٌ أخلاقي.

(٤) في الحالة السابق قد لا يُصاب الرجل بشيء ممَّا سبق، ولكنه تحقيقًا لرغبته في بلوغ المنزلة السامية التي ينشُدها وتحقيقًا لمطامحه، يعمد إلى الاختلاس أو التزوير أو التدليس. هذا مجرد إثم أو شر، وليس مرضًا خلقيًّا؛ لأن صاحبه أراده وتعمَّده.

الأمراض العضوية

تُعالَج الأمراض العضوية أو الجسمانية علاجًا جسمانيًّا طبعًا، ولكن هذا لا يُعنى به أن الأمراض الجسمانية العضوية لا يكون مصدرها نفسيًّا، إنما الحقيقة على النقيض من ذلك؛ إذ إن أفكار الشخص ووجداناته وانفعالاته ذات أثر فعَّال في التغييرات الفزيولوجية في الجسم. مثال ذلك أن الأمل يُنبِّه الدورة الدموية، ويزيد أعضاء الجسم تأديةً لوظائفها، ومنظر الطعام يُضاعفه نشاط الغُدد الغذائية، فيزداد اللعاب والعصارة المَعدية. صحيحٌ أن فكر المريض لن يشفي قُرحة في المُصْران الأعور، بيْدَ أن تشجيع الطبيب وكياسته وحسن سياسته كلها عوامل فعَّالة في الشفاء. وكثيرًا ما يكون الأمل والتشجيع وإدخال السرور على المريض من الأسباب التي تبعث بالهواء النقي والدم إلى أقصى مكان في رئتَيه، وتُنعِش دورته الدموية، وقد تشفيه أحيانًا من داء السُّل الرئوي. وكثيرًا ما يتنافس الجسم والسرطان، ويُحاول كلٌّ منهما اغتصاب القُوى الغذائية من الآخر، ولكن حيوية المريض تعلو بالإيحاء، وقوة المُقاومة تزداد بالأمل والبِشر والرجاء، فيتغلَّب الجسم على السرطان، ولكن ليس معنى هذا أن يُهمِل الطبيب علاج المريض بالوسائل الطبية المعروفة، ويلجأ إلى الإيحاء أو الصلاة أو التشجيع أو غير ذلك. وينبغي ألا ننسى كذلك أن الأمراض العضوية — أو الجسمانية — كثيرًا ما يتأتَّى عنها أمراضٌ عقلية أو خُلقية كما في بعض حالات الجنون، والمريض في هذه الحالات يجب أن يُعالَج قبل كل شيء بالوسائل الطبية المعروفة.

الأمراض الوظيفية العصبية

الأمراض الوظيفية تُشبِه العضوية في كَوْن أعراضها جسمانية، كشدة التعب ووجع الرأس وفقدان حاسة النظر والشلل والرعشة إلى غير ذلك، ولكنها تختلف عنها في أمرَين:

أولًا: أن الشلل أو فقدان البصر مثلًا في الأمراض العضوية ناتج عن تغيير في تركيب الجسم؛ أي إصابة في المخ في حالة الشلل، وفي العين أو الأعصاب المتَّصِلة بها في حالة فقدان البصر. في حين أن الأمراض الوظيفية أو العصبية لا يوجد فيها تغيير مُطلَقًا في تركيب الجسم، ولا توجد إصابة في الجسم على الإطلاق، كل ما هنالك أن العضو لا يقوم بوظيفته؛ أي إن العيب ليس في الجسم ذاته، وإنما في القوة الخفية التي بغيرها لا يؤدِّي العضو وظيفته، وهذه القوة هي ما نُعبِّر عنها بالحياة العقلية «النفسية» والوجدانية.

ثانيًا: أن الأمراض العضوية تختلف عن الوظيفية، ليس في أصلها وحسب، وإنما أيضًا في آثارها، قد تتشابه الأعراض في الظاهر، ولكن الطبيب الإخصائي يستطيع التفريق بينهما.

ومن المهم التفريق بين الأمراض الخلقية والأمراض العصبية «الوظيفية»؛ ذلك أن الأمراض الخلقية نحكم عليها بمقاييس السلوك التي يُقرُّها المجتمع، أما الأمراض الوظيفية فنحكم عليها بمقاييس صحية معروفة. حقيقةٌ أن أسباب هذَين النوعين من الأمراض مُتشابهة، وهي العقدة النفسية المكبوتة، ولكن أعراضها تختلف كل الاختلاف؛ فالأمراض العصبية تكون أعراضها بدنية وعقلية «نفسية» كالنوراستانيا والهستيريا، أما الأمراض الخلقية فأعراضها اضطرابات في سلوك الشخص وعلاقاته بالآخرين. مثال ذلك

ما شرحناه في الأمثلة السابقة؛ فالميل الجنسي المكبوت إما أن يؤدِّي إلى هستيريا يتسبَّب عنها آلام في مواضع عديدة في الجسم بغير أن يكون لها سببٌ عضوي، وإما أن يؤدِّي إلى انحراف أو شذوذٍ جنسي على غير إرادة المريض. في الحالة الأولى يكون المرض وظيفيًّا «عصبيًّا»، وفي الثانية خلقيًّا.

الأمراض الخلقية

يجب التفريق بين المرض الخلقي والإثم أو الشر؛ فالرجل الذي يختلس أو يسكر أو يحتد أو يُشبِع شهواته — عمدًا وعن سبق إصرار — ليس مريضًا، وإنما هو أثيم أو شِرير أو مُخطئ، أما الرجل المُثري الذي يدخل مخزنًا تجاريًّا كبيرًا ويسرق على غير إرادته، وبدافعٍ قوي في داخله، سلعةً لا تصلح له ولا لقريب له أو صديق، هذا الرجل مُصاب بمرضٍ خلقي يُسمُّونه كليبتومانيا (مرض السرقة)، وينبغي معالجته أسوة بسائر المرضى.

وربما كان مثل الرجل الثِمِل ومُدمِن الخمر أسهل ما يمكن ضربه لشرح الفرق بين المرض الخلقي والإثم؛ فالرجل الذي يشرب كأسًا من النبيذ فتلعب الخمر برأسه لا يُعدُّ مريضًا؛ لأنه يعمد إلى الشرب للتفكهة أو مجاراةً لأصدقائه، ويستطيع أن يمتنع عن شرب هذه الكأس إذا أراد، أما الرجل الذي أصبح عبدًا للكأس، فيُدمِن الشراب ويسكر، ويُنفق ماله لأجل الراح، ويخسر صحته، إنما يفعل ذلك مُرغَمًا، ويُحاول جهده الامتناع عن هذه العادة فلا يستطيع. في الحالة الأولى يرتكب الرجل إثمًا، وفي الثانية يُقال إنه مُصاب بمرضٍ أخلاقي وينبغي علاجه. ورجال القضاء عادةً لا يُفرِّقون بين هذا وذاك، فيحكمون على كلٍّ بالعقوبة المقرَّرة في القانون، بدعوى أن كلًّا منهما ارتكب جريمة السُّكْر البيِّن العلني. أما علم النفس فيُفرِّق بينهما، ويُطالب بمُعاقبة الأول وبعلاج الثاني.

ولا تحتاج التفرقة بين النوعَين إلى خبرةٍ خاصة؛ إذ إن المرض الخلقي ذو صفة قهرية إرغامية، في حين أن الإثم ذو صفة تعمُّدية، هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى فإن الإثم لا يريد صاحبه الامتناع عن إتيانه، في حين أن المرض الخلقي يريد المريض الشفاء منه إذا علم أن هناك السبيل إليه. والطبيب النفساني قلَّما يلجأ إليه الأثيم أولًا؛ لأن الأثيم لا يريد التخلِّي عن إثمه، وثانيًا لأن الطب النفساني ليس العلاج المُلائم للآثام والشرور.

ومن الخطأ الجسيم أن نلوم المُصاب بمرضٍ أخلاقي؛ إذ إن اللوم يزيد الطينة بلَّة، ولكن هل يُخليه المرض من المسئولية؟ كلا، إنه مسئول؛ أولًا: بمعنى أنه ينبغي له أن يسعى للعلاج. ثانيًا: بمعنى أنه وإن كان لا يستطيع التغلب على ميوله، فإنه في كثير من الأحوال يستطيع منع هذه الميول من إلحاق الأذى بالغير. مثال ذلك أنه يوجد مئات الألوف من اللواطيين الذين بطبيعتهم يميلون إلى ارتكاب جريمة الزنا ضد الغلمان والشبان، وقد تشتدُّ فيهم هذه الرغبة الجنسية الشاذَّة إلى الدرجة القصوى، وبالرغم من ذلك تبقى هذه الرغبة في الداخل ولا تمتدُّ إلى الغير؛ لأنهم استطاعوا بفعل الإرادة القوية فيهم جعْلَها مجرد رغبة لا تخرج إلى حيِّز الفعل. وما يُقال عن اللواط يُقال عن الميل الجنسي الشاذ أو الفعل العلني الفاضح؛ أي عرض أعضاء التناسل أو أجزاء الجسم المحرَّمة أمام الأنظار.

على أنه مهما يكن من شيء فإن هناك أمرَين ينبغي ذِكرهما، وهما: أولًا: إن الرغبة الشاذَّة قد تشتدُّ إلى درجة لا حول للمريض على التغلب عليها. وثانيًا: إن المجتمع مسئول عن المُصاب بمرضٍ خلقي؛ لأنه كثيرًا ما يكون فريسة بيئته، والمجتمع وحده المسئول عن علاجه.

الحب الحسي والجنسي

الحب جاذبيةٌ حسية يُغذِّيها التصور ويُضخمها الفكر، ولولا الفكر وقوَّته والتصور وفنونه لاستحال الحب إلى مجرد عمل بهيمي وضِيع.

فأنت إذ تلتقي بامرأةٍ حسناء يتملَّكك الإعجاب بها من طريق حواسك في مبدأ الأمر؛ أي إن بصرك يُعجَب بها، وتقاطيع بدنها تستهوي عينَيك، وإن شيئًا معيَّنًا فيها يرُوقك بوجهٍ خاص ويفتنك. وهكذا تشعر نحوها بالجاذبية الحسية التي هي أولى درجات الحب.

ثمَّ تلتقي بهذه الحسناء مرةً ثانية، ويتَّفق أن يكون ذلك في حديقةٍ جميلة أو في دار مسرح أو سينما تُعرَض فيها قصةٌ غرامية مؤثِّرة، أو في مكان تتردَّد بالقرب منه نغمات الموسيقى، فيحدث عندئذٍ أن يَبهَرك منظر الحديقة الجميلة، أو يهزَّ أعصابَك موضوعُ القصة الغرامية المؤثرة، أو تُحرِّك أشجانَك الراقدة نغماتُ الموسيقى، فتتأجَّج إحساساتك، وتشعر بحنين إلى العاطفة، ورغبةٍ جامحة في أن تروي ظمأ نفسك، فتتحوَّل بالرغم منك إلى المخلوق الذي عرف كيف يجتذب حواسك، وتبدأ في التفكير فيه وأنت تتصوَّره من خلال الجمال الشعري الذي بالَغ وَهْمك وخيالك في تزيينه.

وقد يكفي أن تسمع رنين ضحك المرأة التي اجتذبتك، أو صوتها وهي تتكلَّم، كي تُحدِث فيك جلجلة الضحك أو رخامة الصوت ذلك التأثيرَ الشعري الذي لا بد أن تخلعه على المرأة لتطمئنَّ إليها، وتستطيع التفكير فيها، وتوليد عاطفة الحب في نفسك نحوها.

ولا يمكن أن يتولَّد الحب بدونِ دافعٍ شعري يُوقِظ العاطفة، ودافعٍ جنسي يُوقِظ الحواس. وقد تُثير فينا المرأة سلطان العاطفة ثم الحواس أو نقيض هذا، غير أن اقتران الدافع العاطفي بالدافع الجنسي لا بد منه لتحقُّق الحب الكامل.

وحيث إن العاطفة لا تعيش بدون تفكير، فعقلنا هو الذي يخلق الحب، وخيالنا هو الذي يتعهَّده، وتصوُّرنا هو الذي يُغذيه مُستمدًّا قوَّته من الظروف الشعرية التي أحاطت بالمرأة، ومن شتَّى ألوان الجمال الخيالي التي أحاطت بتلك الظروف؛ وإذن فلا حب بدون شعر، ولا شعر بدون فكر وخيال. وأرحب الناس خيالًا أكثرهم حُبًّا، وأقدرهم على الحب.

وهذا ما يُفسِّر لنا خيبة المُحبِّين وشقاءهم، وما يدلُّنا أبلغ الدلالة على أن الحب وهمٌ من الأوهام، وكيف لا يكون وهمًا والمُحبُّ لا يمكن أن يرى حبيبته إلا في إطار من الشعر، ولا يمكن أن يُحبها إلا إذا أضفى عليها أبدع حُلَل الشعر، ولا يمكن أن يسمو بحبه عن الغريزة البهيمية إلا إذا حمله وزيَّنه بالشعر؟!

ولكن الشعر غير الواقع، والمرأة ليست إلهة، فمتى اتصل بها الرجل وخالطها، وكشفت له الحياة عن جوهر طبيعتها العادي، أحسَّ الفرق الهائل بين خيالها في ذهنه وبين حقيقتها اليومية، فانجابت السُّحب عن بصره، وتداعى حبه، وتقوَّض الهيكل الذي كان قد شيَّده بعقله وأعصابه ودمه!

وإذن فالمُحبُّ يطلب ما يُحب أن يكون، لا ما هو كائن. وهذا سر شقائه، وهذا سر عظمته، وعظمة الحب التي يتهالك عليها جميع الناس!

وفي هذا يقول ماكس رينال: «إن المُحبَّ شخصٌ «مثالي»، يريد أن ينهض بالحياة، ويسمو بالإنسان، ويرفع حبيبته من حضيض الأرض إلى عنان السماء. إنه يشعر بالدافع الجنسي يدفعه إليها، فيستنكر خشونته ويستنكر غلظته، ويأبى إلا أن يُهذِّبه بدافع من القلب والروح.»

إن حبه يقوده إلى الطبيعة، فيرى جمالها من خلال شخص محبوبته، فيتناول هذا الجمال ويصوغه ويُكلِّلها به. وهكذا يُعلِّمنا معنى الفن ومعنى الحياة.

فماذا تهمُّ خيبة الواقع أمام هذه اللذة العُلوية التي يظفر بها المُحبُّون؟ وماذا يهمُّ أن يكون الحب في أصله وهمًا ما دامت الغاية هي السمو بالغريزة، وتجميل الكون من طريق تجميل المرأة؟

لقد كان «دستويفسكي» يكره المرأة التي لا تستطيع إثارة الدافع الشعري في نفسه، وكان يخافها ويفرُّ منها، ويُسمِّيها «شيطان الظلام»؛ أي شيطان الشهوة.

وكان «روسو» لا يفهم كيف يمكن أن يشتهي امرأة لا تُخاطِب محاسنها قلبه أولًا، ولا تُوحي إليه عاطفةً رقيقة، أو فكرةً غريبة، أو خيالًا شائقًا.

وكان «فلوبيير» يقول: «ليست وظيفة المرأة أن تكون حارسة النوع فقط، بل حارسة الجمال أيضًا. والمرأة التي لا أشعر بالقرب منها بجمال الطبيعة وجمال العواطف النبيلة الخالدة لا يمكن أن أستريح إليها.»

وعليه فالقوة التي تُميِّز الحب عن الرغبة الجنسية المجردة، هي هذا الاتجاه المثالي نحوَ عالمٍ أكمل من الواقع، وأصفى وأجدر بقيمة الإنسان. وهنا يشترك الحب الكبير مع الشعور الديني؛ إذ كلاهما يبحث عن الصفاء، وكلاهما ينشُد الجمال الأعلى!

الحب والمرأة

المرأة تُحبُّ أن تكون محبوبة، ولكنها في صميم نفسها لا تؤمن بالرجل كثيرًا؛ فالرجل هو القوة، والقوة تعبث بالضعف. ومع ذلك تُنصِت المرأة للرجل، وتجد لذةً عظيمة في مُخادعة نفسها ومحاولة تصديق أكاذيبه؛ فالواقع أنها خيالية العاطفة، تنشُد الحب الصادق المُلتهِب الدائم، وتستسلم لتُجرِّب؛ فإن أخفقت أعادت الكرَّة حتى تستقرَّ على حبٍّ مُتبادلٍ وطيد، وتنحدر إلى مهواة الخلاعة والتبذُّل.

وهي تريد الرجل قويًّا، وتريد أن تُحبَّه هي لا أن يحبَّها هو، أو تريد أن يحبَّها ولكن في أنفة وعزة وكبرياء وعدم اكتراث؛ ولهذا لا ينجح مع النساء — على حدِّ قول فولتير — إلا الرجال الذين لم يجد الحب إلى قلوبهم المُتحجرة سبيلًا!

الحب والغيرة

يرى ماكس رينال أن حق الرجل الوراثي في امتلاك المرأة وحيازتها، والإنفاق عليها وعلى أبنائه المُستولَدين منها، هو الذي يجعل الحب مُقترنًا بالغيرة؛ فهو يُحبُّ ولكنه في الوقت نفسه يرغب في الاحتفاظ بكرامة رجولته، وهذه الكرامة هي التي تثور إذا ما ظهر المُزاحم، وهي التي تُولِّد الغيرة، وتدفع في معظم الأحيان إلى الإجرام أو إلى الجنون.

وثَمَةَ باعثٌ آخر على الغيرة قد يكون أهم وأخطر، وهو ما يُسمِّيه ماكس رينال «خيال اللذة». فحين يظهر المُزاحم، وتُعرِض المعشوقة عن عشيقها الأول؛ يدبُّ الشك في نفسه، ثم يشتعل في ذهنه خيال اللذة، فيتمثَّلها تمامًا، ويتمثَّل غريمه مُستمتعًا بها، فيُجنُّ جنونًا.

فالرجل والحالة هذه أناني، وحبه مظهر من مظاهر الأنانية، والمرأة تعرف هذا حقَّ المعرفة، وتعرف عند الاقتضاء كيف تُلهِب أنانيته وكبرياءه وغَيْرته؛ للاحتفاظ به، أو لتعذيبه والانتقام منه.

ولكن ماكس رينال على الرغم ممَّا تقدَّم، يؤمن بوجود حب آخر لا يعرف الأنانية، ولا تنفذ الغيرة إلى قلب صاحبه، وفي هذا يقول: «كلما ارتقى الإنسان في سُلَّم الحضارة، واتسع ذهنه، وصفَت روحه، وتحرَّرت غرائزه من سلطان الشهوة؛ مال به الحب نحو الغيرية لا نحو الأنانية، ونحو التضحية لا نحو الكبرياء وحب الذات.» فهو يسعد بلذة الحب كرجلٍ عادي، ولكنه يسعد فوق هذا بلذة تضحية نفسه في سبيل المرأة التي يُحب. ولقد كان تورجنيف يقول: «إني أعبدها، وماذا يهمُّني أن تكون لي أو لسواي؟ المهم أن تكون سعيدة، وأن يعرف الرجل الذي تُحبه كيف يُسعدها.»

وهذا في رأي ماكس رينال أسمى مراتب الحب.

الكهولة عهد الغرام

وفي رأي ماكس رينال أن الشاب لا يمكن أن يُحبَّ امرأة بالذات؛ لأنه يُحبُّ النساء جميعًا، أو قل إنه يحب الحياة. والحب عنده عاطفةٌ جبَّارةٌ هائلة، تتطلَّب منَّا توديع مناعم الحياة الظاهرة، وحصر متاعها في امتلاك مخلوق معيَّن ورفقته، نراه خلاصة ما في الدنيا من متاع وجمال؛ ولهذا فالكهولة هي التي تعرف كيف تُحبُّ لا الشباب؛ لأنها تنشُد الاستقرار بعد طول المَطاف، وتذهب في الحب إلى أبعد حدود التضحية والولاء.

ولكن سخرية الحياة تُهدِّد الكهول أيضًا، وا أسفاه! فهي — سواء أكانت ممثَّلة في رجل أو امرأة — كثيرًا ما لا تشعر بعاطفة الحب إلا نحو الشباب المتَّقِد الطَّموح، الذي يفهم حق الفهم عاطفة الكهولة، أو يُقدِّر ما تشمل عليه من رزانة وثبات ووفاء.

فنون الجنون

يقول الدكتور فرانك كابريو إنه قد زادت في الأعوام الأخيرة حوادث الاضطرابات العصبية والإصابة بالجنون؛ ممَّا ضاعَف من اهتمام الناس بمشكلات العقل إلى حدٍّ لم يسبق له مثيل من قبل، بل إن هوليود مدينة السينما نفسها قد جنحت إلى استغلال هذا الاهتمام، فرأينا أفلامًا تُعالِج هذه الناحية، مثل: فيلم سيدة في الظلام، وفيلم تحت ضوء المصباح، وفيلم الحصاد، وفيلم القناع السابع.

يجب أن نُفسِّر للناس جانبًا ممَّا خفي عليهم من شئون العقل؛ فالواقع أنه ممَّا يدهش له الإنسان كثيرًا قلة المعلومات التي يعرفها الناس عن سلوك العقل البشري والعواطف، ومن الناس من يعتقد أن من يُصاب باضطرابٍ عصبي مرة فلن يُشفى منه أبدًا، ومنهم من يظن أن حالات الاضطراب العصبي الشديدة إنما هي نتيجة للإسراف في العلاقات الجنسية. ولهؤلاء جميعًا نُورِد هنا عددًا من الأسئلة التي تكفي معرفة الإجابة عنها للإلمام بشئون العقل وعمله:

(١) هل الجنون وراثي؟

كلا. وإذا كان واحد من أجدادنا قد قضى فترة من الوقت في إحدى المصحَّات العقلية، فإن هذا لا يعني — بأية حال — أننا سنُعاني صدمةً عقليةً مُماثلة. وإذا كان أبي — مثلًا — مُدمِنًا على الخمر، أو عمِّي سيئ الطبع فظَّ الأخلاق، أو جدَّتي شاذَّة التصرفات؛ فليس من المحتَّم أن تبدو آثار هذه النقائص في طباعي.

ومثل هذه الأمراض الأخلاقية والبدنية، مثل لعب القمار أو إدمان الخمر أو الاضطراب العصبي أو الجنون أو السُّل أو الكسل؛ لا تُورَث مباشرة. وإذا ظهرت آثارُ أيٍّ من هذه

الأمراض في العائلة فالمرء لا يُصاب به حتمًا، وإنما يكون عنده استعداد للإصابة به، وفي وُسعه أن يتغلَّب على هذا الاستعداد.

أما الضِّعاف من الناس فإنهم يلتمسون في «الوراثة الملوَّثة» عذرًا وتعليلًا لنقائصهم وشذوذهم وشرورهم، وهم يميلون بطبيعتهم إلى تقليد أخطاء آبائهم عن غير قصد منهم تحت تأثير اللاشعور.

ولكن الواقع أن العادات والطباع لا تُورَث، وإنما تُكتسَب. فإذا كنَّا نرث عن آبائنا لون العينَين أو الشعر أو طول الجسم أو البدانة، فإننا نكتسب بأنفُسنا طبيعة الاندفاع أو العناد أو سرعة التهيج أو رقة الإحساس أو الإغراق في الحزن أو الفرح أو الخوف أو الميول الجنسية، وغير ذلك كثير من مُميزات شخصياتنا.

(٢) ما هي أسباب الاضطراب العصبي؟

الاضطراب العصبي هو الحالة التي تختلط فيها عواطف الإنسان وتتضارب حتى يعجز عن مُواصلة الطريق الطبيعي لحياته. وأكثر الناس تعرُّضًا للإصابة بالاضطراب العصبي هم ذوو الإحساس المُرهَف منذ طفولتهم، ويشعر هؤلاء عادةً بتعلُّقٍ شديد بأحد الوالدَين أو كليهما، أو يُخالِجهما إحساس بالحاجة إلى قدرٍ أكبر من عاطفة الأبوَّة وحنانها.

وهناك أمثلة، منها: قصة طفل — ولنُسمِّه فكتور — كان الإحساس بالنسبة له هو الجوع والحرمان، وأبدى فكتور نفورًا من الحلوى التي يُحبها أطفالنا عادة.

كان ينفر من الناس في أول الأمر، ولا يُبدي لمن يتَّصلون به محبةً أو عطفًا، إلا أنه بعد زمن ظهرت عليه دلائل الحب لبعضهم. هرب يومًا إلى الطريق، وعندما شاهَد مدام جيريز حارسته انفجر بالبكاء، وظلَّت علائم التأثُّر مُلازِمة له بضع ساعات. وعندما كان الدكتور عطار يزوره كان فكتور يُعانقه ويُجلِسه إلى جِواره، وفي بعض الأحيان يقفز ويضحك ويُصفِّق ويجلس في مُواجهة الدكتور، ويُمسِك بركبتَيه كأنما يتحسَّسهما ويضغط عليهما بشدة، أو يعضُّهما بشفتَيه مراتٍ عديدة. وفي ذلك يقول الدكتور عطار: «لم أكن أحفل بأقوال الناس، وكنت أضع نفسي تحت تصرُّفه، فيقوم بهذه الأعمال الصِّبيانية.»

ثم كتب الدكتور عطار تقريرًا بيَّن فيه كيف تدرَّب الصبي شيئًا فشيئًا على الكلام البسيط؛ كيف يردُّ عند سماع فكتور، كيف تعلَّم بعض الألفاظ مثل اللبن، غير أن مُحاولة تعليمه أكثر من ذلك أخفقت، كما اعترف بعد ذلك بخمس سنوات بأن كل ما تعلَّمه بعض الألفاظ البسيطة مع قراءتها، غير أنه لم يصبح شابًّا ناضجًا أو رجلًا مُكتملًا عاديًّا، وظل

على الدوام مُتأخِّر العقل. لقد كان أثر تلك السنوات التي أقام خلالها في الغابة وحيدًا بعيدًا عن الناس عميقًا في نفسه، بحيث جعله عاجزًا عن النمو العقلي.

ويقول الدكتور عطار: «إن حالة فكتور العامة تُبيِّن لنا أن الامتياز الخلقي الذي يزعمون نسبته الفطرية للإنسان هو ثمرة الحضارة؛ تلك التي ترفع الإنسان عن الحيوان بقوةٍ هائلة.» قد يكون في هذا الكلام مساسٌ بالعزة الإنسانية، وقد يكون فيه فخر لها؛ ذلك أن الإنسان هو الذي علَّم نفسه الحضارة، فارتفع عن مرتبة الحيوان.

والأشخاص الذين يُعانون الآلام في مُقتبَل العمر يتأثَّرون تأثرًا كبيرًا إذا واجهتهم الصدمات في أواخر حياتهم، وهم يتألَّمون لصراعَين ينشبان في نفوسهم؛ صراعٍ أساسيٍّ ناشئ عن شقوة طفولتهم نتيجة لسوء علاقتهم مع الوالدَين، وصراعٍ وقتيٍّ مَبعثه صدمةٌ مُفاجئة، مثل إخفاق كبير، أو فقدان مال، أو وفاة شخص عزيز، أو متاعب العمل، أو الإخفاق في المدرسة أو المرض، إلى غير ذلك، ولكن هذه ليست الأسباب الحقيقية للاضطراب العصبي، وإنما هي تُساعد فقط على الإصابة بهذا المرض.

والكَبْت العاطفي الشديد الذي نتعرَّض له في حياتنا العادية اليوم هو أهم أسباب الاضطراب العصبي، والحياة معركةٌ يدور فيها كفاحٌ متَّصِل ضد القدر؛ إذ إن المبدأ السائد هو البقاء للأصلح، والواقع أن أكثرنا لم يُدرَّب في طفولته على تقبُّل الصدمات، والتصرف بإزائها في حكمة وتبصُّر. ومسئولية هذا النقص تقع على عاتق الآباء.

وواجبنا يقتضينا أن نتبيَّن أخطاءنا ونقائصنا ونعرف مبعثها، فنُحاول إصلاح أنفُسنا لنتجنَّب بذلك التعرُّض للاضطرابات العصبية نتيجة لقسوة الحياة.

(٣) هل يمكن أن نبرأ من مخاوفنا وأوهامنا؟

نعم، ويكون ذلك على يد الإخصائيين في العلاج النفساني؛ إذ إن التحليل يكشف لهم ولنا عن السبب اللاشعوري لهذه المخاوف أو الأوهام، ولنتأمَّلْ هذا المثال:

جاءت لزيارتي في مكتبي ذات يوم امرأةٌ في الثانية والأربعين من عمرها غير مُتزوجة، وأعربت عن خوفها الشديد من الإصابة بالسُّل الرئوي، حتى إنها عند عودتها من عملها أخذت تُنظِّف حذاءها بالكحول؛ اعتقادًا منها أن الحذاء قد احتكَّ ببصقة مُصاب بالسُّل أثناء سيرها في الشارع، وقالت لي السيدة إنها أمضت ١٢ سنة من حياتها ضحية هذا الوهم.

وأفاضت المرأة في وصف طفولتها كما طلبتُ إليها، ومن حديثها أخذتُ أتبيَّن تدريجيًّا خوفها من الناحية الجنسية المُتأصِّل في نفسها، والذي جعلها تُغفِل شأن الزواج ولا تهتمُّ بالعاطفة.

وهذا الخوف من الناحية الجنسية انقلب إلى رغبة في الدفاع عن النفس اتخذت زيَّ الخوف من الإصابة بالسُّل. وقد كانت هذه وسيلةً بارعة لإخفاء الدافع الحقيقي لخوفها، وما دامت الفتاة مشغولة البال بالخوف من المرض، فلن يتَّسع لها الوقت للتفكير في شيءٍ آخر.

ومن المُضحِك أن نتصوَّر أن العقاقير أو العلاج بالكهرباء أو الراحة من العمل، يستطيع أن تشفي المرء من هذه الأوهام، وتجب معالجة جميع المتاعب والاضطرابات النفسية بالطُّرق السيكولوجية السليمة. والفرد العادي يعجز في أغلب الأحوال عن اكتشاف السبب الخفي للوهم المُتغلِّب عليه، وما دام هذا السبب غامضًا، فإنه يبقى مكتوف اليدَين عاجزًا عن التصرف!

(٤) ما أوجُه اختلاف الشخص الشاذ عن الشخص العادي؟

الشخص العادي هو السليم من الأمراض، والقادر على تحمُّل الآلام الجثمانية المألوفة، كما أنه الشخص الذي لا يُعاني شيئًا من صراعٍ عاطفي أو عقليٍّ كبير؛ فهو بهذا يستطيع أن يُواصِل عمله في نجاح دون الإسراف في الشكوى، وله القدرة أيضًا على أن يُلائم بين نفسه وبين الظروف المُتغيرة في مهارة وذكاء.

وعلى الرغم من أن لكل فرد نواحيَ شذوذه الخاصة، إلا أن الفرد العادي يعرف كيف يتحمَّل المرض والصدمات، فلا يُبالِغ في تقدير شيء منها حتى يشقى بالأوهام، وهو يُقدِّر أن كل ما يؤثِّر على البدن يؤذي العقل أيضًا، ولكن هذا لا يجعله يفقد صوابه في حالة المرض، بل يتحمَّله في جلَدٍ وصبر.

أما الشخص الشاذ فإنه دائم الشكوى، يتلمَّس عند الناس جميعًا العطف والرعاية، كما أنه مُرهَف الإحساس، تغلِب على أخلاقه طباع الأطفال. وهو يختلف عن الشخص العادي من حيث إنه ضحية لدوافع لا شعورية تنطوي خلف آلامه أو شكواه الجسمية، وربما كان السبب الخفي لمتاعبه شعورًا بالنقص أو إخفاقًا جنسيًّا.

وأغلب أصحاب الشذوذ يُضيِّعون مجهودهم هباءً في السعي لبلوغ أهداف خيالية؛ وتبعًا لذلك فإن متاعبهم العاطفية تنقلب إلى شكوى من اعتلال الصحة. والشخص الشاذ يُساير غرائزه ونزعاته، أما الشخص العادي فإنه يكبح جماحها. فالأول يتصرَّف كالطفل وهو مُتطرِّف، يسرُّه أن يتأمَّل الجانب المُظلِم من الحياة، وأن يعيش في عالمه الخاص لا يهتمُّ إلا بنفسه. أما الثاني فهو فيلسوفٌ يُحكِّم عقله في جميع تصرُّفاته، ويُساعد الناس ويتعاون معهم.

وإذا كان الشذوذ نقصًا فإن علاجه بسيط؛ فما على المرء إلا أن يُمعِن النظر في شخصيته وأخلاقه ليعرف نواحي شذوذه. فإذا عرفها، وعقد العزم على التغلُّب عليها والتخلص منها؛ فإنه لا بد ناجح في بلوغ هدفه.

(٥) هل يمكن معالجة الجنون؟

نعم. وهناك أنواعٌ مختلفة من الجنون، وفي كل عام يخرج من مستشفيات الأمراض العقلية عددٌ من المرضى الذين عُولِجوا وشُفوا من جنونهم.

وليس حقيقيًّا أن الشخص الذي يُصاب بالجنون مرة يقضي حياته كلها مجنونًا؛ إذ إن وسائل العلاج الحديثة قد تقدَّمت تقدُّمًا كبيرًا، ونجحت في أن تشفي عددًا كبيرًا من المرضى، وردَّتهم إلى أُسَرهم وأعمالهم ليُمارسوا حياتهم العادية. وتجب معالجة كل حالة تبعًا لمدة الإصابة بالمرض العقلي، وظروف المريض الخاصة، والتطورات التي انتهت به إلى مرحلة الجنون.

(٦) هل يقلُّ تعرُّض المثقَّفين للإصابة بالجنون حقًّا؟

نعم؛ فإن الشخصيات النامية تكون أكثر تعرُّضًا للإصابة بالشذوذ، وقلَّما يبلغ الأمر مرحلة الجنون.

(٧) هل يزيد استعداد النساء للإصابة بالجنون على استعداد الرجال؟

كلا. فعَلى الرغم من الحقيقة الثابتة، وهي أن النساء أكثر عاطفية من الرجال، إلا أن لجنة الأمراض العقلية بمدينة نيويورك قد جمعت إحصاءات تشمل عددًا من السكان يبلغ حوالَي ٩٠٠٠٠٠٠ شخص. وهذه الإحصاءات تُثبِت أن نسبة ضحايا الجنون في الرجال أكثر من النساء.

(٨) هل يُسبب الزهري الجنون؟

نعم، ومن بين كل عشرة مجانين يوجد واحد على الأقل أُصيب بالجنون نتيجة للزهري.

(٩) إلى أي حد تنتشر الأمراض العصبية؟

يقول الدكتور لويس كارنوس، الأستاذ المُساعد للأمراض العصبية بإحدى[١] الجامعات الأمريكية: «إن الإصابة بالأمراض العصبية أو الشذوذ هي أكثر الإصابات بعد البرد، كما أن ١١ في المائة من بقية الأمراض تنتج عن الاضطرابات العصبية.»

[١] مقال الدنيا الجديدة.

وقديمًا قال حكيمٌ روماني: «إن أمراض العقل أكثر عددًا وأخطر أثرًا من أمراض البدن.»

(١٠) في أي سن يزداد تعرُّض الإنسان للإصابة بالجنون؟

قلَّما يُصاب الأطفال دون سن الخامسة عشرة بالجنون، وتبدأ علامات الجنون في الظهور بين سن الخامسة عشرة والتاسعة عشرة، ولا تتَّضح تمام الوضوح إلا في الفترة بين سن العشرين والرابعة والعشرين، وبعد هذه السن يزداد تعرُّض الناس للإصابة بالجنون باطراد حتى سن الخمسين، وفي سن الخامسة والستين تبدأ الزيادة من جديد مصحوبةً بالاضطرابات العقلية نتيجةً لِكِبَر السن.

(١١) ما تأثير العلاقات الجنسية على الاضطرابات العصبية؟

إن الصراع الجنسي في حد ذاته لا يقود إلى الجنون، وإنما الذي يُسبب الجنون حقًّا هو الشعور بالجريمة والزلل عقب علاقة جنسية آثمة، والضرر الذي ينتج في هذه الحالة هو نوع من التفكير الذي يفرضه المرء على نفسه، فيركبه الهم والمرض ويتعذَّب.

وهناك كثيرٌ من الأفراد يُعانون صراعًا دائمًا بين «نزعاتهم» ومُثُلهم الأخلاقية، ويجمُل بهؤلاء أن يُحاولوا التوفيق بين الاثنين؛ لأن استمرار هذا الصراع يُساعد على نمو الاضطرابات العصبية، ولعل الزواج حلٌّ مثالي لهذه الحالة.

(١٢) هل الانتحار نوع من الجنون؟

نعم. هذا والانتحار يُعدُّ جريمة ضد المجتمع. وهذا هو السبب في أن البوليس يقبض على الشخص الذي يحاول الانتحار، ثم يُرسله إلى أحد المستشفيات العقلية أحيانًا.

(١٣) ما هي نسبة الإصابة بالأمراض العقلية؟

تدلُّ التقارير الموثوق بها على أنه يُولَد في الولايات المتحدة كل يوم ٧٠٠٠ طفل، ومن بين هؤلاء يتعرَّض ٢٧٠ للشذوذ العقلي؛ أي إن النسبة ١ إلى ٢٦. ويُقال كذلك إن عدد المرضى الذين يدخلون مستشفيات الأمراض العقلية في الولايات المتحدة كل عام يزيد على عدد الطلبة الذين يتخرَّجون من كلياتها.

(١٤) هل يمكن تجنُّب الاضطراب العصبي أو الجنون؟

نعم. هذا والمرء يحتاج لذلك إلى المَقدرة على أن يزن الحياة في دقة. وهناك عدد القواعد التي يمكن للفرد اتِّباعها ليتجنَّب الإصابة بالأمراض العقلية؛ أولها أنه يجب على المرء ألا يأخذ كل الأمور مأخذ الجِد، بل يجمُل به أن يُنمِّي في نفسه روح الفكاهة والمرح، وأن يتعلَّم كيف يضحك أكثر ممَّا يبكي أو يعبس. وقد دلَّت الاختبارات على أن الضحك

يُهدِّئ الأنسجة ويُريح العضلات، في حين أن العبوس يُحمِّل البدن جهدًا كبيرًا. وإذا تعقَّدت الأمور يجدُر بالمرء أن يعرض متاعبه على أصدقائه أو أقربائه، ويُناقش الأمر معهم؛ فإن التعبير عن الألم يُساعد على التغلب عليه، أما الكتمان والكَبْت فقد ينتهي بصدمةٍ عقلية. وإذا شعرتَ بالحاجة إلى الراحة فلا تتردَّد في أن تمنح بدنك ما يحتاج إليه. وإن مُمارستك إحدى الهوايات الرياضية لمن الأمور التي لا تقلُّ أهمية عن جني المال أو تحصيل المعرفة.

فإذا أنت أحطت نفسك بهذه العوامل المُشجِّعة، ففي وُسعك أن تتغلَّب على جميع المخاوف أو الأوهام الماضية، والمتاعب والآلام الحالية.

ملاحظات مُسافر في القطار الدولي عن نفسية الرجال والنساء

فتحتُ صفحات الجريدة كي أُخفي بها وجهي عن الكولونيل الذي جلس أمامي في ديوان عربة السكة الحديدية؛ لأنني كنت اصطدمت به في ردهة العربة عند دخولي، بينما جلس بجواره جنديٌّ أمريكي ومعه زوجته الإنجليزية وقد أمسك بيدها يُداعبها. كانت الفتاة جميلةً حوراء العينَين قاتمة الشعر، ولكنها كانت صامتة كالبكماء.

وتحرَّك القطار وقد خيَّم الصمت والسكون على المُسافرين، وانتشر الهدوء الإنجليزي في جو العربة، وهمست الفتاة شيئًا في أذن زوجها، فأجابها قائلًا: «نعم، في نهاية الردهة.»

وقامت الزوجة لقضاء حاجتها، ولم تكد تُغادر الديوان حتى نظر إلينا الفتى الأمريكي وقال مُتفكِّهًا: «إنها تضربني، ويمكنكم مشاهدة آثار الضرب على كتفي.»

فابتسمنا ابتساماتٍ فاترة، ولكنها كانت ابتسامات على أي حال، ولم يقنع الفتى من انصرافنا عن حديثه، فالتفت إلى الكولونيل وقال: «تبدو على وجهك آثار لفح الشمس يا سيدي.»

فابتسم الضابط، وأجابه قائلًا: «لم أُغادر كاراتشي في الهند إلا منذ يومَين اثنين، بعد إقامة ثماني سنوات.»

فظهرت علامات الدهشة على وجه الأمريكي؛ فإن ثماني سنوات تكفيه لجمع مليون دولار، وقال: «وهل كل هذه المدة في الجيش يا سيدي؟»

فأجابه الضابط: «لقد قضيت في خدمة الجيش سبعة وعشرين عامًا.»

فقال الجندي الأمريكي: «لو أنني قضيت هذه المدة في الجيش لطُبِّقت عليَّ جميع العقوبات العسكرية بما فيها الإعدام؛ فإنني أكره الجيش، وأمقت طابور التفتيش الذي

يعمل صباح كل سبت، ويُطلَب منَّا فيه أن نقصَّ شعرنا، ومن يُهمِل ذلك يُعاقَب بتكليفه بتنظيف أزرار ملابس كولونيل مثلك.»

فابتسم الكولونيل وقال: «أظن ذلك.»

وعادت الفتاة، فأجلسها الفتى إلى جانبه وقبَّلها، وقال: «هل تستطيعين أن تُخمِّني المدة التي قضاها الكولونيل بالجيش؟»

فهزَّت الفتاة رأسها سلبًا، وقد ظهرت على وجهها علامات الخوف والذعر.

واستأنف الجندي كلامه قائلًا: «سبعة وعشرون عامًا! على أي حال، فإن إنجلترا مكان يُستحبُّ العودة إليه. لقد ذهبت بالأمس إلى جزيرة «ويت»، وأُعجِبت بمُرتفَعاتها البيضاء، تعلوها طيور البحر وخلفها التلال.»

ثم تنفَّس الصُّعَداء وقال: «إني دائم الحنين إلى بروكلين؛ أرض الشمس المُشرِقة والأزهار.»

فقال الكولونيل في هدوء: «نعم؛ فالوطن هو الوطن.»

وساد الصمت إلى أن قطعه الأمريكي بعد فترة قائلًا: «ما رأيك في جيش الولايات المتحدة يا كولونيل؟»

فحبس الحاضرون أنفاسهم، وسعل الكولونيل قبل أن يقول: «كفء، كفء جدًّا.»

فأعطى الجندي زوجته قطعة من الشيكولاتة، وربَّت على يدها وقال: «إنكم معشر البريطانيين تكادون أن تُصيبوني بالخبل لكثرة صفوفكم وطوابيركم. فإذا أخذ الإنسان زوجته لتناوُل الشاي، اضطرَّ للوقوف في طابور انتظارًا لدوره في دخول المِصعد. على أي حال فهذا لا يعنيني في شيء؛ فإنني سأُغادر وزوجتي هذه البلاد.»

ثم التفت إلى الفتاة البكماء، وقبَّلها مرةً أخرى، ثم قال: «وها هي تُطلي أظافرها بطلاءٍ أمريكي، وتلبس جوارب من النايلون، ولها مُطلَق الحق في ذلك؛ إذ إنني لم أحصل عليها كزوجة إلا بعد منافسات، أليس كذلك يا حبيبتي؟»

فهمست الفتاة في أذنه شيئًا بصوت لا يُسمَع.

وقال الجندي الأمريكي مُفاخِرًا: «لقد كان يُنافسني في غرامها ضابطٌ بريطاني برتبة ميجور، ولكني فزتُ بها دونه.»

وقال الكولونيل: «وهل ستعود إلى عملك الأصلي عند عودتك للوطن؟»

فأجابه الجندي: «كلا يا سيدي؛ فقد اقتصدت سبعمائة جنيه مُودَعة البنك بِاسمي، وأنا أُجيد التصوير، وسأبدأ عملي بصعود السُّلم من درجاته السفلى كما فعلت أنت.»

شعرت بميل إلى الكولونيل، وأردت أن أُحيِّيه، وأن أُدخِل على نفسه السرور، وأن أُسرِّي عنه كما فعل الجندي الشاب، ولكن بأية وسيلة؟

أخذت أُجهِد نفسي بالتفكير في وسيلة أُعبِّر بها عن شعوري نحوه، وأخيرًا أقبلت عليه وقلت له: «هل تتكرَّم بتصفُّح جريدة المساء؟»

فحدَّق الكولونيل في وجهي قليلًا قبل أن يبتسم ويُجيب: «أشكرك كثيرًا.»

وعاد الجندي الأمريكي يمرح قائلًا: «أودُّ لو رأيتم فتاتي وقد ارتدت ثوبًا برتقاليًّا، وعقصت شعرها!»

واتَّكأتُ في مقعدي مُستريحًا؛ فقد أيقنت أن الكولونيل قد أدرك ما يجول بنفسي، وعلِم ما أُكنُّه نحوه من عطف وولاء.

نفسية التعب

قالت «ماري بينون رامي» مؤلِّفة كتاب «كيف تنجو من التعب؟» من مجلة «المرأة اليوم»: «يكاد كل إنسان يشعر بالتعب أحيانًا، ولكن بعضهم لا يُفارقه التعب أبدًا. ولو عرف الناس حقيقة التعب، وساروا على ما تقتضيه؛ لقلَّ تعبهم. وأكثرنا تُساوِره أوهامٌ باطلة عن خير الوسائل التي تُنجِّيه من التعب؛ فلماذا لا ننتفع بالحقائق الثابتة حتى نزداد نشاطًا وسعادة؟»

التعب المُزمِن غير ناشئ عن جهد البدن أو العقل؛ ذلك أنه مهما كان التعب الناشئ عن جهد البدن شديدًا، فنوم ليلة كفيلٌ بأن يُزيله. والتعب لا يتراكم بعضه على بعض، والرجل منَّا إذا كان يعمل قاعدًا، وكان سليمًا مُعافًى؛ فمردُّ تعبه كله إلى أسبابٍ غير جهد البدن الذي يبذله في عمله. والواقع أن السآمة الناشئة عن عمل يستغرق معظم طاقتنا هو وحده أعظم أسباب التعب.

إن السبب الحقيقي لحدوث التعب المُزمِن إنما هو سببٌ نفسي؛ فليس العمل هو الذي يجلب لنا التعب، بل توتُّر الأعصاب الذي يستبدُّ بنا في ساعة العمل، كالهمِّ والتردد والسآمة والشعور بالضعة والعجلة والخوالج الجنسية المعقَّدة.

وينبغي العلم بأن الراحة ليست علاجًا للتعب.

إذ إنه مهما طالت الراحة فلن تشفي الرجل الذي يعمل قاعدًا من تعبه، أو من أي تعب مُزمِن آخر، بل العلاج الشافي هو صرف الهمة إلى عملٍ آخر، إلى عمل يُخالفه أو عملٍ أشق منه، أو إلى رياضةٍ أحب إلى النفس، أو إلى الاستمتاع بمُخالطة الناس. أما التسكُّع فلا يأتي بخير ولا تغيير، ولا يصرف العقل عمَّا يُخامِره، ولا يُزوِّده بشيءٍ جديد يشغله.

والبدن لا يفتقر إلى الراحة، والعقل يفتقر إلى التغيير، وما من شيء يُفجِّر ينابيع النشاط سوى شاغل يستأثر باهتمام المرء.

كذلك ينبغي العلم أن اضطراب الغُدد الصُّم قلَّ أن يكون سببًا للتعب.

فإن نقص إفراز الغُدة الدرقية والغُدة الكظرية يجعل المرء أكثر استهدافًا للتعب، ولكن الطبيعة زوَّدت معظم البشر بما يردُّ عنهم عاديَة هذا النقص. وليس في بدن الإنسان طائفةٌ خاصةٌ مُمتازة من الغُدد وظيفتها أن تملأ بدنه نشاطًا، وليست الغُدد أكثر بثًّا للنشاط من القلب والرئتَين. والمرء إذا كانت في بدنه غُددٌ مُفرِطة النشاط، فهو عُرضة للإعياء من فرط ثورة العاطفة. وهناك شيءٌ أعظم من الهرمونات يُحرِّك تلك القوة البشرية المُتدفقة، ألا وهو الشغف بشيء في الحياة.

وقد ثبت أن المِلح يكسر حدَّة تعب البدن.

إن العمل الشاق والحرارة المُفرِطة تجعل البدن يعرق عرقًا غزيرًا يخرج معه الملح، وقلة الملح في البدن تُورِث التعب، واسترداد ما يفقده منه يُخفِّف التعب؛ وإذن فلا بد لك من أن تعرف مقدار الملح الذي ينبغي أن تسترده.

أما كلال الأعصاب فليس بناشئ عن فرط العمل.

ويؤيِّد الثقات ما يقوله الدكتور أوستن ريجز: «العمل الشاق وإن كثُر، وسواء كان عمل العقل أو عمل البدن، لم يُفضِ قط إلى إصابة أحد بكلال الأعصاب.» ويقول الدكتور إيراوايل: «لا أعرف شيئًا يُسمَّى كلالًا يُورِثه فرط العمل.»

هذا والتعب ليس ضربة لازم على الشيخوخة؛ إذ تتوقَّف وَفْرة النشاط في زمن الشيخوخة على كثرة الأشياء التي لا يزال المرء مشغوفًا بها في حياته وعمله، وتوقُّف النشاط على قوة البدن قليل، وأكبر توقُّفه على توقُّد العاطفة. وقد أتمَّ كثيرٌ من العظماء في زمن شيخوختهم أعمالًا تُضارِع ما أتمُّوه في أيام شبابهم؛ فالشغف هو الذي يُفجِّر القوة الكامنة في النفوس.

أما النشاط فهو أعظم شأنًا من الذكاء في إدراك النجاح.

ذلك أن النشاط هو المُحرِّك الذي يبعث كل ضرب من ضروب الذكاء التي ينطوي عليها المرء، وهو الصفة التي يشترك في حيازتها جميع الناجحين. يقول إمرسون: «إن النشاط هو سر كل نجاح.» وعنده أنه أجلُّ شأنًا من الحكمة في بلوغ النجاح، ويؤيِّده في ذلك علماء النفس.

علاج التعب أمرٌ يسير.

ينقلب المرء بين عشية وضحاها من رجل يؤدُّه الإعياء الثقيل الذي يسري في عروقه كالرصاص المصهور، فإذا هو رجل يتفجَّر قوةً ونشاطًا. وقد أقام علماء الطب النفسي الدليل على هذا.

وأكثر الناس الذين يمسُّهم التعب مسًّا خفيفًا أو ثقيلًا كانوا في مندوحة عن التعب، فما كان عليهم إلا أن يُراعوا هذه الحقائق المذكورة، فإذا هم بمَنجاة من غائلة التعب، وإذا أيسر شيء وأسرعه وأعجبه أن يرَوا ينابيع النشاط تتفجَّر مُتدفقة بين جوانحهم.

التعب وفلسفة النوم

وقد تعدَّدت النظريات والمذاهب في سر النوم وطبيعته، ولا خلاف في أنه ليس من بينها مذهبٌ صحيح في جملته دون المذاهب الأخرى. ومن رأيي أن تُراعى في تعليل سر النوم جميع هذه المذاهب معًا، وهي تتلخَّص فيما يلي:

(١) نظرية الدورة الدموية: وهي أننا نُحسُّ دبيب النوم في أجفاننا بسبب افتقار المخ إلى الدم.

(٢) النظرية العصبية: وهي أن النوم يحدث من انكماش في الزوائد الشجرية المُمتدة في نهاية الخلايا العصبية للاتصال بالزوائد الأخرى المُماثلة لها بتأثير التعب الذي يحلُّ بها من العمل والتفكير، وبانقطاع الصلة فترة بين هذه الزوائد يتسلَّل النوم إلى مَعاقد الأجفان.

(٣) النظرية الكيمائية أو نفاد الأكسجين: وهي أن الأعمال التي يؤدِّيها المرء طيلة النهار تحدُّ من قدرته على استيعاب الأكسجين، وأن النوم يأتي بسبب هذا الاختناق الجزئي. ويندمج في هذه النظرية أيضًا المذهب القائل «إن إفرازات الغُدد الصمَّاء تُساعد على النوم»، ونظرية التسمم، وهي أن الحمض اللبني وغيره من السموم تتجمَّع خلال ساعات النهار، فتُخدِّر المخ تخديرًا جزئيًّا، وتدفعه إلى النوم.

(٤) النظرية النفسية البيولوجية: وهي أن النوم غريزة ودعوة إلى دور الراحة عند الحيوانات، وأن الغرض منع الاضمحلال والفناء. ويحدث النوم بمجرد التراخي التام الذي يُعاجل العضلات. وهو رأي تؤيِّده المُشاهَدات؛ إذ يأتي النوم عقب التراخي عند الإنسان والحيوان على السواء.

(٥) النظرية المتَّصِلة بالتحليل النفسي: وهي أن النوم رِدَّة إلى حالة الطفولة. ومن المسلَّم به أن الوليد الجديد ينام أربعًا وعشرين ساعة تقريبًا، ولا يُوقِظه سوى طلب الغذاء. ويريد أصحاب مذهب فرويد أن يحملونا على الاعتقاد بأن النوم محاولة إلى الارتداد والتراجع عن الحقيقة، والعودة إلى حالة الطفل في مهده.[١]

[١] العقل الباطن، تأليف سادلر، وترجمة ع. ح.

مكافحة الشيخوخة والموت

يقول ولدمار كيمبفرت في مجلة «فومرو»: «لم تقِف محاولات الكشف عن إكسير الحياة بانقضاء العصور الوسطى أو بظهور العلم التجريبي، وما زال دكتور فاوست حيًّا يُرزَق، وقد يكون اليوم أحد خريجي جامعة من الجامعات، أو عضوًا في جمعية من الجمعيات العلمية يُحاول فيها عن الفيتامينات والهرمونات والبكتريا والأمصال.»

وليس ذِكر فاوست في هذا المقام من قبيل التفكهة؛ فإن قُرناءه المعاصرين يفُوقونه كثيرًا في إلمامهم بوظائف الأعضاء وأسباب المرض وخواص العقاقير، ومع ذلك فما الغرض من معرفتهم بالجراثيم والبنسلين والإستروبتومسين وبالملاريا والسُّل والتيفوس والغذاء والهضم، إن لم يكن لإبعاد شبح الموت عن الإنسان؟

والواقع أن فاوست الحديث فاق سلفه نجاحًا في مُكافحة أمراض العدوى، وإن لم يفُقْه فيما يتعلَّق بأمراض العجز التي تُصيب — على الخصوص — الطاعنين في السن. لماذا تتصلَّب الشرايين ويخفق القلب والكُلْيتان في أداء عملهما؟ ما هو سر السرطان؟ لماذا تتحلَّل الخلايا البشرية فجأة من الرقابة التي تجعلها تُنتِج الأعيُن والأنوف والأفمام والأرجُل والأذرع بالأحجام العادية وتضعها في أماكنها الصحيحة، فتتضخَّم بدلًا من ذلك على هيئة كُتَل لا ضابط لها، تسطو على الجسم وتخنق أعضاءه الحيوية؟ لم نصِل بعدُ إلى جواب، غير أن السعي مُتواصِل للوصول إلى سر الحياة؛ إلى الإكسير الذي يحُول دون تطرُّق الفساد والانحلال إلى جسم الإنسان، ويجعل الرجال والنساء ينتشون في سن المائة كما كانوا يفعلون حين كانوا أصحَّاء البِنية في سن الواحدة والعشرين.

وقد كان دكتور ألكسندر أ. بوجومولتس الطبيب السوفيتي، في طليعة المُعارِضين لقبول الموت حتى في سن المائة. وقد شاعت عن ذلك العلَّامة الشائعات، ومضى أدعياء العلم وأنصاف المُتعلِّمين وأبواق الدعاة من أعداء بلاده ينسبون إليه المعجزات، ويختلقون

الأنباء، ويدسُّون الأكاذيب؛ ليُلطِّخوا صفحة جهاد علمية رائعة، وتجارب مُضنِية لحمتها شجاعة طويلة الأمد.

فيكتب بعضهم أن بوجومولتس كشف عن مصلٍ سحري يُعطى لاتِّقاء كل الأمراض حتى السرطان، فيأتي بأعجب النتائج، يقضي على السُّل وأمراض الشرايين، بل حتى على السرطان، وذلك النوع الرهيب من الجنون المعروف بِاسم الشيزوفرينيا (ازدواج الشخصية)، ويجعل النساء تحمل في سن التسعين، ويُتيح لكل من يتعاطاه بلوغ سن الخمسين بعد المائة.

ولم يكن بوجومولتس مسئولًا عن هذه الاختلافات؛ فقد كان عالمًا واقعيَّ النظرة، لا يُمضي جلَّ حياته، كما يفعل الكثيرون، في الأحلام. كان بحَّاثة قديرًا، أمضى من حياته ثلاثين عامًا في درس مشكلة إطالة العمر وعلاجها، بل لم تكن نظرياته أو أساليبه حديثة، وما كان لديه سوى تراثه العلمي العملي الذي شيَّد عليه فكرته. وهي فكرة إن لم تنفع في إطالة أعمارنا إلى الأبد، فهي على الأقل ستُساعد الطب، وتُخفِّف من آلام البشر.

ذهب بوجومولتس، كبعض أسلافه في ميدان الطب، يتساءل أسئلةً قديمة العهد: «لماذا تعيش الأشجار لتبلغ ٢٠٠٠ سنة من العمر؟ ولماذا نتجعَّد ونتقلَّص نحن الآدميين كلما تقدَّمت بنا السنون؟» ولطالما تغيَّرت الأجوبة عن أسئلته بتطوُّر علم الطب؛ فتارة يُعزى السبب إلى الدم؛ ومن ثَم أُجريَت عمليات نقل الدم. وتارةً يُقال بالعودة إلى غذاء المُتوحِّشين السهل؛ لِما في أساليب الطهي الحديثة المعقَّدة من إجهاد للقناة الهضمية. وعندما كُشِف عن الفيتامينات وعلاقتها بأمراض النقص، بدأنا نتردَّد على الأطباء لتناوُل أنواع لا تُحصى منها، بين «أ» و«ب» إلى «ك» و«ل». وأعقبتها الهرمونات، هرمونات الجنس على وجه الخصوص، ودعوى فورونوف وستيناخ أنهما سيردَّان إلى الطاعنين في السن حيوية الشباب ولو إلى حين، إلا أن إكسير الحياة ظلَّ مع ذلك بعيدًا.

إن العجز ليس أمرًا يسيرًا. ويُشير بوجومولتس نفسه إلى ما يُخالِط هذه العملية من عوامل مُتعددة، منها الغذاء والبيئة والمعيشة الصحية والتعرض للعدوى، وتأثير القُوى الكيماوية والكهربائية التي لم يُعرَف عنها بعدُ سوى القليل. ولم يستولِ القنوط على العالم السوفيتي أمام صعوبة الوصول إلى غايته وسط هذا الخليط الخِضَم؛ ومن ثَم توصَّل إلى مَصله عن طريق الأنسجة الوصلة. وكانت الأنسجة الوصلة تُعدُّ فيما مضى مجرد مادة بنائية تقوم مقام الأسمنت في تماسُك العظام والأعضاء والأعصاب بعضها بالبعض. أما بوجومولتس فاستشفَّ فيها ما هو أكثر من الأسمنت؛ فهي إن لم تكن

سليمة على خير حال سبَّبت الانحطاط والوهن، وكانت النتيجة ما أطلق عليه الموت البادر في سن السبعين أو الثمانين أو المائة.

وقد استلهم بوجومولتس أبحاث بورديت ومتشنيكوف في الإفادة من نوع معيَّن من الأمصال لتنشيط الأنسجة والخلايا ومُضاعفة قدرتها على المُقاومة، وهي الأبحاث التي توقَّفت لعجز الأخيرَين عن الاهتداء إلى تعيين المقادير الصحيحة لتلك الأمصال.

هنا تقدَّم بوجومولتس، ومضى يعمل ويبحث في جلَدٍ وصبر مُخترِعًا أساليب فنية حديثة، ووسائل جديدة للتجربة والكشف، حتى عرف المقادير المناسبة الصالحة. وبدأ بوجومولتس يحقن أمصال ACS في سنة ١٩١٥، غير مُدَّعٍ أنها سوف تأتي بالعجائب والمعجزات. وقد نجح المَصل في وقف الأورام في حيوانات التجارب، وهو أمرٌ لم يتحقَّق بعدُ في المرضى الآدميين؛ ممَّا حدا بالعالم إلى القول بإزالة الأورام الخبيثة حال ظهورها بمِبضع الجرَّاح. ويؤكِّد بوجومولتس أن مَصله غالبًا ما يمنع الورم في مثل هذه الحالة من العودة. وهذا في حد ذاته حدثٌ بالغ الأثر في عالم الطب. كما أن المَصل نجح في مُقاومة بعض أنواع العدوى، وساعَد على شفاء بعض المرضى بدور الأمراض العقلية. أما خير نتائجه فكانت في علاج الجروح وكسور العظام التي لا تلتئم، وفي الأمراض المُعدية.

وكثيرًا ما كان بوجومولتس يبدأ بحقن مَصله منذ الولادة، بل قبل الولادة للأم الحامل (على سبيل الاحتياط ضد العدوى)، وذلك بعد أن نجح المَصل، وأصبح ساطع الاسم بين فتوحات العلم الحديث. وما كان بوجومولتس يقتصر على مَصله؛ فقد كان يُشير بالرياضة والمعيشة الصحية والطعام الجيد والدأب على النشاط، ويُصرُّ على ضرورة ذلك كأي طبيب أمين رشيد.

واليوم يُواصِل علماء أوروبا وأمريكا تجربة مَصل لمعرفة تأثيره على مختلف الأمراض والعِلل كالسرطان والشيزوفرينيا. ولن تُعرَف نتيجة تلك الأبحاث قبل مُضِي بعض الوقت، وحتى تُحلَّل وتُصنَّف وتُلخَّص. وإلى أن يصدُر الحكم على قيمة هذا الكشف العلمي، يمكن التصريح دون مُغالاة بأن كشف بوجومولتس مُستنِد إلى أسسٍ واقعية؛ فهو وإن لم يكن سيُمكِّننا من تطارُح الغرام في سن المائة، كما كنَّا نفعل في عنفوان الشباب وميعة الصِّبا، فإنه سيكون أداةً طيِّبة الأثر يستعين بها الطبيب على قهر المرض. هذا إلى أنه استرعى الأنظار إلى أهمية الأنسجة الوصلية «الفصول».

إن جهود بورديت ومتشنيكوف ثم أخيرًا بوجومولتس، وضعتنا وجهًا لوجه أمام مشكلة العجز والموت البادر. ونحن في غضون عصرنا العلمي هذا نعدُّ الجسم آلةً حية،

لكنها آلةٌ ترتكز إلى الكيمياء ارتكازَها إلى العضلات والمفاصل، فلِمَ لا تُفكَّك هذه الآلة لِقطعها الأولية لنرى كيف شُيِّدت؟ ولماذا تتآكل بعض قِطعها؟ لقد فعل المُشرِّحون والأطباء ذلك، وأصبح من غير المُستبعَد أن نتمكَّن بعد قرن أو أقل من إيجاد وسيلة الإبدال من عضوٍ مُعتلٍّ عضوًا آخر صحيحًا مُحتفَظًا به لمثل ذلك الغرض في ثلاجةٍ كهربائية. وقد وُفِّق العلم إلى استبدال قرنية العين، فأصبح في مقدور الأعمى أن يُبصِر ثانية. ونحن ننقل الدم من جسمٍ صحيح لآخر مريض، وغالبًا ما يؤدِّي ذلك إلى إنقاذ الحياة.

إن جوهر مشكلة إطالة العمر راجع إلى تكويننا؛ فنحن مصنوعون من خلايا تتوالد في الظروف المناسبة إلى ما لا نهاية، وفي الإمكان مُشاهدة كيفية توالُد أبسط أنواع الخلايا البروتوبلازمية (البروتوزوان) تحت المِجهر؛ فالخلية تنقسم خليتَين، وكلٌّ من الاثنتَين الجديدتين إلى اثنتَين أخريَين، وتستمرُّ عملية الانقسام إلى الأبد. من أجل هذا قيل: «إن الخلية خالدة.» وقد تتبَّع الأستاذ ل. ل. وودرف انقسام كائن صغير يُدعى باراميشم، ظلَّ يتوالد خلال ٩٠٠٠ جيل؛ أي ما يُعادِل ٢٥٠٠٠٠ سنة في حياة الإنسان. وإذا تجمَّعت بلايين الأجسام والخلايا الدقيقة فيما يُسمِّيه العلماء «النطاق المُغلَق»، أو بمعنًى آخر، في كل كائن عضوي؛ أصبح ذلك الحشد طفلًا، وسمَّاه أبواه «جون» أو «نوبل». وتنقضي الأيام حتى تُفاجئك بنبأٍ مُثير؛ فقد قضى جون في منزله بالغًا السادسة والثمانين بعد مرض لم يُمهِله طويلًا ... إلخ. ما الذي حدث أصلًا؟ لماذا تُوفِّي هذا الإنسان وهو مجموعة من الخلايا الحية الخالدة؟ أقصى ما يضعه العلم تحت تصرُّفنا من تفسيراتٍ أن جون بدأ يموت في سن الطفولة، وأنه كان طوال حياته يتخلَّص ممَّا لا فائدة منه من الخلايا على صورة نفايات وفضلات، وأنه إذا كان استطاع بلوغ سن السادسة والثمانين، فذلك لأنه كان أسرع في صنع الخلايا منه في التخلص منها. وعندما أعلن الطبيب وفاة جون كان مُصيبًا قانونًا مُخطئًا علميًّا؛ فالواقع أن بعض من أُعلِنت وفاتهم في الاتحاد السوفيتي أمكن إعادتهم إلى الحياة، وجون لم يمُت عندما توقَّف تنفُّسه وضربات قلبه. إن عددًا من أعضائه كان سليمًا، وكان يمكنه مُواصلة تأدية وظائفه سنواتٍ طويلةً أُخريات، وقد ظلَّت خلايا بعض تلك الأعضاء حية حتى بعد أن وقَّع الطبيب على شهادة الوفاة. فهو لم يمُت إلا عند موت الخلية الأخيرة في جثته؛ فإذا أمكنَّا معرفة ما يحدث حين تموت الخلية أمكننا معرفة ماهية الحياة، وأمكننا إطالتها. وهذا سر انكباب البيولوجيين على دراسة الموت انكبابَهم على معرفة الحياة، وهم يسعَون للكشف عن سبب موت جون في حين تظل خلاياه حية.

وعمليًّتا العجز والموت كيماويتان، والتفاعلات الكيماوية ممَّا يمكن التعجيل به أو إبطاؤه بتغيير درجة الحرارة. وقد أُطيل عمر فئران التجارب حين أُعطِيت أقل الطعام لحفظها على قيد الحياة. فإن الطعام كيماوي، وتناوُل الفئران منه أقل ممَّا تستهلك أبطأ من موتها وأرجأه. وقد أمكن إطالة عمر بعض الحشرات ٩٠ في المائة بخفض درجة حرارة تربيتها. وقدَّر بعض العلماء أنه لو أمكن الاحتفاظ بدرجة حرارة الإنسان عند ٣٢,٨ درجة فهرنيت — وهو أمرٌ مستحيل — لطالت حياة الإنسان ١٩٠٠ سنة، ولكن بأي ثمن؟ أليس معناه زوال معاني الحياة والنشاط والعيش في شبه غيبوبة يقظة، مع فقدان قدر كبير من الإدراك والإحساس، وعدم التنعم بمباهج الكون والطبيعة؟ أيكون في حياة الألف عام إذن ما يُبرِّر عناء البحث عن إكسير الحياة؟

وحين نُشاهد استحالة مُعالجة الجسم البشري، كما لو كان سيارةً يمكننا ابتياع قِطع غيارها، واستحالة الحصول على الحياة إلى ما لا نهاية بدون تبريد أجسامنا، واستحالة الاستمتاع بالموسيقى والانفعالات الإنسانية العظيمة؛ نُدرِك قيمة الحاجة إلى الموت. ونحن لو افترضنا إمكان تجنُّب النهاية إلى الأبد، لانتفت ضرورة التطور، ولم يبقَ سوى الركون، ولن تتطوَّر الكائنات الدنيا إلى أعلى منها؛ ذلك لأن التطور دون موت ممَّا لا يخطر ببال.

إليك حكايةً يرويها العلم: منذ بضعة بلايين سنة دبَّ النشاط في البروتوبلازما. والبروتوبلازما هي أدنى صور الحياة، منها تطوَّرت النباتات والأسماك والزواحف والطيور والثدييات، ثم أخيرًا الإنسان، وقد ظهرت آلاف، بل ربما ملايين، الأنواع وانقرضت. وقد اعتاد العلماء أن يتجنَّبوا الخوض في ذِكر الغرض من هذه العملية المُتواصلة، على أنه لا بد من غرض لاستمرار التطور من أدنى إلى أعلى على نحوٍ أبدي. والإنسان هو قطعًا أسمى صور الحياة المُنتَجة حتى هذه اللحظة، وهو إنسان لا بسبب تكوينه الجسماني، بل بسبب عقله وموهبة إدراكه ووعيه ما يحدث له، وقدرته المحدودة على التنبؤ والاستنتاج، وإمكانه الفكري أن يُعبِّر عن خواطره شعرًا ورسمًا وموسيقى. وهذا أهم ما يُفرِّق الإنسان عن شبيهه بين القردة، وهذا التطور يُفسِّر كثيرًا من أغراض الحياة والموت.

إن مخَّ الإنسان مَثلٌ بارز على أن التطور في الطبيعة دافعٌ مستمر. وقد تكوَّن المخ، بعد طول تغيير وتعديل وتحوير، من خليطٍ كبير من أمخاخ أسلافنا الحيوانيين، فلدينا فيه من الطيور والأسماك والأسود؛ ولهذا نحن نتعارك كما تتعارك، ونُحب كما تُحب، ونسلك كالحيوان.

ولم يكتمل التطور بعد، وكيف يكتمل وقد جاء وذهب ثلاثون أو أربعون نوعًا من الإنسان خلال النصف مليون سنة الأخيرة؟ وهذا ثابت من الحفريات، فهناك إنسان بكين، إنسان جافا، إنسان روديسيا، إنسان هايدلبرج.

كل هؤلاء كانوا يومًا سادة الغابة. أين هم الآن؟ ما الذي يدعونا إلى الظن بأننا الكلمة الأخيرة في عالم التطور؟

إن معيشة ١٠٠ أو ١٥٠ سنة لا تُوقِف دولاب التطور أو تُعطِّله. أما الخلود فمعناه القبر الحي؛ لأننا حينئذٍ سنتناول مصائرنا البيولوجية بأيدينا، وفي هذا تدهوُر إلى الأعماق. لقد لفظت الطبيعة إنسان بكين وروديسيا وغيرهما لتكشف عن اتجاهٍ جليل. إنها تسعى لخلق كائن أقرب إلى الملاك، وأبعد عن النمر قليلًا، وعن ماضي الطير الهزيل.

فلنعِش حتى المائة أو المائة والخمسين. أما الخلود إلى ما لا نهاية فلننصرف عن التفكير فيه.

ألم يكن بوجومولتس واقعيًّا، فلم يُنفِق فيه وقته عبثًا؟!

سر الحياة

إن اكتشاف الطاقة الذرية إن هو إلا بداءةٌ بسيطة!

فإن الذرَّة تحتوي على أشياء أخرى كثيرة غير الطاقة، إنها تنطوي على سر الطبيعة، وهذا السر هو الذي جعل العلماء همَّهم أن يكشفوه، ويُزيحوا عنه الستر الذي طالما أُسدِل عليه.

لماذا يخرج الكتكوت من البيضة، والشجرة من البذرة؟

لماذا ينقسم الميكروب اثنَين فأربعة فثمانية، إلى ما شاء الله؟

كيف تتحوَّل شريحة اللحم التي نأكلها، أو كوب اللبن الذي نشربه، إلى أنسجةٍ حيَّة تمدُّنا بالطاقة اللازمة؟ بل أبسط من هذا كله: كيف يلتئم الجرح؟

إن هذه الأسئلة وكثيرًا مِثلها ما فتئتْ تُلحُّ على عقول العلماء تطلب جوابًا شافيًا، فهل آن الأوان أخيرًا لكي نُجيب؟ لقد ظلَّ العلماء قرونًا طويلة يتحسَّسون طريقهم وسط صعوبات بالغة المشقَّة. ومتى أُتيح لهم أن يُجيبوا عن هذه الأسئلة، فإن انقلابًا سيُصيب العالم كله؛ انقلاب هو أبلغ مغزًى وأعمق مدًى من الدهشة التي خلَّفها انفجار قنبلتَين في هيروشيما ونجازاكي. فإن نظرتنا إلى النجوم والكون وإلى الحياة وإلى الإنسان وإلى القيم والمعاني، كل ذلك كفيلٌ أن يتأثَّر تأثرًا شديدًا بما تتمخَّض عنه معامل العلماء من حقائق.

ما هي الحياة؟ لا أستطيع أن أُجيبك عن ذلك إجابةً دقيقةً واضحة، وكل ما أستطيعه هو أن أذكُر لك أهم خصائص الحياة؛ فأهم ما يتميَّز به عالم الحياة هو أن النظام فيه يتمخَّض دائمًا عن نظامٍ مِثله؛ فالبيضة إن هي إلا جسمٌ منظَّم مرتَّب، فإذا ما فقست أنتجت جسمًا آخر غاية في النظام والترتيب وهو الفرخ؛ فالحياة إذن نظام من نظام وإلى نظام.

وليس كذلك عالم الجماد؛ فهنا يتحلَّل النظام دائمًا إلى فوضى لا معنًى لها. وإن أجسامنا وأجسام الكائنات الحية كلها تتألَّف من الذرَّات التي تتكوَّن منها الشمس والنجوم وكل شيء على أرضنا هذه، فهل من وسيلة نستطيع أن نعبُر بها الهوَّة التي تفصل عالم الحياة من عالم الجماد؟ قد يبدو لك ذلك أمرًا بسيطًا، ولكن صدِّقني لا زال العلماء في حيرة من أمرهم.

إذا سلَّطت الأشعة السينية مدةً كافية على بيض ذباب الفاكهة، فإن الذباب الجديد الذي يفقس عنه البيض يخرج آية في الشذوذ، فمنه ما هو أحمر العينَين، ومنه ما ليست له أجنحة، أو لا شعر له على الإطلاق. وقد فسَّر العلامة أروين شرويدنجر، الحائز على جائزة نوبل في الطبيعة، فسَّر ذلك بأن «الجينات»، وهي العوامل المسئولة عن تحديد صفات النسل داخل الخلية، إن هي إلا بلوراتٌ معقَّدة التركيب قادرة على إعادة نفسها! وهي تتأثَّر كما تتأثَّر أية مادة كيميائية أخرى بتغيُّر الظروف الكيميائية أو الطبيعية المُحيطة بها، كالحرارة وكالأشعة السينية. وإذ يتغيَّر تركيب الجينات يتغيَّر تبعًا لذلك ما تُورِثه للنسل الجديد من صفات؛ فتحمرُّ العيون ويتساقط الشعر وتقع الأجنحة، ولكن أين لهذه الجينات القوة التي تجعلها تُحدِّد هل كان النتاج طائرًا أو حِصانًا أو آدميًّا؟ وما الذي يجعل الكروموزومات، وهي اللفائف المحتوية على الجينات في الخلية، ما الذي يجعلها تنقسم وتُوزِّع نفسها بشكلٍ هندسيٍّ بديع، حتى يرث الولد بعض صفاته عن أبيه وبعضها عن أمه؟ أي عقل يكمن وراء هذا النظام المُحكَم ويُحرِّكه؟!

إن وحدة تركيب المادة الحية في الخلية (البروتوبلازم) هي الأحماض الأينية، فهذه هي أحجار البناء التي تتكوَّن منها البروتينات مهما يكن نوعها. وكما أن دنيا الموسيقى، بدرجاتها المختلفة من سيمفونيات وأوبرات إلى أغانٍ وأراجيز صغيرة، كلها مَبنية من ثلاثين نغمة لا غير، كذلك الحياة وحدتها الحامض الأيني.

ولعل أبسط ما نبدأ به إذ أردنا أن نخلق الحياة في أنابيب الاختبار وقناتَي التقطير، لعل أبسط ما نبدأ به هو «الفيرس».

والفيرس هو نوع من الأجسام لا زال أمر حياته مجال شك كبير ونقاش بين العلماء لا يفتُر، وهو سبب كثير من الأمراض المُنتشرة كالأنفلونزا والحصبة وشلل الأطفال، ويكفي وضع قليل منه على ورقة من ورق الطباق لكي يقضي عليه كله.

فإذا أفلحنا في تمثيل الفيرس حُقَّ لنا أن نُحاول خلق خلية بسيطة، وعند هذا الحد يجدُر بنا أن نقِف هُنيهةً ونترك الأمر في يد علماء الوراثة والتطور؛ فهم أجدر أن يتولَّوا هذا المخلوق الجديد برعايتهم وتوجيههم ليجعلوا منه كائنًا حيًّا راقيًا.

لقد كانت الصبغة الغالبة على البحث والتفكير العلمي حتى عهد قريب هي الصبغة التحليلية، وشُغِل العلماء بفصل المخاليط إلى مركبات، وتحليل المركبات إلى عناصرها، وتفكيك العناصر إلى ذرَّاتها. وانتهى المطاف بهم إلى الذرَّة، فهاجَموها وحطَّموها، وانطلقت الإلكترونات من أفلاكها، والبرونات من أوكارها، وكان ما كان.

إلا أن بعضًا من العلماء أخذوا يُولُون الطريقة التمثيلية (التركيبية) جانبًا من تفكيرهم وبحثهم، وبَهَرتهم النتائج على قلَّتها، وأصبح تمثيل المواد الغذائية والوقود والأدوية أمرًا سهل المنال.

وحلَّق بعضهم إلى آفاقٍ أعلى، يريدون تمثيل الحياة نفسها؛ تمثيل أنفسهم! تُرى هل سيُفلحون؟ علمُ ذلك في طوايا الغد القريب.

الأبناء الذين يقتلون آباءهم

يقول فسور مالينوفسكي، أستاذ علم الأجناس البشرية بجامعة لندن: يحسُن قبل أن نعرض رأي علماء الاجتماع[1] أن نُحدِّثك عن نظريةٍ أخرى مشهورة، هي نظرية العالم النفساني فرويد عن عقدة «أوديب»، وقد استعار فرويد اسم هذه العقدة من القصة الإغريقية المعروفة، وهي قصة أوديب الملك التي مثَّلها جورج أبيض أكثر من مرة على مسرح الأوبرا. وخلاصة القصة أن ابن الملك أوديب نشأ لا يعرف أباه، وعاد وهو شابٌّ فقتل الملك، وتزوَّج امرأته، أي أمه، ثم انكشف له الأمر؛ فكانت مأساة.

واتخذ فرويد من هذه الأسطورة أو التمثيلية رمزًا للعلاقات الإنسانية بين الأبناء وآبائهم وأمهاتهم، فقال «إن الأطفال الذكور يُحبُّون أمهاتهم ويكرهون آباءهم»، وعنده أن هذا الحب أكثر من مجرد العاطفة المعروفة؛ فهو حبٌّ جنسي، على أن مذهب فرويد يقوم على جعل الغريزة الجنسية الدافع لجميع أنواع السلوك الإنساني، وعلى أن هذه الغريزة لا تظهر عند المُراهقة، بل هي قائمة في الطفل منذ الولادة.

ويحسُن أيضًا أن نطَّلع على رأي فرويد في شيء من التفصيل[2] فيما يختصُّ بالأصل الذي يدفع الأبناء إلى قتل الأب. يقول فرويد: «إن الإخوة في الحياة البدائية كانوا يجتمعون

[1] الدنيا الجديدة.

[2] الدنيا الجديدة.

في شكل عصبة ثائرة، تُحرِّكهم ضد أبيهم عواطفُ مُتناقضة فيما بينها، وإن هذه العواطف المُتناقضة هي سر الاضطرابات العصبية في نفوس الأبناء منذ الصِّغر؛ فهم يكرهون الأب لأنه يقف بشدة في سبيل رغباتهم ونزعاتهم إلى السلطان ومطالبهم الجنسية، ولكنهم في الوقت الذي يكرهونه فيه يُحبونه ويُقدِّرونه. وبعد أن يقضوا على سلطته، ويُرضُوا شهوة البُغض الجامحة، ويرفعوا أنفسهم إلى منزلته بحيث يشعرون بالمساواة بينهم وبينه؛ ينقلبون إلى مظاهر تذهب في العطف والحنان إلى أبعد مداه، والندم أحد هذه المظاهر، ثم يُبجِّلونه بعد موته، ويعترفون بقدره ومنزلته أكثر ممَّا كان على قيد الحياة. وهذا كله ممَّا نُشاهده اليوم في مشاعر الناس. ثم إن ما كان الأب يُحرِّمه على أبنائه في حياته، وبحكم حياته يُحرِّمه الأبناء أيضًا على أبنائهم بدافع الطاعة التي سبق أن قدَّموها من قبل …

أما أبناء الشعوب البدائية فإنها تُقدِّس «الطوطم»؛ وهو حيوان أو نبات أو جماد يعبدونه. وهم بحكم هذه القداسة يمنعون الاعتداء على الطوطم ويُحرِّمون قتله، كما يفعل أهل الهند في تحريم قتل البقرة. والأب هو بديل الطوطم؛ فإذا اعتدوا عليه كفَّروا عن ذنبهم بالامتناع عن الاتصال بنساء أبيهم.

فإذا تمَّت جريمة القتل اجتمع الأبناء المُذنِبون، وأسرعوا في وضع قوانين ومحرَّمات دينية ونظام اجتماعي؛ أي إنهم يضعون في حياتهم البذور الأولى للحضارة التي تنتقل منذ ذلك الوقت من جيل إلى جيل، بحيث تجتاز تاريخ الإنسانية.»

نحن إذن بإزاء مشكلة عسيرة الحل: هل كانت أصول الحضارة في المجتمع البدائي، فلا تصحُّ نظرية فرويد القائلة بأن قتل الآباء هو السبب في مولدها؟ أم أن هذه الأصول لم تكن قائمة، فتحتاج إلى تعليل ظهور الأشياء المقدَّسة على يد الأبناء والقوانين والعادات والتقاليد؟

غير أن نظرية فرويد السابقة يمكن الاعتراض عليها، وأهم هذه الاعتراضات هو «دوام الجريمة الأولى» واستمرارها؛ إذ كيف يُعقَل أن يرتكب الناس هذه الجريمة بدون انقطاع على الأجيال المُتعاقبة على الإنسانية.

ويردُّ فرويد على هذا الاعتراض بنظريةٍ جديدة أو بفرضٍ جديد، يقول فيه: «لا يجهل أحدٌ وجود نفس جمعية تؤدِّي وظيفتها، وتنتقل صورتها إلى النفس العادية.»

غير أن القول بوجود نفس جمعية لا يكفي في تعليل ظاهرة القتل مع انتقال هذه النزعة منذ الحياة البدائية؛ ولهذا يُضيف فرويد إلى القول بوجود النفس الجمعية القول بأن الشعور بالمسئولية قد صحب الإنسان منذ آلاف السنين، وانتقل معه من جيل إلى

جيل، وأن هذه المسئولية تتَّصل بجريمةٍ أولى لا يحتفظ الإنسان الحاضر بأي ذكرى لها، وأن هناك مرحلةً تاريخية كان الآباء يستبدُّون فيها بأبنائهم ويُسيئون معاملتهم، ثم ظهر جيل من الأبناء قضَوا على استبداد الآباء، وتخلَّصوا من سوء حكمهم.

فلما شعر فرويد بتهافُت نظريته، أراد أن يُعزِّزها بتأييد فكرة «النفس الجمعية»، وأنها همزة الوصل في استمرار الحياة النفسية عند الإنسان، فلا يحدُث فيها انقطاع بموت الأفراد، وبغير ذلك لا يمكن أن يوجد علم النفس الاجتماعي أو نفسية الشعوب. فإذا لم تنتقل النفسية من جيل إلى جيل بحيث تستمر على مدى الأجيال، فسوف يضطرُّ كل جيل إلى تعلُّم الحياة من جديد؛ ممَّا يتنافى مع كل تقدُّم ورقي.

غير أن القول بـ «النفس الجمعية» خرافةٌ لا يقبَلها علماء الاجتماع المُحدَثون الراسخون في هذا العلم، وهم لا يقبلون كذلك القول بالانتقال الوراثي للاستعدادات النفسية المُكتسَبة، ولا بالاستمرار النفسي فيما يفُوق نطاق قُوى الفرد النفسية.

أما علماء الأجناس البشرية فإنهم ينظرون في البيئة التي ينشأ فيها الجيل، ويعيش لهذه البيئة، ويأخذ منها تجاربه ممَّا يحتفظ به لمصلحة الجيل المُقبِل، وتتكوَّن هذه البيئة من مجموعة الأشياء المادية والتقاليد وأساليب الفكر ممَّا تتميَّز بطابَعٍ خاص نُسمِّيه الحضارة. هذه البيئة وما يتصل بها من حضارةٍ أعلى من الفرد، ولكنها اجتماعية، وليست نفسية. الإنسان هو الذي يصنعها، وهي من ثَم تؤثِّر فيه وتُشكِّله. وتصلح البيئة لأن تكون ميدانًا تنعكس عليه نوازع الإنسان ومُبتكَراته بما يزيد في قيمة الإنسانية. وفي الوقت نفسه، البيئة هي المُستودَع الوحيد الذي يستمدُّ منه الفرد ما يُحقِّق تجربته؛ فنحن إذا حلَّلنا عناصر الحضارة تبيَّن لنا أن البيئة هي مصدر الخلق والحفظ والنقل لها. ويُبيِّن لنا هذا التحليل أن العُقَد النفسية ليست أصيلة في الفطرة الإنسانية، بل هي وليدة الحضارة.

ويتفق مع فرويد عالمٌ نفسانيٌّ جديد يُسمَّى «جونس»، ويرى أن عقدة أوديب هي الأصل في كثير من العواطف البشرية، وهذه العقدة سابقة على كل حضارة، وهو يقبل كذلك نظرية انتقال الدوافع الإنسانية عن طريق الوراثة خلال الأجيال.

يقول علماء الأجناس البشرية: «إن الأسرة قبل العصور التاريخية وقبل الإنسانية كان أفرادها مُرتبِطين بعضهم ببعض بروابطَ غريزيةٍ فطريةٍ خارجة على تأثير العُرف؛ وذلك نظرًا لأن الحيوانات لا تعرف الكلام واللغة ولا القوانين والشرائع، ثم إن اتصال الذكور بالإناث يتم عن طريق الجاذبية الطبيعية في فصل الصلة الجنسية، فإذا انتهى

ذلك الفصل فلا تتمُّ أي صلة جنسية، فإذا حملت الأنثى انصرف الزوجان بدافعٍ جديد إلى حياةٍ مُشتركة حسبُ الذكر فيها دور الحارس الذي يحمي الأنثى أثناء الحمل، فإذا وضعت الأنثى استيقظت في نفسها غرائز الأمومة، والحاجة إلى إرضاع الصغار والعناية بهم، بينما يقوم الذكر بالسهر على الأسرة الجديدة، والبحث عن الطعام لها، وحمايتها من الأعداء.

ولَمَّا كانت مدة الحمل والرضاعة عند القردة طويلة، فلا بد للاحتفاظ بالنوع من ظهور عاطفة محبَّبة عند الذكر والأنثى قبل ظهور المولود وبعد ولادته، إلى أن يصبح هذا الصغير قادرًا على مُواجهة الحياة بنفسه مستقلًّا عن غيره. وما يكاد يصل إلى مرحلة النضج حتى تختفي الحاجة البيولوجية الدافعة إلى الاحتفاظ بالأسرة. وهذا يختلف عن الأسرة الإنسانية؛ لأن روابط الأسرة تظل قائمة بعد نُضْج الأطفال ووصولهم إلى مرحلة الرجولة، بل استقلالهم عن آبائهم.

وإذا نظرنا إلى عالم الحيوان تبيَّن أن الثدييات الراقية «مثل القردة» يهجر فيها الذكر حين يبلغ الشيخوخة الأسرة، مُتخلِّيًا عن مكانه إلى ذكرٍ أكثر شبابًا وأقدر على حماية الأسرة. وهذا في مصلحة النوع؛ لأن صفة الحيوان لا تَرْقى مع التقدم في السن، بل على النقيض يُعدُّ العجوز عبئًا ثقيلًا على الأسرة. فالحيوان في الحالة الطبيعية تجري أموره دون صعوبات أو تعقُّد أو كَبْت، وهذا ينفي ما يقوله فرويد وجونس من أن عقدة أوديب قائمة في الإنسان قبل الإنسانية وقبل ظهور الحضارة.»

الفوضى الجنسية عند المجرمين

لا تختلف الحياة الجنسية للفقير عن الحياة الجنسية للغني إلا قليلًا، وإذا كان هناك اختلاف فهو أن النظام الجنسي للفقراء أكمل وأقرب إلى الطبيعة البيولوجية العادية من نظام الأغنياء، ولكن دراسة طباع طبقة المُجرِمين في أي مجتمع تكشف لنا عن التعقيدات والشذوذ في حياتهم الجنسية، مِثلما هو الحال في مُثُلهم الأخلاقية.

والشخص الذي يستحيل مُجرمًا شخصٌ يُخفِق في الانسجام والانطواء في المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا الإخفاق يترك أثره في كل ناحية من وجوده وكل مرحلة في حياته، فيصبح شخصًا مُعادِيًا للمجتمع في جميع وجوهه، وهو إذ ينهج هذا السبيل المُعادي للمجتمع يضطرُّ الدولةَ في النهاية إلى جَعْله مُجرمًا، تتخذ كل الوسائل لحماية المجتمع من شروره.

والرأي السائد بين الناس العاديين أن الشخص يُعدُّ مُجرمًا بمجرد ارتكابه جريمة خطيرة، حتى ولو جاءت هذه الجريمة عفْوَ الخاطر، ولم تصدُر عن عمد وسبق إصرار. ومِثل هذه الأعمال تُعدُّ خرقًا للقانون، ولكنها لا تكفي بذاتها لوَصْم مُرتكِبها بصفة الإجرام. أما المُجرم الحقيقي فهو شخص ينشأ على كراهية المجتمع في سنٍّ مُبكرة، وينمو هذا الشعور في نفسه تدريجًا ويستغرق أعوامًا، وفي كثير من الأحوال يبدو هؤلاء المُجرمون وكأن بذور الثورة على المجتمع قد وُلِدت معهم.

ومِثل هذه الشخصيات تُعدُّ من الشخصيات المريضة عقليًّا، والمُعتقَد أن طبيعتهم الإجرامية جزء من نفوسهم الأصيلة مثل لون أعيُنهم أو شكل آذانهم. وفي طور الطفولة يبدأ هؤلاء الأشخاص في اقتراف أعمال تكشف عن شذوذهم واختلافهم عن سائر الأطفال. وفي سن الخامسة أو السادسة تبدو عليهم أمارات القسوة الشديدة، والاستهتار الكبير بسعادة الغير، والانغماس في حب الذات، وعدم الاستعداد للاعتراف للغير بحقوق الملكية

أو احترامها، ورفض الخضوع لأبسط قواعد الأدب. ويمتلئ تاريخ هؤلاء الأطفال البؤساء بصدماتٍ جنسيةٍ مُتعددة، وظاهرتهم هي السلوك السيكوباتي.

وفي طور البلوغ يبدأ الانحراف الإجرامي وضعف الأخلاق، ويكشف التحليل عن اختلاف هذا النوع من الانحراف عمَّا يحدُث للطفل العادي. والطفل العادي قد ينحرف، فيُمارس السرقة أو تخريب مُمتلكات الغير، أو ينحدر إلى مُمارسة علاقات جنسية شاذة مع غيره من الأولاد، ولكن هذه النزعة نحو الشذوذ سرعان ما تفتُر في نفوس الشبان العاديين، فيكفُّون عن هذه الأفعال حتى تتكوَّن عاداتهم الراسخة، ويعدل الشاب العادي عن تلك الانحرافات الأخلاقية التي لا يرضى عنها المجتمع، لا خوفًا من العقاب، وإنما رغبة في كسب رضاء الكبار؛ وهو بهذا يحتفظ لنفسه بمكانةٍ محترمة في الحياة الاجتماعية؛ أي إنه يحترم تقاليد المجتمع لأنه يريد أن يصبح فردًا عاديًّا في الجماعة.

أما المُجرم الحقيقي فلا تُخالج نفسَه هذه الرغبة، وقد يرتدع بفعل العقاب، ولكنه يلجأ إلى الحيلة ليفرَّ من الرقابة، فلا ينكشف أمره، ولا يخطر لهذا الشخص ذي النزعة الإجرامية شعورٌ داخلي يُحبِّب إليه أن يُقلِّد الناس حوله ويتطبَّع بطباعهم — بوصفه عضوًا في هذه الجماعة — وإنما يغلب عليه إحساس بكراهية المجتمع، وعدم الاكتراث بالرأي العام. وهو إذا اندمج في المجتمع، فهو يُحسُّ السعادة في خرق القانون أكثر ممَّا يُحسُّها في مُراعاته والانصياع لأحكامه.

والمُجرم المُبكِّر لا يكون في جميع الأحوال مريضًا عقليًّا، بل ربما كان في كثير من النواحي أرقى من مستوى الذكاء العادي، وسر انحرافه لا يرجع إلى جهله، وإنما يرجع إلى رفضه أن يُفيد من مواهبه بالطريقة التي يتبعها العضو العادي في المجتمع. ومثل هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون تنظيم معارفهم أو تجاربهم بصورةٍ يقبَلها المجتمع أو يُوافِق عليها، وهم يرفضون أن يُحاسِبوا أنفُسهم على أساس القواعد أو التقاليد التي يحترمها مجتمعهم. ومثل هذا الميل يمكن عدُّه فوضى تنتاب الحياة الروحية لهؤلاء الأشخاص الخارجين على المجتمع؛ أي إن حياتهم ينقصها التنظيم، فهم لا يعيشون على هدفٍ محدَّد، ولا يتعلَّمون تجارة يربحون منها، أو يتبعون نظامًا معيَّنًا للتوفير، أو يرسمون برنامجًا لحياتهم يجعل منهم مُواطنين مُحترمين. ويكون هؤلاء الأشخاص من ذوي المطامح والرغبات، ولكنها كلها تصدُر عن نزعةٍ أنانية تجعلهم دائمًا في نزاع مع القانون.

وهذا التشتُّت وهذه الفوضى يتمثَّلان على صورةٍ كبيرة في حياتهم الجنسية، وهم يجعلون علاقاتهم الغرامية تعتمد كلها على الرغبات الجنسية، ولا ترتفع بها أبدًا إلى

المستوى الذي يُرغِّبهم في احتمال مسئولية الزواج، وإنشاء بيت وإنجاب أطفال. وأنانيتهم المُطلَقة تجعل مِثل هذا التنظيم الطبيعي للحياة الجنسية أمرًا غير مرغوب فيه ومستحيلًا من وجهة نظرهم. وهم يتخذون عشيقاتٍ يستبدلونهنَّ كلما حلا لهم ذلك، وإذا حدث أن تزوَّجوا فإنهم يُغيِّرون زوجاتهم أيضًا حسب أهوائهم، وإذا أصبحوا آباءً فإن أبناءهم غالبًا ما يكونون غير شرعيين، ويرفضون هم أن يحتملوا بإزائهم أية مسئولية. والبيت عندهم ليس سوى مكان يخلعون فيه ثيابهم، وهم يرفضون الاستقرار في بيتٍ واحد، مِثلما ينزعون عن الإخلاص لامرأةٍ واحدة على الدوام.

أما تصرُّفاتهم هذه فيما يتَّصل بالحياة الجنسية، ورفضهم الخضوع لنُظُم الجماعة؛ فإن هذا هو الذي يُبغِّض المجتمع فيهم. وربما كان للفرد العادي علاقاتٌ جنسيةٌ غير شرعية في وقتٍ ما، ولكنه على الرغم من فقره يرتدُّ إلى الحياة الزوجية، ويبقى على الإخلاص لزوجته، وتُساوِره نزعة الأبوة، وهو يُحب أطفاله، ويُوفِّر لهم بيتًا مهما كان حقيرًا، وهو على استعداد لبذل جميع التضحيات من أجل زوجته وأطفاله وبيته، وهو يرسم الخُطة للمحافظة على هذا البيت، ولا يعُوقه عن ذلك فقر أو جهل، وحياته الجنسية مُنتظمة ذات هدف معيَّن، وهي تتفق مع المُثل التي لا بد من توفُّرها لتحقيق سعادة الجنس البشري بأَسْره، والسير به إلى الأمام.

ودراسة نفسية المُجرم تكشف عن مقدار اختلاف حياته الجنسية عن الفرد العادي. والواقع أنه من الممكن النظر بعين الحذر والريبة إلى كل شاب بالغ يعجز عن تنظيم حياته الجنسية وفقًا للقواعد المُتعارَف عليها؛ فهو إما أن يكون مُجرمًا، أو شخصًا يشعر بالكراهية للمجتمع ممَّا قد يدفع به يومًا ما في طريق الإجرام. وإذا كان أمره لا ينكشف حتى يومئذٍ، فربما كان مَرجع ذلك إلى عدم سنوح الفرصة واتِّساع المجال.

وأنواع الفوضى الجنسية بين هؤلاء الأشخاص المُعادِين للمجتمع تختلف تبعًا لدرجة ذكائهم، ومقدرتهم على النجاح في تنفيذ برنامجهم الإجرامي. وأقدر هؤلاء يفوز بالغنى، فيملك شقة، ويتخذ خليلة تعيش معه حتى ينصرف هواه إلى أخرى. أما الأقل من ذلك في الذكاء والمقدرة فإنه يخضع لرئيسٍ إجرامي، ولا يستطيع أن يتخذ لنفسه خليلة، فيكتفي بمصاحبة النساء الساقطات. وهناك من هم أقل من هذا درجة من ذوي النزعات الإجرامية أيضًا، ومنهم الشريد المُتحول واللص الحقير، وتنتشر بين هؤلاء عادةً مُخالطة الذكور، فيتخذ الكبار منهم طفلًا يُعلِّمونه الإجرام، ويبسطون عليه لواء حمايتهم، ويستخدمونه جنسيًّا.

ومهما يكن مقدار ذكاء هؤلاء الرجال أو نوعهم أو مركزهم في الحياة، فكلهم يتَّصف بالأنانية المُطلَقة، والاستهتار الشديد براحة الغير وخيرهم، وانعدام الإحساس بالعطف نحو الضعيف، أو الحب الخالص للمرأة والأطفال، أو الرغبة في اتخاذ بيت ثابت. ومثل هذه الطباع لا تتأثَّر بالناحية المالية، وإنما ترجع كلها إلى تكوين شخصياتهم. وبعضهم يكون مُزدوج الشخصية؛ أي يجمع بين شخصية المُجرم في الخارج، وشخصية الزوج والأب العطوف في بيته.

وهؤلاء المُجرمون النفسيون رجالٌ مرضى، ومرضهم قد يكون أسوأ من مرض المُصابين بالسرطان أو السُّل أو ضعف القلب أو غير ذلك، وتجب معاملتهم معاملة المرضى، ولكن تجب في الوقت ذاته حماية المجتمع من آثامهم، مثل وقايته من الأمراض المُعدية والأوبئة. ويجب فصلهم عن سائر الناس، وأفضل وسيلة لتحقيق ذلك هي حجزهم في إصلاحيةٍ مدى الحياة. ولو أن هذا لا يُنهي المُشكِل، فإن الحدَّ من حرياتهم، وإجبارهم على احترام قوانين معيَّنة، تبعث في نفوسهم الشقاء وعدم الرضاء؛ ولهذا فنحن نسمع كثيرًا عن قلاقل مُتكررة في سجون الدولة، يُثيرها هؤلاء المحكوم عليهم بالسجن لمددٍ طويلة أو مدى الحياة، ولكن إذا كانوا هم يرفضون الخضوع للقانون الاجتماعي للمجتمع الحر، فإن الحل الوحيد هو إجبارهم على حياة السجون أو الإصلاحيات.

ويجدُر بكل فرد، إذ يُقبِل على حياة البلوغ، أن يفهم أُسُس تنظيم الحياة الجنسية، وأن يكون قادرًا على انتهاج سبيل يتَّفق مع الجماعة، وأن يتَّبع هذا المنهج، ويحتمل المسئوليات المختلفة، فيتزوَّج، ويبدأ في تكوين أسرة يتخذ لها بيتًا دائمًا. أما إذا كان لا يرغب في سلوك هذا السبيل، واحتجَّ بالطموح أو المتاعب المالية أو الحاجة إلى مُواصلة التعليم؛ فهناك من ينظر إليه بعين الريبة والشك؛ ذلك لأنه إذا بدَت إلى جانب إهماله تنظيم الحياة الجنسية مظاهرُ الإفراط في الأنانية، والرغبة الدائمة في تحقيق المطامع على حساب الغير؛ عدَّه المجتمع مُجرمًا من الناحية الجنسية، سواء قام الدليل الفعلي على ذلك، أو كان مجرد استعداد قد تبدو آثاره في المستقبل القريب أو البعيد!

الحرية الجنسية عند الشعوب الهمجية

وضع البروفسور «برونيسلاس لمالينوفسكي»، أستاذ علم الأجناس البشرية في جامعة لندن سابقًا، كتابًا قيِّمًا عن دراساته الشخصية الطويلة التي قام بها أثناء جولته العلمية في جزر «تروبرياند» البريطانية. ولعل القارئ يتساءل بعد اطِّلاعه على الفصل الذي ننقله فيما بعد من ذلك الكتاب: «أليس هناك وجهٌ للتشابه بين مجتمعنا المُتمدين الحديث وبين ذلك المجتمع الهمجي؟» أو: «هل ترى مدنيتنا المعاصرة تعود بنا إلى الوراء؟»

يقول المؤلف: ينعَم سكان جزر «تروبرياند» بحريةٍ واسعة النطاق في علاقاتهم الجنسية، وليس هناك ما يمنع الجنسَين من الاتصال؛ إذ تستيقظ الغرائز الجنسية في سنٍّ مُبكرة جدًّا. وأول ما يُلاحظه الزائر هذا الاستقلال الذي يناله الأحداث من الجنسَين؛ فهم غير مكلَّفين بالبقاء في البيت، ولا يخضعون لأوامر والديهم. وقد رأيت أطفالًا يضربون آباءهم وأمهاتهم عندما حاول هؤلاء إرغامهم على شيء لا يريدونه. ويذهب الأطفال من الجنسَين في رحلاتٍ طويلة بين الأدغال، ويؤلِّفون مجتمعًا مستقلًّا خاصًّا بهم، ويعودون إلى منازلهم عندما يشاءون، وكثيرًا ما يهبُّ هؤلاء ويُعلنون الثورة على الكبار![1]

وتشمل هذه الحرية الواسعة العلاقات الجنسية بين الأطفال الذين يتعلَّمون هذه الناحية من أحاديث الكبار، ثم من مُشاهداتهم الشخصية في الأكواخ أو تحت ظلال الأشجار، حيث يتصل آباؤهم وأمهاتهم أو الشبان بعشيقاتهم على مرأًى منهم. فإذا لاحَظ الأب والأم أن الابن ينظر إليهما لا يقفان عن الاستمرار في الفعل، بل يكتفيان بأن

---

[1] الدنيا الجديدة.

يطلبا إليه أن يُغطِّي رأسه وينام، وهو حرٌّ أن يُطيع أو يتمرَّد، ثم يمتدحان هذا الابن أو تلك البنت؛ لأنه لا يتحدث مع زملائه عمَّا شاهَد. وحدث مرةً أني كنت في رفقة جماعة من سكان تلك الجزر تتكلم عن شروط الزواج والعلاقات الجنسية، فاقتربت منَّا الابنة الصغيرة، وأخذت تسترق السمع، فسألتُ أباها أن يُبعدها، فضحك وقال: «لا بأس عليك، إن ابنتي لا تنطق بكلمة ممَّا ترى أو تسمع، وهي تذهب معنا إلى الصيد، وترى حالتنا العارية تمامًا، ومع ذلك تأبى أن تصف ذلك إلى أمها أو خالتها.»

ولدى الأطفال من الجنسَين فُرصٌ لا تُحصى لمُمارسة الحب؛ فالذكور يُعلِّم بعضهم بعضًا أسراره؛ ولذلك حين يبلغ الواحد منهم الرابعة من عمره يكون خبيرًا واسع الاطلاع في هذا الشأن.

ولما كان هؤلاء لا يخضعون لرقابة الوالدَين أو الأشقَّاء الكبار، ولا يتقيَّدون بوازعٍ أخلاقي إلا تقاليد القبيلة التي تُحرِّم الصلة الجنسية بين الأخ وأخته، أو بين الابن وأمه وخالته؛ فإن إقبالهم على اللذَّات لا يجد عائقًا ولا ناقدًا؛ لأن آباءهم شديدو التسامح معهم في هذه الناحية، ولا يرون في هذا الإقبال ما يدعو إلى اللوم. ويتحدث القوم، وهم يتضاحكون، عن فلانة (الطفلة) التي بدأت تُعاشِر فلانًا، أو عن فلانة التي غيَّرت عشيقها، ويقولون: «إن العلاقات الغرامية هي تسلية الأطفال البريئة!»

متى يبدأ الأطفال هذه الصلات العملية؟ يقول سكان الجُزر: «إنها تبدأ عندما يسترون عوراتهم؛ أي بين الرابعة والخامسة.» ويؤكِّدون أن الأطفال في هذه السن يقومون بهذه العمليات على وجهها الصحيح الكامل. ومع أني أميل إلى عدِّ هذا التأكيد من قبيل المبالغة التي هي طبيعة في المجتمع البدائي، إلا أن البراهين التي تجمَّعت لديَّ تُثبِت أن هذه الصلات تتخذ شكلها «الفزيولوجي» الصحيح بين السادسة والثامنة بالنسبة إلى البنات، وبين العاشرة والثانية عشرة بالنسبة إلى الأولاد، ومن ذلك الحين تبدأ العلاقات الجنسية نشاطها العظيم في حياة الذكر والأنثى، بل في الأسرة والقبيلة معًا.

والعلاقات بين الصِّبية لا تدوم؛ لأنها قائمة على العبث، ولا تُكلِّف أحدًا منهم نصبًا، ولكن الفتى يضطرُّ متى بلغ الثالثة عشرة أو أكثر إلى أن يبني له كوخًا منفردًا، أو يجد مأوًى مُنعزلًا يلجأ إليه مع الفتاة التي يميل إليها. وقد يلجأ إليه أزواجٌ كثيرون إذا تعاونوا على بنائه، وهناك يُعدُّون الطعام، فيأكلون ويشربون قبل أن يُمارسوا العلاقات الجنسية. ومتى نضجت الثمار البرية ذهبت جماعات منهم لقطفها، ثم يُقدِّمونها هدية إلى الفتيات اللواتي يُرافقنهم مع كثير من الأزهار أو المحار أو الفراش.

وفي أحيانٍ أخرى، يسير الفتيات على انفراد والفِتيان يلعبون وحدهم. ومردُّ ذلك إلى ملل الفريقَين، ولكن هذه الحالة لا يطول أمدها.

ومتى بلغ الطفل الرابعة عشرة أصبح معدودًا بين الرجال، وصار ينعم بحقوقٍ جديدة، ويحمل مسئولياتٍ مُتعددة، وبات لزامًا عليه أن يهجر المنزل حتى لا يُسبِّب مُضايقة لوالدَيه أثناء اتصالهما الجنسي، وينفصل عن شقيقاته، وتتسع دائرة المحظورات عليه حسب شرائع القبيلة. وهنا يبدأ التفكير في الزواج.

والزواج عندهم بسيط؛ فالشاب يختار الفتاة التي يريدها زوجة من بين الكثيرات ممَّن عاشرهنَّ مُعاشرة الأزواج، ثم يذهب هو وأهله لخطبتها من أبيها. فإن كان كسولًا (وهو أكبر عيب يحطُّ من قيمة الرجل) أو من طبقةٍ أدنى، رفض الأب المُوافقة. فإن كان الفتى والفتاة يتبادلان الحب العميق، هربت الفتاة معه رغم مشيئة والدها. وإذا ظلَّ الوالد مُصرًّا على رفض الزواج، مضى إلى بيت الفتى مع بعض أتباعه وأعوانه وعاد بابنته، ولكن إذا هربت الفتاة ثانية إلى بيت عشيقها تحتَّم على الأب القبول بالأمر الواقع، وأصبح الاثنان زوجَين في حكم الشرائع المتَّبَعة.

والأب هو المسئول عن رفاهية ابنته بعد زواجها، بل مسئول عن طعامها؛ فهو يُخصِّص لها قسمًا من محصول أرضه لمدة سنة، كما يُخصِّص قسمًا آخر لأمه ولخالته إذا لم يكن لتلك الخالة من يعُولها. والابن عادةً يتبع الأم لا الأب؛ ولذلك كانت صلته بها أمتن وأثبت على الزمن.

وللحب ظاهرةٌ غريبة في جزر «تروبرياند» قد تخفى على الكثيرين، وهي أن للعلاقات الجنسية، مهما طال أمدها أو قصر، ثمنًا يجب أن يؤدِّيه الرجل بصورة هدايا؛ فإن كانت العلاقة لمرةٍ واحدة كانت الهدية غالية، أما إذا كان القصد منها الزواج نقصت قيمتها حتى لا تزيد أحيانًا على حبَّة من الفاكهة، أو عدد من أزهار. وتتمسَّك الأنثى بحقها هذا، ولا تنزل عنه أبدًا؛ فإذا اتصل بها طفل أو شابٌّ ولم يُقدِّم الهدية المُلائمة (وهي تختلف حسب جمالها وسنها ومركزها في القبيلة)، أشاعت بين الفتيات أنه بخيل، فلا ترضى واحدة منهنَّ الاتصال، ويصبح منبوذًا منهنَّ حتى يُقلِع عن عادته، أو يضطرَّ إلى إعطاء الهدية مقدَّمًا.

والزوجة تُطالب زوجها بثمن اتصاله بها كل مرة، ولا تجد غضاضة في مُطالبته به علانية أمام أهله وأهلها، بل أمام الغرباء، لكنها تنقطع عن المُطالبة إذا كانت مُنصرِفة إلى إرضاع الأطفال والعناية بهم؛ إذ تقبَل الصلة الجنسية مجانًا، ولكنها تعود إلى المُطالبة

بمجرد أن يبلغ الطفل الثالثة من عمره أو أقل، وأصبح الأب مسئولًا عن تربيته والإشراف عليه. والفرق عظيم بين تقاليد سكان هذه الجزر وبين الدعارة في المجتمع الحديث؛ ففي الحالة الأولى الدافع إلى الإصرار على أخذ الهدية هو حمل الذكر على الاهتمام بالفتاة، بينما الدافع إلى الحالة الثانية هو الرغبة في الحصول على النقود أو ما يقوم مقامها.

الملابسات النفسية في الصلات الجنسية

كان من أثر حاجة الطبيعة إلى النسل أن أصبح هذا غرضًا للصلة الجنسية، بل هما هدفان في ذاتَيهما، وهما ضروريان لحياة الفرد وتطوُّره ونموِّه الباطني. وقد ذكَرت أولف شرايين في مقدمة كتابها «المرأة والعمل»، أن للجنسية وصِلتها بين الرجل والمرأة أغراضًا ذوقية للجمال، وأخرى فكرية وروحية واضحة، مستقلَّة استقلالًا تامًّا عن غايتيها في التناسل والإبقاء على الجنس.

وقيل قديمًا: «إن معظم فنوننا وعلومنا كانت قد اكتُشفت من أجل الحب.» وممَّا ذكَره أستولد، وهو من علماء العصر الحديث، أن المُخترِعين والمُكتشِفين يُنتِجون في أغلب الأحيان أحسن أعمالهم ومؤلفاتهم وهم أسرى الحب. هذا ويقول بارملي: «إن العلاقة الجنسية كان لها أثرٌ خطير في كثير ممَّا أنتجه الإنسان.»

ويقول بعض المُعترِفين بكَونِ الحب المُتبادل ركنًا من أركان الزواج: «إن مثل هذا الحب إذا انتظم من البداية قد يصبح أمرًا بدهيًّا لا يحتاج إلى بحث.» وهم يعتقدون أنه ليس هناك فن للحب يتعلَّمه المرء أو يُعلِّمه؛ فالحب في نظرهم وليد الطبيعة. وهذه أبعد العقائد عن الحقيقة، وخصوصًا بالنسبة للرجل المُتمدين؛ فالإنسان يحتاج إلى تعلُّم كل ما يتصل بهذا الموضوع، حتى المبادئ الأولية للاتصال الجنسي. وقال السير جيمس باجت: «إن من صفات الإنسان المُتمدين البارزة جهله الصلة الجنسية وما إليها.» ولا حاجة إلى القول بأن المرء في حاجة إلى تعلُّم طريقة الاتصال الجنسي، وأن من لا يتعلَّمها يبقى جاهلًا لها. وقد كان الفلاسفة في الماضي يتناظرون في مثل هذا البحث، ويختلفون فيما بينهم. وممَّا قاله بلوتارك: «إن أبيكوروس كان يبحث مع تلاميذه الشئون الجنسية المختلفة كالوقت المُناسب للاتصال الجنسي، وكان هناك من يلوم هؤلاء الفلاسفة على اتجاهاتهم الفكرية هذه.»

والموضوع في ذاته أوسع كثيرًا من أن يكون مُقتصرًا على تعلُّم الحقائق البسيطة البدائية للصلة الجنسية. ولا شك أن فن الحب ينطوي على حقوقٍ ابتدائية تتعلَّق بالصحة الجنسية، ولكنه فن ينطوي أيضًا على نظام الناحية الجنسية للزواج بأجمعه؛ ولهذا كان فن الحب عظيمًا في خطورته في سلامة الفرد وسعادته، وفي ثبات الاتحادات الجنسية، وبصورةٍ غير مباشرة في سلامة الجنس البشري وسعادته، ما دام فن الحب في جوهره هو فن الحصول على الظروف الصحيحة المناسبة للتناسل. وكتب البروفسور آن كوب قبل نصف قرن يقول: «إنه لو فُهِم هذا الموضوع فهمًا صحيحًا، وأصبح في تفصيلاته المُتعلقة بالناحية العملية جزءًا من علمٍ اجتماعي مكتوب؛ فقد يُصيب مبدأ الزواج من واحدة نجاحًا أكبر كثيرًا ممَّا يُصيبه اليوم في أغلب حالات الحياة الفعلية.» وهذا صحيح ولا شك؛ إذ إن النجاح في الأغلبية الساحقة من حالات الزواج يعتمد قبل كل شيء على مدى المعرفة التي ينعم بها كلٌّ من الزوج الزوجة في فن الحب، وقد يدوم الزواج بين زوج وزوجته مدى الحياة ولو كان فن الحب مفقودًا، ويعود ذلك إما لسببٍ ديني أو لبلادة أو سُخْف، إلا أن هذا النوع من دوام الزواج أخذ يقلُّ شيوعًا بين الناس؛ ذلك أن الطلاق زاد انتشارًا، وأصبح أيسر بلوغًا في جميع البلدان المُتمدينة. وهو اتجاه من اتجاهات الحضارة، ونتيجة الإحساس بوجوب قيام الزواج على صلات وعلاقات سليمة حقيقية. وحين تصبح هذه الصلة غير حقيقية يجب وضع نهاية للزواج الظاهري. ومثل هذا الاتجاه لن نستطيع مُقاومته، ونُخطئ إذا نحن حاولنا مُقاومته.

وعلى الرغم من اضطرارنا إلى مُعاضدة الاتجاه نحو الطلاق، وإلى استمساكنا بأن الزواج الثابت الشرعي يحتاج إلى موافقة الزوجَين على الإبقاء عليه، من الصعب على أي إنسان أن يقول إن الطلاق أمرٌ مرغوب فيه؛ فالطلاق هو اعتراف بالخيبة، وفي حالات الطلاق يكون الزوجان قد اعتقدا في البداية بمُلاءمتهما كزوجَين، وفي النهاية يجدان أنهما لا يتبادلان الحب، أو لم يُوفَّقا في هذا الحب المُتبادل، وبعد هذا أخفقا في فن الحب الحيوي. وإذا أردنا مُكافحة الطلاق وجب علينا أن نزيد في استقرار الزواج وثباته، ولن يكون هذا مُمكنًا إلا بإنماء فن الحب؛ عماد الحياة الزوجية الرئيسي.

وبديهيٌّ أننا لسنا في حاجة إلى تأكيد هذا الرأي وإثباته. وقال الدكتور هوارد كالي: «إنه لا يعتقد أن للمُتعة المُتبادلة في الصلة الجنسية أية علاقة بالسعادة في الحياة.» وإن دل هذا على شيء فإنما يدلُّ على أن الرابطة الزوجية ليست لها أية علاقة خاصة بسعادة البشر. وهو رأي لم يجرؤ أكثر الناس تزهُّدًا وتنسُّكًا في القرون الوسطى على الإدلاء به.

وكما قالت أيلين كي: «إن وحدة الحب والزواج مبدأٌ أساسي ترتكز عليه الفضيلة والأخلاق في العصر الحديث.» وكان فن الحب في الماضي يُعدُّ فن الفاسدين الساعين وراء الملذَّات، فن إخراج المرأة من بيتها، لا فن إبقائها فيه، ولم يكن فنًّا على الزوج إتقانه.

أما الاستسلام للنزعات الجنسية فكان يُعدُّ إذعانًا للضعف الإنساني، وانغماسًا وتساهلًا يقع بعد اتخاذ جميع التدابير وأوفر العناية. ومنذ أبعد العصور اتجه الناس إلى إنماء فن البكارة، ولم يكن في وُسْعهم المُوافقة على فن الحب. وكان الاتجاه الفكري فيما يتعلق بالصلات الجنسية يرتكز في ضبط الشهوات والطهارة والعفة، كما كان فن الحب يُعدُّ فنًّا مُريبًا يدلُّ على الاتجار بالفضيلة والعفة، بل فنًّا خليعًا فاجرًا، ثم أخذت الفكرة عن الحب التطور تدريجًا مع الزمن؛ أن أصبحت تعدُّ أكثر من غريزةٍ حيوانية أو واجبٍ مزعوم؛ إذ أصبحت تُعدُّ علاقةً إنسانيةً معقَّدة مهذَّبة تحتاج إلى إنماء. وإذا نظرنا إلى المبادئ والنُّظم المتَّبَعة في تعليم الشبان والشابات، ندر أن يوجد التدريب الضروري الذي يجعل الشاب مقبولًا لدى الفتاة والفتاة لدى الرجل في الصلاة الجنسية، وقلَّ من يُدرِك أن تبادُل الحب والاستعطاف واستجلاب الرضا ليس مجرد تمهيد للزواج، بل جزءٌ حيوي من العلاقات الزوجية إلى النهاية.

وقد يُدهِش القارئَ أن يعلَم أن سكان أزيمبالاند في أفريقيا الوسطى يُقِيمون حفلات ومراسيم خاصة للفتيات عند بلوغهنَّ سن البلوغ، يُعلِّمونهنَّ فيها أسرار العلاقات الجنسية، وطُرُق إرضاء الرجل، وواجباتها كزوجة، كما أنهم يجعلون منها سيدة بطُرُقهم الخاصة، وكل هذا وسط رقصات وأناشيد. هذا بالإضافة إلى أنهم يُسدُون لها النصائح التي يجدر بها اتباعها عند حملها أو وضعها، وما إلى ذلك من إرشادات تهمُّ المرأة. ويُنصَح للفتاة أن تكون مُخلِصة لزوجها، وألا تكره الحمل.

وبعد أن كان فن الحب لا يتعدَّى أوامر تنتهي عن القيام بهذا وذاك، أصبح الآن موضوعًا محترمًا. وقد أصبح أكثر المُرشِدين للآداب والأخلاق تعصُّبًا يعترفون بخطورة فن الحب في الحياة الزوجية، بل يؤكِّدونه أحيانًا.

ما هو السبب في انتشار الطلاق في المجتمع، وكذلك في كثرة البيوت التي يعيش فيها الأزواج والزوجات في جوٍّ قاتم من الكآبة والتعاسة؟ والجواب في أغلب الحالات هو جهل هؤلاء الأزواج والزوجات لفن الحب. ويذكُر القاضي بارتلت، رئيس محكمة رينو في نفادا، قصصًا كثيرةً مؤلِمة عن حالات الطلاق التي كان يفصل فيها، وهي تنمُّ عن إخفاق الزواج المؤسِف الذي أدَّى جهل الزوجَين لفن الحب إلى وقوع معظم حالاته. وفن الحب، كغيره

من الفنون، طبيعي ولو جُزئيًّا، هو فن من صنع الطبيعة؛ إذن هو موضوعٌ طبيعي يجدر تعلُّمه وتمثيله. ولو تركنا الأطفال ذكورًا وإناثًا يلعبون، ألفيناهم يُمارسون الحب من الناحيتَين الجسدية والنفسية عن طريق الهزل أو الجد، إلا أنه تصرُّف يُنهَون عنه من قِبل الكبار إذا هم اكتشفوا أنه يُطبَّق من ناحيةٍ جسدية، أما من الناحية النفسية فينظرون إليه بالسخرية والضحك. ويُمارَس فن الحب، وخصوصًا في إنجلترا وأمريكا، بعد سن البلوغ بصورة مُغازلة ومُداعبة، وقد يقع هذا قبل سن البلوغ. وهو تصرفٌ طبيعي جدًّا في بدايته، ويمكننا ملاحظته في الحيوانات أيضًا، هو بداية الحب المُتبادل والاستعطاف واستجلاب الرضا. ويتجاوز هذا الاستعطاف أو الحب المُتبادل في ظروف المدنية الحديثة هذا الحد. وهذه الظروف تجعل الزواج صعبًا، هي ظروف تجعل الحب وما يتبعه من علاقات وارتباطات خطيرًا جدًّا للمُمارسة أو التجربة، وتجعل الاتصال الجنسي الفعلي خطرًا مشينًا، والحب المُتبادل أو استجلاب الرضا يتكيَّف حسب هذه الظروف. هذا والمُغازلة في بعض المدن لا تتجاوز أن تكون خطوةً تمهيدية للحب المُتبادل الطبيعي، وتتجاوزه في بعضها إلى الإرضاء الجنسي، وثمةَ الرقص الأوروبي، أي المُخاصرة بين الرجل والمرأة، فقد تُساعد على مقدمات الزواج وسعادته.

وقد قال نيويل إدسون، مستشار جمعية الصحة الاجتماعية في أمريكا، في كتابه عن الحب واستجلاب الرضا والزواج: «إن المُغازلة أو المُداعبة تُسبِّب هزة في المشاعر؛ هزة لا يجوز أن تقوم على الأنانية، وتُسهل المعرفة الودية الضرورية قبل تقرير انتخاب رفيق أو رفيقة الحياة.» ولا يجوز أيضًا أن تكون المُداعبة أو المُغازلة جزاءً أو ثمنًا لشيء يحصل عليه الرجل أو المرأة؛ إذ لا يطلب الثمنَ إلا الأناني. وإذا زادت المُداعبة على حدِّها أصبحت رخيصة، وذهبت قيمتها، وأنقصت من قيمة صاحبها، بل قد تُسبِّب ضياع الهيبة واحترام النفس. وقد تُثير المُغازلة الشعور والعواطف الخفية الكامنة في الشخص؛ عواطف إذا لم تُرضَ إرضاءً تامًّا ربما سبَّبت اضطرابًا نفسانيًّا. وقد تكون هذه الإثارة مُضرَّة بالرجل وبالمرأة من الناحية الجسدية إذا تمادى أحدهما في مُمارستها.

والمُغازلة في شكلها الطبيعي رغم قيامها على أُسسٍ مَتينة تُجيزها، ورغم اعتبارها وسيلة لاختبار الحبيب، ولاكتساب جزء ولو صغير من فن الحب، إلا أنها لا تُعدُّ المرء إعدادًا كاملًا للحب. وقد نُلاحظ هذا في الذين لا كفاية عندهم أو جدارة لفن الحب وهم كثيرون، حتى إن بعضهم يكون عاجزًا عن القيام بواجبات الحب الجسدية، ذلك في حالات كثيرة بين الرجال والنساء في البلاد التي تكون فيها المُغازلة مُنتشرة ورائجة.

وهذا الجهل لا في فن الحب وحده، بل في الحقائق المادية أو الجسدية في الحب الجنسي، مُنتشر بين النساء والرجال سواءً بسواء، إلا أنه جهل يختلف في مظاهره وشكله بين الرجل والمرأة؛ فالجهل الجنسي عند المرأة يتراوح بين السذاجة أو البراءة التامة، وبين الجهل بأن فن الحب ينطوي على صلاتٍ جسدية مَتينة، وبين الجهل بأنواع هذا الفن المختلفة.

وهكذا يكون الاستعداد بين الرجال والنساء لفن الحب في الزواج ناقصًا عند الأغلبية، ويجدر بنا أن نعلَم أن فن الحب لا يُتقَن إلا عن طريق الخبرة العملية، وهي خبرةٌ يصعب على الفتاة اكتسابها في نُظُمنا الاجتماعية الحاضرة دون أن تُوصَم سُمْعتها. وإنه لمَّا يؤسَف له أن تدخل المرأة عتبة الزوجية دون أن تكون مُعدَّة بما تحتاج إليه من معلومات، رغم اعتقادها بمعرفتها لفن الحب والزوجية، والمرأة أبطأ من الرجل في إدراك معنى الزواج إدراكًا جيدًا، وخبرة الرجل عند الزواج تكون أوسع من خبرة المرأة في أغلب الحالات.

وتحتاج المرأة إلى سنين عديدة كي تُتقِن فن الزوجية، وكي تُدرِك حاجاتها الجنسية تمام الإدراك، ولتُقدِّر مَقدرة زوجها على سدِّ هذه الحاجات، وكلما زِدنا الطلاق تقييدًا وتعقيدًا وصعوبات اضطررنا إلى إعداد المرأة والرجل إعدادًا صحيحًا للحياة الزوجية.

إن إفهام الزوجة واجباتها وامتيازاتها هو من واجب الزوج، كما أنه ليس من العدالة أن تُكرَه المرأة على الارتباط برباط الزوجية قبل إدراكها التام لمعنى الزوجية. وهناك أمور ليس من المعقول أن يُطلَب من الزوج شرحها لزوجته، منها شرح تأثير كثرة الاتصال الجنسي في الرجل بالنسبة للمرأة؛ فالزوجة لا تدري أن مُتعتها تكون أحيانًا على حساب صحة الزوج، فجهل المرأة لهذه الأمور مُتعلِّق بفن الحب، ولو كان الرجل مُلمًّا بهذه الأمور إلمامًا تامًّا لسهل الأمر، ولكن أغلب الرجال قبل الزواج إما أن تكون خبرتهم خاطئة عن طريق المُومِسات، أو أنهم يجهلون هذه الأمور، وفي الحالتَين قد يكون تصرُّف الزوج مع زوجته سببًا في استيائها منه؛ فهو إما أن يُعامِل زوجته الشريفة الطاهرة معاملة المُومِسات، أو أن يُبالغ في احترامها، وهنا تكون حياتهما مزيَّفة.

وكثيرًا ما يؤدِّي جهل الزوج إلى إلحاق الضرر الجسدي أو العِلل بزوجته، وكم من زوجاتٍ كرِهنَ الزواج من أول ليلة، بل كم منهنَّ من هربن من بيوت أزواجهنَّ على ألا يعُدنَ للحياة الزوجية، أو كم على الأقل للزوج ذاته! وكم من زوجة تحمل ذكرى مؤلِمة لأول ليلة من زواجها! ومن زوجة كان وقعُ ليلة زواجها عليها وقْعَ الصاعقة لجهلها الاتصال الجنسي! وكم من أمراضٍ جسدية وعقلية ونفسية يُسبِّبها الجهل بفن الحب!

وكم من زوجَين اقترنا آمِلين في حياةٍ كلها هناء وسعادة، فانقلب هذا الهناء وهذه السعادة إلى بؤس وتعاسة. والنساء أكثر استعدادًا لاكتساب فن الحب وإتقانه من الرجال؛ إذ هو بالنسبة إليهن فنٌّ تخلقه الطبيعة، فهو موجود في دمهنَّ، ويُولَد معهن، وعواطف الحب الجنسي تظهر في الطفل من السنة الثالثة من عمره، والفتيات يبلُغنَ سن البلوغ قبل بلوغ الفِتيان، ويعدُّ الكثيرون سن البلوغ عند الفتيات سن الحب عندهنَّ. وعلى هذه الحقيقة يرتكز الحد الأدنى لسن الزواج عند النساء. ويبدو أن سنَّ السادسة عشرة هي السن المعقولة للسماح للفتيات بعدها بمُمارسة الاتصال الجنسي في المناطق المعتدلة المناخ، إلا أن هذا التحديد أمرٌ تقديري مطَّاط اصطناعي، ولا يُعدُّ قاعدةً ثابتة يُجرى عليها.

ولا يعني إلغاء الحد الأدنى لسن الزواج أن يكون مُشجِّعًا للرجال للاتصال بالفتيات الحديثات السن، والمفروض في الفتاة الكريمة الأصل المهذَّبة النفس أن تصون نفسها، وهناك قوانين تُعاقِب الرجل إذا أكره فتاة على قبول مثل هذا الاتصال.

وخبرة المرأة في فن الحب لا تُعوِّض عن جهل الرجل له؛ إذ ضروريٌّ أن يكون الرجل هو البادئ في بثِّ العواطف والشعور، وأن يكشف أسرار قلبها وما يُضمِره من عواطف وشعور. ومن العسير جدًّا على المرأة أن تُجازِف بإظهار حبها لرجل لم يكن هو البادئ خشية الاصطدام بالخيبة والصدود، وكثيرًا ما نرى أزواجًا يعدُّون أنفسهم سعداء بزوجاتهم، رغم أنهم يُخفين في قلوبهن شعورًا كامنًا بحرمانهنَّ من ملذَّات ومسرَّات لم يُجرِّبن قط طلبها من أزواجهن، وذلك ولو بإكراههنَّ على قبولها. وكم من طلاق يحدُث من وراء هذه الأسباب دون أن يعلَم الزوج السبب الحقيقي الذي أدَّى إلى ذلك. ويُعزى تصرُّف الرجال مثل هذا التصرف إلى النصائح التي تلقَّوها في صِغرهم على أن يكونوا أقوياء العزائم ظاهري الإرهاب، وألا يُفكِّروا في النساء مُطلَقًا، كما قيل لهم «إن الزواج هو الطريق السليم الوحيد للاقتراب من النساء.»

وفن الحب لا يقوم على قواعد وأحكام، ولا يمكن تعلُّمه تعلمًا صحيحًا من الكتب، بل هو نتيجة الوحي الشخصي والخبرة الشخصية، وإن كانت الكتب قد تُقدِّم بعض الإرشادات العامة. وفن الحب هو فن إرضاء النساء من الناحية الجنسية، وعلى الرجل أن يخلق في زوجته الرغبة في الحب والاتصال الجنسي. ومن عادة المرأة بالطبيعة والغريزة أن ترغب في جعل نفسها جذَّابة للرجل، وهي تُحاول إرضاءه بشتَّى الوسائل. وهذا مُشاهَد في الحيوان كالطيور.

وحين نتكلَّم عن فن الحب من العسير أن نفصل الناحية الروحية من الجسدية، وخطأٌ كبيرٌ أن نُحاول ذلك، وهناك عددٌ كبير من الرجال الجاهلين الأنانيين المُتوحِّشين لا يُجهِدون أنفسهم في دراسة الناحية النفسية أو الروحية للحب، والمرأة لا تتُوق إلا إلى الرجل الذي يتُوق إليها دائمًا، حتى ولو كانت أسيرة بين ذراعَيه. وإذا ما قالت المرأة للرجل: «أنت تريدني، ولكنك لا تستطيع مُلاطفتي وتدليلي، ولا تستطيع معرفة ما أريد.» معنى ذلك أن هذا الرجل قد خسر هذه المرأة؛ فالحب في الواقع فنٌّ دقيق لا يصلح له ولا يُتقِنه جميع الناس.[١]

وتنمو رغبة الرجل في الحصول على المرأة سريعًا، غير أن رغبة المرأة في الحصول على الرجل تنمو تدريجًا، وهناك من النساء من لا تشعر بمتعة الاتصال الجنسي إلا بعد الزواج بشهور أو سنين، أو بعد وضع عدد من الأطفال، وهي لن تشعر بهذا إلا مع رجل تُحبُّه حقًّا.

والاختلاف بين النساء من الناحية الجنسية أعظم منه بين الرجال، وليس فن الحب مجرد اتفاق شفوي بين رجل وامرأة، ومثل هذا الاتفاق لن تكون له قيمة تُذكَر، وهو ليس مجرد عرض وقبول بسيطَين. ومن المؤسِف حقًّا أن يتمَّ الاتفاق على مسألةٍ حيويةٍ خطيرة كالزواج يتقرَّر فيها مصير اثنين، دون البحث والدرس الهادئَين والتفكير المتَّزِن العميق فيما يتعلق بالمستقبل، وبخاصةٍ أن العلاقات الجنسية لا تُدرَس بالأرقام ولا بالقوانين الحسابية. وفي كثير من بلاد العالم تكون المرأة هي التي تختار زوجها، وحين تكون الناحية التجارية بارزة في الزواج يقوم الرجال أيضًا باختيار الزوجة. وليس في فن الحب ما يسع تصريحات واعترافات تنطوي على الرسميات؛ فالغريزة الجنسية تنفر من الطلبات الرسمية الجدية. إن طلبات الحب لا تُصاغ في كلمات، ولا تُلبَّى في عبارات، وإذا أريد دوام الحب فلا بد من التكهُّن الدقيق، وعلى الرجل أن يكون يقظًا لما تحتاج إليه المرأة من الناحية الجنسية، وعليه أن يبذل جهده في تأمين مسرَّتها وتمتُّعها وإشباع عواطفها، وعلى الرجل احترام المرأة، والمَثل الشائع يقول: «ولا تُرجم المرأة ولو بزهرة.» وليس على المرء أن يتبع السرعة في الحب وفي إثارة العواطف، وقد أكَّد الأطباء والكُتاب عن الاتصالات الجنسية وجوبَ إثارة تلذُّذ الأعضاء الجنسية. وإذا نجح الزوج بالدراسة

[١] الدنيا الجديدة.

الدقيقة في فهم عروسه الشابَّة، وأدرك سعادتها وأحلام شبابها؛ أحبَّته، وأصبح سيدها ومالكها حتى النهاية. وإذا أخفق في ذلك ضاعت جهوده في سبيل إرضائها عبثًا، وعندئذٍ يضعها في مصافِّ النساء الباردات غير المُكترِثات، ويعدُّها زوجته بحكم الواجب، وعلى أنها أم لأولاده، أما إرضاء حاجاته الجنسية فيبحث عنه عند غيرها من النساء. ومِثل الرجل في هذه الحال مثل الموسيقي الذي يُبدل قيثارته بغيرها؛ آمِلًا أن يعزف على الجديدة اللحن الذي خاب في عزفه على القديمة.

ففن الحب إذن موجود، والصلات الجنسية أبعد من أن تكون مجرد أعمال جسدية تُنفَّذ بقوة العضلات. إن الاتصال الجنسي ليس الحب، بل بدايته، وخصوصًا عند النساء، وليس بلوغ حد الكمال في الحب، وهو في الغالب نهاية الحب عند الرجل، وهو بدايته عند المرأة؛ هو عندها تجربة في الثقة والاطمئنان، ومقياس للمسرَّات في المستقبل، واشتباك للود المُقبِل؛ فالمرأة لا تُقدِّم جسدها وروحها إلى الحبيب في مرةٍ واحدة، أو في لحظةٍ واحدة، بل تدريجًا في بطء. إنها مُستعدة بطبيعتها للقيام بدورها في فن الحب، وقد يكون دور الرجل صعبًا، ولكنه مع ذلك بسيط بعض البساطة؛ فالمرأة تُحاول دائمًا التوفيق بين حشمتها ووقارها وبين رغباتها، فعَليها والحالة هذه أن تسير في طريق معقَّد غير مباشر أو صريح. وهكذا تجد المرأة نفسها مضطرَّة إلى الظهور في شخصية معقَّدة مُزدوجة فنية بطبيعتها.

وليس دور الرجل في فن الحب بسيطًا كما يُظنُّ؛ لأن الرجل رغم أنه لا يُطلب منه أن يكون ذا شخصية مُزدوجة، إلا أن عليه أن يكون على جانبٍ كبير من الفِراسة والتكهُّن. والرجل ليس مُعدًّا بطبيعته لهذه المهمة؛ إذ إن ميزته الجنسية ترتكز على القوة أكثر منها على الفِراسة والتكهُّن وبُعد النظر. إن واجب الرجل في الحياة هو السيطرة، وحب السيطرة هذا هو الذي يجذب المرأة نحو الرجل، وهي حقيقة إذا تمادى الرجل في الاعتماد عليها ضلَّ السبيل في فن الحب؛ فالعنف مُضرٌّ في كل فن، وفي فن الحب ترغب المرأة في أن تُجذَب إلى الحب لا أن تؤمَر بأن تُحبَّ، وهذا أمرٌ جوهري. صحيحٌ أن المرأة تُعجَب بقوة الرجل، بل إنها ترغب في أن تُكرَه على قبول بعض الأمور أو القيام بها بشرط أن تكون أمورًا تُحبها، ولكنها تُكرَه أن تؤمَر خارج هذا النطاق الضيق؛ فعلى الرجل إذن أن يتكهَّن ويتفرَّس، فيعرف الظرف المُناسب لاستخدام القوة في الحب في أمرٍ تتفق فيه إرادته مع إرادتها. وهنا يقع خطر تمادي الرجل في حب السيطرة؛ ذلك أن عدد الرجال والنساء الذين يخوضون بحر الحب الخِضم، ويصلون إلى البر سالمين، قليلٌ جدًّا.

والزواج هو نظامٌ اجتماعي عظيم، والتناسل هو غايته الاجتماعية العظيمة من الناحية الاجتماعية العامة، وهو الواجب الأول لهذا النظام، إلا أن الزواج والتناسل يقومان على الحياة الغزلية أو الغرامية، وإذا لم تكن هذه الحياة سليمةً صحيحة انهار الزواج عمليًّا إن لم يكن صوريًّا، وعندها يجري التناسل في ظروفٍ غير مُلائمة، أو لا يجري مُطلَقًا؛ إذن فهو حيوي جدًّا بالنسبة للمجتمع، على أن تقوم الحياة الغرامية على أُسسٍ صحيحة مَتينة حتى تعمَّ السعادة الأُسَر والمجتمع.

ومن واجب الزوج أن يُحقِّق إرضاء حاجات الزوجة الجنسية وإشباع غريزتها، وإلا أدَّى ذلك إما إلى مرضٍ عصبي أو ضعفٍ جسدي، بالإضافة إلى انهيار صَرْح الحياة الزوجية عندهما. وعلى الزوج أن يتجنَّب ترك الزوجة قبل أن يُطفئ غريزتها، بل عليه أن يُرضي رغبتها الرضا الكامل. ولا يخفى أن الاتصال الجنسي هو من أركان فن الحب.

محور فن الحب

ينطوي فن الحب على اكتشافٍ مستمر لمزايا المرأة والرجل، وهو فن الإبقاء على الحب أكثر منه إيقاظًا وإثارة له، ويقول بعضهم: «إن بقاء الزوج إلى جانب الزوجة على صورةٍ دائمة قد يؤدِّي إلى فُتور الحب بينهما.» وفي هذا شيء من الصحة إذا كان الحب بينهما لا يقوم على أُسسٍ عميقة مَتينة، أما إذا كان الحب قويًّا راسخ الأسس ثابت الأركان، فيكون القرب غذاءً للحب وللسعادة الزوجية. ويقول أرباب الرأي الأول: «إن غياب الزوج أو الحبيب عن الزوجة أو الحبيبة في فتراتٍ مُتقطعة، تجعلهما يتذوَّقان في كل لقاء طعم شهر العسل؛ وبهذا يستمر معهما مدى الحياة.» ولكن كما أن لدوام القرب أخطاره في نظر هؤلاء، فللغياب أخطاره أيضًا، وقد يخلق الغياب الغيرة عند الزوجة أو الزوج، والغيرة مسألةٌ حيوية في فن الحب، وهي عاطفة أو شعور ينطوي على الخوف من فقد شيء عزيز يغتصبه منه مُنافس، هو شعورٌ مُناوئ للروح الاجتماعية، ولو أنه يُعدُّ من قِبل بعضهم سببًا في نمو الإخلاص والعفة. وقد تكون الغيرة سببًا في إثارة العذاب والقلق، ولكنها قد تخدم أيضًا نمو الفضائل الجنسية وتصونها، وقد تُحوِّل الغيرة البيوت الهانئة السعيدة إلى جحيم من الشِّقاق والكراهية، بل قد تهدمها. هناك أزواجٌ يكرهون من يبتسم لزوجاتهم، وأخرياتٌ يغَرْن من رفيقاتهنَّ، وآخرون من اهتمام زوجاتهم بأولادهن، وهناك زوجات يغَرْن من رفقاء أزواجهنَّ، أو من كل امرأة، وربما من كلاب أزواجهن، ويعتقدن أن واجب الزوج، إذا كان يُحب زوجته حقًّا، أن يكون وقفًا عليها دون غيرها، كما يعتقدن أن من واجب الزوج إبداء الإعجاب بزوجته فقط دون سواها، وأن يقطع علاقاته مع أصدقائه القدماء، وألا يتخذ أصدقاء جُددًا. والحقيقة أن الغيرة لا تحرم صاحبتها أو صاحبها من الاستمتاع بقسطٍ أوفر من الحب، بل على النقيض قد تصبح مكروهة أو

يصبح مكروهًا من جرَّاء هذه الغيرة المُتعِبة. والغيرة قد تُشجِّع الرياء والنفاق بين الزوج والزوجة، ومهما كانت ميزاتها ونقائصها فهي لا تتفق مع اتجاهات الحضارة الحديثة.

الحب والإنصاف من الدعائم الشريفة للزواج الحديث، فيجدر أن يكون كلٌّ من الزوجة والزوج بعيدًا عن الكذب والخداع، عميق الثقة، مُخلِصًا مُقدِّرًا للظروف.

والإخلاص هو السبيل الوحيد لقمع الغيرة.

وثمَةَ مسألة الزواج بامرأةٍ واحدة، وضرر تعدُّد الزوجات والصديقات. إن أضعف ناحية وأخطرها في الزواج من واحدة هو الاتجاه نحو الانزواء عن المجتمع على حساب العالم الخارجي، ولا شك أن الأسرة عاملٌ اجتماعي ذو أثر عظيم في إنجاب أطفال يصبحون من مُواطني المستقبل، إلا أنها من ناحيةٍ أخرى، وبمعنًى خاص، عاملٌ مُقاوم للروح الاجتماعية؛ لأنها تميل إلى استغلال قسم كبير من الجهود التي يحتاج إليها المجتمع حين يكثر النساء ويحتجن إلى العائل، وحين يقلُّ المواليد ويفنى الشبان في الحرب، ويحتاج المجتمع إلى كثرة المواليد.

الجريمة والشذوذ الجنسي

تشغل الرأيَ العام من حين إلى حين جريمةٌ من الجرائم الجنسية، فيُقبِل الناس على أنبائها مُتهافتين، يترقَّبونها في الصحف والمجلات، ويتلمَّسونها في المجالس الخاصة والعامة، ويجعلونها موضع سمرهم وحديثهم، ويحفلون بتفصيلاتها في كل مناسبة، ويُديرون ذِكرها في كل مكان، ويكون لكل إنسان فيها رأي، ولكل مُتحدِّث عليها تعليق. وقد تقوم في بلد من بلاد الله عصابةٌ مسلَّحة تُهلِك الزرع والنسل، وتعيث في الأرض فسادًا، فلا تنال من اهتمام الناس مثل ما يناله رجلٌ فرد الْتوَت به غريزته الجنسية مثلًا، فأصابه من الشذوذ والانحراف ما يجعله يقتل فريسته بعد أن ينال أربه منها، كما حدث منذ سنوات في فرنسا، وكما حدث في الإسكندرية منذ بضعة أعوام، إذ رُوِّعت بسلسلة من الجرائم الغامضة المُتشابهة، التي قيل إن بطلها كان واحدًا من هؤلاء الشواذ «الساديين».

أما الساديَّة فهي انفعالٌ جنسي مصحوب بالرغبة في التعذيب واستعمال العنف والقسوة مع الجنس الآخر. وأما الماسوكية فهي على عكسها؛ هي انفعالٌ جنسي مصحوب بالرغبة في الاستسلام المُطلَق لسيطرة شخص من الجنس الآخر، والوقوع تحت تأثيره، والشعور بلذةٍ فائقة في تلقِّي كل مسبَّة وإهانة تصدر عنه. هذا وإن «السادية» منسوبة إلى رجلٍ فرنسي يُدعى الكونت دي ساد، أصابته في شبابه مشكلاتٌ جنسية خطيرة انحرفت بغريزته ذلك الانحراف الذي جعله لا يستكمل نشوته عند اجتماعه بمن كان يتصل بهنَّ من النساء إلا إذا أمعن في تعذيبهنَّ وضربهن بطريقةٍ وحشية. أما «الماسكوية» فإنها تُنسَب إلى ماسوك النمسوي الذي نشأ أيضًا من الناحية الجنسية نشأةً خاطئة أثَّرت في مستقبله ذلك التأثير الشديد، وكانت السبب الأكبر في انحرافه الجنسي الذي ابتُلي به، حتى قيل عنه إنه طلب إلى زوجته الأولى عقب زواجه منها أن تضربه بالسوط، فلمَّا لم تُجِبه إلى طلبه اقترح عليها أن يقوم الخادم بضربه بدلًا منها. وكان يقوم بنفسه بإعداد السوط

الذي يريد أن يُضرَب به، فكان لا يكفيه في ذلك متانة خيوطه وقوة نسيجه، بل كان يضع في آخره كثيرًا من المسامير.

يرى «ألفرد أدلر» أن عقدة النقص هي أصل الشذوذ الجنسي على تعدُّد أنواعه؛ وذلك لأن من تُصيبه عقدة النقص في حياته النفسية يلجأ على الدوام إلى البحث عن خير الطُّرق لتغطية نقصه؛ ذلك أن «عقدة النقص» في ذاتها تعتري معظم الناس بسبب عدم إمكان بلوغ مراتب الكمال من جميع النواحي في هذه الحياة الدنيا. ولما كان كل إنسان لا يخلو من صفةٍ تنقصه، فإنه يشعر بنوع من الضعف قد تتولَّد عنه «عقدة النقص». وليس في ذلك على الإنسان من بأس إذا استطاع أن يتخلَّص من هذه العقدة بطريق التسامي والتعويض؛ فقد كان نابليون قصير القامة ضعيف الجسم رقيق الحال في وسطٍ كانت مظاهر الأرستقراطية قد بلغت فيه ذروتها، فلم يمنعه ذلك أن يعمل على تعويض نقصه بالعكوف على الدرس والطموح إلى المجد، وقد نال عن هذا الطريق كل ما كانت تصبو إليه نفسه، وكان إذا ذُكِر اسمه بعد ذلك لم تنصرف أذهان الناس إلى قِصر قامته وضعف بِنيته وفقر أسرته، وإنما انصرفت إلى علوِّ همته، وإلى نبوغه في الفنون الحربية وغيرها. فعقدة النقص لا ضَيْر منها، وإنما الذي يضير هو الاستسلام لها، والقعود بها في مواطن الذلة والهوان التي تُوحي بها إلى النفس.

وقد يحدث لمن تُصيبه هذه العقدة أن يعمد إلى أسهل الطُّرق للفرار من تأثيرها المهين، وذلك بأن يحجز نفسه عن معظم نواحي المجتمع، وأن يُبالغ في الحياة الجنسية. ومن المُشاهَدات ذات الدلالة أن المُبالغة في الصلات الجنسية كثيرًا ما تُشاهَد بين الأشخاص الذين تُوجَد فيهم الغريزة المُلتوية، كمن يُمارسون عادة الاتصال بشخص من جنسهم، وهم في الواقع يُسرفون في ميلهم إلى هذا الالتواء ليضمنوا بهذا الإسراف عدم اضطرارهم إلى مواجهة مشكلة الحياة الجنسية العادية التي يرغبون في تجنُّبها، ويغلب على هؤلاء أن تتكوَّن عقدة النقص فيهم بسبب اعتقادهم أنهم غير قادرين على أن يجعلوا أنفسهم موضع اهتمام الجنس الآخر، ويمكن تتبع عقدة النقص فيهم إلى سن الطفولة.[1]

ويروي «أدلر» للتدليل على صحة هذا الرأي حالةَ رجل اتُّهم بالسادية وبتعذيب الأطفال، ولما بُحِثت حالته تبيَّن أنه كانت له أمٌّ ذات بطش وسطوة، وأنها في طفولته

[1] مقال حسن بك جلال في «الثقافة».

لم تكن تفتأ تُعنِّفه وتقرعه على ما كان يجترح من حماقات الطفولة، وعلى ما لم يكن يجترح أيضًا. وعلى الرغم من أنه كان في مدرسته تلميذًا طيِّبًا ذكيًّا، فإن أمه لم تكن تُعِير نجاحه هذا أي التفات؛ إذ لم يكن يعنيها إلا تعقُّب سقطاته وإذلاله من أجلها بالكلام القارص والتقريع المهين، فاضطر الصبي أن يُخرِج أمه من نطاق عواطفه العائلية، ونفَر منها، ولم يكن يشعر بأي ميل نحوها. وكثيرون من أعداء المرأة يمكن فهم عداوتهم على ضوء هذه المعلومات، فإن من يُنكَب بمثل هذه الأم تشبُّ معه عقيدة أن النساء قاسياتٌ جاهلات، ويرمي الجنس كله بداء بعض أفراده، ويستقر في نفسه أن الاتصال بالنساء لا يمكن أن يكون مصدر سرور، وأنه يجب ألا يتعدَّى الضرورات القصوى. وكان هذا الرجل من النوع الذي يهتاج جنسيًّا إذا خاف، فكان يبحث عن الظروف التي تُبعد عنه الخوف. ومن المألوف في مثل هذه الحالة أن يلجأ الإنسان إلى النقيض. ونحن نرى الطفل الذي يخاف من الظلام مثلًا يرفع عقيرته بالغناء أو نحوه ليُطارد أشباح تلك الظلمة التي تُرهِق خياله، كأنما يريد بصياحه أن يقول: «أنا هنا! وهذا صوتي الجهوري يدل على قوَّتي، وإنه لن يستطيع أحدٌ أن ينال مني!» فكذلك يحدث مع من تملَّكته هموم الخوف الأخرى أيًّا كان مصادرها، فهو يُحاربها باصطناع العنف، وتقترن عاطفته الجنسية بالرغبة في التعذيب والإيلام، وينقلب إلى تلك الحالة السادية. ويدلُّ هذا المثال الذي ضربه «أدلر» على مبلغ ما يؤدِّي إليه التدريب الخاطئ من نكباتٍ عائلية وخُلقية.

والواقع أن التربية الجنسية تكاد تكون معدومة عندنا وعند كثير من الأمم غيرنا، مع أن هذه التربية تجيء في المرتبة الأولى من حيث أهميتها لتكوين النشء، ومن حيث تأثيرها في مستقبل حياتهم.

فالعادة السرِّية مثلًا التي أفاض الكثيرون في بحثها في المجلات المختلفة، قد يكون الوالدان هما سببها الأول والأخير بسوء تصرُّفهما مع طفلهما الذي قد يعبث بحسن نية في بعض أجزاء جسمه من باب العبث المجرد أو حب الاستطلاع العادي، فيأخذهما الذُّعر لهذه الحركة، ويُخاطبان الطفل في شأنها بعقلَيهما البالغين، وينهرانه عن العودة إلى ما كان فيه، ويُشدِّدان عليه في ذلك، ويعملان على مراقبته، فيُوجِّهانه بذلك إلى ما كان عنه غافلًا وبه جاهلًا، ويدفعانه دفعًا إلى مُمارسة عمل كانت كل رغبتهما في أن يحُولا بينه وبين إتيانه. وقد وصل الأمر في حالة من الحالات إلى حدِّ أن قام الوالدان بربط يدَي الطفل ورجلَيه كلما أوى إلى فراشه، فكان ذلك سببًا في تركيز اهتمام الطفل بأشد صورة ممكنة إلى الاتجاه الذي كان الوالدان يرغبان في صرفه عنه. ومن المتفَّق عليه بين جميع الباحثين

في هذه الشئون أن علاج مثل هذه الحالة إنما يكون في تحويل اهتمام الطفل إلى نواحٍ أخرى بتهيئة وسائل التسلية التي تشغله عن جسمه، وبتوفير ميادين النشاط واللعب التي تصرفه عن التفكير في لهوٍ رخيص كالذي تلهو به اليد الفارغة.

ومن المُجمَع عليه أيضًا أن المشكلات الجنسية التي تُعانيها نسبةٌ مئوية كبيرة من الرجال إنما ترجع إلى أسبابٍ نشأت في عهد الطفولة. وليس الأمر في كل الحالات راجعًا إلى سوء تصرُّف الوالدَين أو سوء توجيههما؛ فقد أورد الأستاذ القوصي في كتابه «أسس الصحة النفسية» حالة رجل كان يشكو مشكلةً جنسية معقَّدة لم يستطع معها أن يجتمع بزوجته اجتماعًا طبيعيًّا؛ ممَّا أدَّى إلى انفصاله منها، وقد حاوَل الزواج أكثر من مرة، ولكنه كان في كل مرة ينتهي إلى النتيجة نفسها. وبدراسة حالته تبيَّن أنه رجل في العقد الرابع من عمره، وأنه ينتمي إلى أسرةٍ مُحافِظة مُتدينة، لم يكن يجري حديث أفرادها إلا في أطهر الموضوعات، ولم تكن تشير هذه الأحاديث أدنى إشارة إلى شيء من الجنسيات ومسائلها أو مشكلاتها، بل كانت تستنكر هذه الموضوعات استنكارًا شديدًا؛ فنشأ الولد في هذا الجو لا على احترام أمه فحسب، بل على تقديسها أيضًا؛ ممَّا جعله يرى في زوجته صورة تلك الأم؛ فكان يخفق عند محاولته الاجتماع بها إخفاقًا تامًّا. ولم يكن مردُّ ذلك إلى علة في جسمه؛ فقد ثبت أنه كان يُحسِن الاجتماع بالمُومِسات ومن في طبقتهنَّ. ومن الواضح أن ذلك كان لبُعْد الشبه بينهنَّ وبين أمه. ولقد تبيَّن من استقصاء هذه الحالة أن هناك عاملًا آخر كان له أثره في دعم صلة هذا الرجل بالمُومِسات خاصة؛ وذلك أنه في دور مُراهقته كان قد وقع في أزمةٍ عصبية بسبب حالة العفة المُطلَقة التي نشَّأه عليها أبواه، فأشار عليه صاحب سوء أن يلتمس الترفيه عند المُومِسات. وهي أروج النصائح انتشارًا بين الشبان الذين يتخلَّى عنهم أهلوهم، ويتركونهم للخدم وأصحاب السوء ليُفقِّهوهم في هذه المسائل. فكان من ذلك أن أثر الصورة الأولى التي ارتبطت في ذهنه بتلك العملية كانت صورة المُومِسات. وقد زاد في حالة هذا التعِس تعقيدًا أن خطيبته الأولى لم تكن تميل إليه، وكان هو يُحس ذلك ويشعر به شعورًا واضحًا؛ فانعقدت من أجله ومن أجل سائر الأسباب السالفة تلك العقدة الخبيثة التي أفسدت عليه حياته المشروعة.

وإذا كانت الغريزة الجنسية حين تنحرف ساديةً مُجرمة تقترن بارتكاب الجرائم الشائنة التي تمقتها قوانين الأرض والسماء، فإننا نودُّ أن نشير إلى ما بين الجريمة والغريزة والجنسية على إطلاقها من روابط، سواء كانت هذه الغريزة مُلتوية أو غير مُلتوية؛ فقد شُوهِد أن الجريمة كثيرًا ما تقترن بتهييجٍ جنسي، ويقول النفسيون في تفسير

ذلك إن المُجرم يجد نفسه بعد ارتكاب جريمته مُجهَدًا مكدودًا مُتعَب الأعصاب، توَّاقًا إلى الترفيه عن نفسه، والتخفيف من حدَّة هذا التوتر الذي اعترى أعصابه، ثم هو فوق ذلك يريد أن يُقنِع نفسه بما له من قوة وسيطرة، وأن يُثبِت أنه لا يزال مخلوقًا قويًّا، لا نفسًا محطَّمةً ضائعة، ومن بواعث الارتياح أن رجال الشرطة يعرفون على الأقل هذه الحقيقة؛ فإنك لتراهم يتَّجهون أول ما يتَّجهون في البحث عن المُجرِمين إلى دور الساقطات، وفي تلك المراتع الوخيمة كثيرًا ما تظفر هداهدنا البشرية بديدانها الزرية التي تنشُدها وتتشمَّم ريحها وتنقب عنها.

العلم يكشف ضمائر المُجرمين

النفوذ إلى ضمير المُجرم، وحمله على الاعتراف بفعلته، كانا ولا يزالان غرض المُحاكَمات الجنائية في العصور القديمة والعصور الحديثة على السواء. وقد كان المُجرم يتعرَّض في العصور القديمة لألوان من التعذيب يقشعرُّ لها الجسم لِما تنطوي عليه من قساوة ووحشية، ولا يزال بعض هذه الوسائل شائعًا في بعض البلدان بعد تعديله تعديلًا يسيرًا، بل إن المجتمع الإنساني نفسه لا يكاد يُصدِّق أن هناك وسائل أخرى لاستلال سر المُجرم من بين فكَّيه، أشدَّ رأفة به وأفعل أثرًا من وسائل التعذيب المشهورة.

ولكن العلم اختطَّ طريقًا في ميدانٍ ظنَّه الناس مُمتنعًا على العلم، فاستنبط العلماء أساليب جديدةً أرأف بالمُجرمين، وأهدى إلى الغرض المقصود في أقصر وقت طويل عليها، قبل أن يصبح سلاحًا مشروعًا من أسلحة رجال النيابة والمحاكم.

كذب المتَّهَم من ضغط دمه

ولعل أشهر هذه الأساليب العلمية الجديدة وأفعلها آلةٌ تُعرَف بِاسم «بوليغراف كيلر»، وهي آلةٌ غرضها الكشف عن كذب المُجرم وامترائه عند التحقيق، والمبدأ الذي بُنيت عليه هذه الآلة هو قياس ضغط الدم؛ فهي لا تختلف في أركانها عن الجهاز الذي يستعمله الطبيب لقياس ضغط الدم عند مريض يخشى تصلُّب الشرايين، ولكن بدلًا من الإبرة المُتحركة في الجهاز الخاص لضغط الدم، هناك ريشةٌ ترسم خطًّا على ورقةٍ مُنسابة من لفَّة ورق مُتحركة، فيجلس المتَّهَم وهذه الآلة ملفوفة على ذراعه، فيُوجِّه إليه الباحث الأسئلة في صوتٍ طبيعي لا تجهُّم في وجهه ولا تهديد في نبراته، فيُجيب عنها المتَّهَم بما يراه، وكلما أجاب كذبًا ارتفع ضغط دمه، وظهر أثر هذا الارتفاع في الخط الذي ترسمه الريشة على الورقة المُنسابة.

ولكنك قد تسأل: «لماذا يرتفع ضغط الدم حين يقول كذبًا؟» أو «لماذا يؤخذ ارتفاع ضغط الدم دليلًا على أن المتَّهَم يمتري في جوابه؟» إن سر الجواب عن هذا السؤال في التغيرات الفسيولوجية التي تطرأ على الجسم عندما يكون مُتأثرًا أو مُنفعلًا انفعالًا عنيفًا؛ فالإنسان إذا واجَه خطرًا ما، استعدَّ جسمه من الوجهة الفسيولوجية لدفع الخطر، فتُطلَق الكُريات الحُمْر من الطِّحال إلى مجرى الدم، حيث تتصل بالمُفرزات التي تُفرزها الغُدد الكلوية وغيرها من الغُدد، وغرضها جميعًا أن تبعث في الجسم النشاط للكفاح أو للفرار. فكأن أعضاء الجسم تبعث في الجسم نشاطًا غريبًا عندما يُواجه خطرًا يُهدده، فينشأ من هذا كله زيادة خفقان القلب، وارتفاع ضغط الدم في الشرايين.

فإذا واجه الإنسان خطرًا مُتمثلًا في سؤالٍ موجَّه إليه عن جريمة من الجرائم، كان الأثر الأول الذي يُحسُّ به الخوف من الكشف عن صلته بملك الجريمة؛ لأن هذا الكشف يُفضِي إلى مُعاقبته بالغرامة أو بالسجن أو بالتشهير أو بالإعدام، فتُسعِفه جميع أجهزة جسمه للدفاع عن نفسه. وهذا الدفاع يتخذ في هذه الحالة شكل محاولة التستُّر على فعلته، أو الكذب في الرد على السؤال الموجَّه إليه.

ولكن مهما يبرع المُجرم في كَبْت انفعاله، حتى لتبدو آثاره في نظره وكلامه وحركاته؛ فإنه لا يستطيع أن يمنع استعداد قُوى جسمه الداخلية لهذا الدفاع. وهذه الآلة الجديدة تستطيع أن تُبيِّن أثر كل هذا في ضغط دمه، فترى الريشة ترسم خطًّا مُتعرجًا شديد التعرُّج، عند ذلك يُبادر المُحقق إليه، فيطلب منه أن يُفسر هذا التقلب الغريب في ضغط دمه. وفي ٧٥ في المائة من الحوادث ينصرف المتَّهَم عن محاولة الإنكار إلى الاعتراف، حين يرى هذا الدليل المادي الذي يُثبِت أنه يُخفي شيئًا. فإذا أصرَّ على الإنكار وُجِّهت إليه أسئلةٌ أخرى مُتفرقة ومنوَّعة، ومن أثرها في ضغط دمه يستطيع الباحث أن يهتدي إلى بياناتٍ تقُوده إلى الحقيقة. فالآلة تُبيِّن صِدق المتَّهَم وكذبه. وقد جُرِّبت حتى الآن في ١٥٠٠ حادثة، فأصابت فيها جميعًا.

الجسم يُفشي سر العقل

وثمَةَ طريقةٌ أخرى استنبطها الأب سمرز، أحد أساتذة جامعة فوردهام الأمريكية، تُدْعى «سيكوغلفانومتر»؛ أي المقياس الكهربائي النفسي. وهي مبنية على أساسٍ كهربائي، فيُمسِك المتَّهَم بقطعةٍ معدنية بيده، ثم يسري تيارٌ كهربائي ضعيف في جسمه مستمَدٌّ من بطاريةٍ واحدة، وإذ يكون في هذه الحالة تُوجَّه إليه الأسئلة المطلوبة، بعضها لا صلة له بالموضوع

المطلوب البحث فيه، وبعضها له صلة وثيقة به. فإذا سئل سؤالًا له صلة بالموضوع، وكان على علم بذلك؛ يحدُث شيءٌ غريب في جسمه. فإذا كان على صلةٍ إجرامية بالموضوع حُفزت غُدَد العَرق فيه إلى إفراز العرق مُتأثرة باستعداد قُواه الداخلية لدفع الخطر عن جسمه. وهذا العَرق الذي يُفرَز قليل، ولكنه كافٍ لتغشية القطعة المعدنية القابض عليها، فيكفي، فتقلُّ مُقاومته للتيار الكهربائي الساري في جسمه. وهذه القلة تظهر في الحال على جهازٍ خاص بذلك. ومن المستحيل أن تحتال على هذه الآلة؛ لأنه إذا رفض المتَّهَم أن يُجيب عن السؤال الموجَّه إليه يعجز عن السيطرة على غُدَد العرق فيه، فلا يستطيع أن يمنعها عن إفراز عرقها، فكأن إفرازها صوتٌ صارخ في وجهه، وشاهد على فعلته.

وقد ذهب أحد الكتاب العلميين إلى الأب سمرز، وطلب إليه أن يُجرِّب آلته هذه فيه، فجرَّبها بأن أتى بمجموعة من ورق اللعب، وطلب إليه أن يختار إحدى ورقاتها، وأن يُعيد الورقة إلى المجموعة، ثم اختيرت تسع ورقات أخرى، وضُمَّت إلى هذه الورقة، وعُرِضت على الكاتب، وسئل في كل ورقة منها هل هي الورقة التي اختارها، فأجاب «لا» على الورقات العشر. وأُعيدت هذه التجربة ثلاث مرات وهو يجيب «لا» إجابةً مطردة، فما كان من الآلة إلا أن دلَّت على الورقة التي كذب في الإجابة عنها بزيادة سريان التيار الكهربائي في جسمه. وأخيرًا اعترف الكاتب بأن الورقة كَيْت هي الورقة التي اختارها، وأنه أجاب كذبًا لما عُرِضت عليه مع سائر الورقات.

فقال له الأب سمرز: «إذا كان هذا مبلغ فعل الآلة في حالة الكذب عن ورقةٍ لا شأن لها، فكيف بها والمتَّهَم يُحاول أن يُخفي جريمة أو فعلةً شنعاء؟!»

حقنة الحقيقة ومصلها

لقد ذكَرنا حتى الآن الأساليب العلمية التي تُمكِّن البحَّاث من تبيُّن الشعور بالإثم أو بالإجرام، ولكن بعض علماء الإجرام يُسلِّمون بأن أكثر هذه الوسائل لا يكفي لانتزاع الاعتراف بالجريمة من فم المُجرم، وجلُّ ما تُمكِّنهم منه هو تهيئة الظروف لهذا الاعتراف، وهذا قد ينجح في بعض المُجرمين، ولكنه في الغالب يُخفِق في حالة المُجرمين الذين تعوَّدوا الآلة؛ ولذلك استنبط العلم لهذا الطراز من الجُناة مركَّب «السكوبولامين»، المعروف بمصل الحقيقة، وهو دواء يفعل فعلًا خفيًّا في الدماغ، فيعترف المُجرم بالحقيقة.

والسكوبولامين هذا عقارٌ مُستخرَج من السيكران أو الحشيشة الفارسية، اكتشفه الدكتور هوس، أحد أطباء ولاية تكساس، في عمليةٍ جراحيةٍ نسائية، فتبيَّن له أنه يُخدِّر،

أو يفعل فعلًا مُخدِّرًا في بعض مناطق الدماغ، ولكنه لا يُضعِف ذاكرة من يتناوله ولا سمعه ولا مقدرته على النطق. وبعد موالاة البحث تبيَّن أن منطقة الدماغ التي تتأثَّر به هي المنطقة التي تُمكِّننا من اختلاق الأقوال في سبيل الدفاع عن النفس. وكذلك كشف أن الإنسان الذي يُحقَن بالسكوبولامين يظل مُحتفظًا بجميع حواسه، ولكنه يفقد المقدرة على الاختلاق والكذب.

وقد جرَّبه العالم الإجرامي الأمريكي المشهور «الكولونيل كالفن غودرد»، فتبيَّن فِعله العجيب؛ ذلك أن الكولونيل غودرد طلب إلى أحد زملائه أن يردَّ على عشرين سؤالًا بسيطًا وجَّهها إليه، مثلًا: «هل تلعب البردج؟» «هل تتكلم الفرنسوية؟» ثم حقن هذا الزميل حقنة تحت الجلد بجرعة من السكوبولامين، فلمَّا فعل العقار فِعله في الجسم وُجِّهت الأسئلة نفسها إلى الرجل، فتبيَّن أنه كان صادقًا في ١٩ سؤالًا منها، وأما السؤال العشرون فكان: «هل قُبض عليك لمُخالفةٍ ارتكبتها بسيارتك؟» فكان جواب اليقظة التامة عليه: «لا.» وأما الجواب والرجل تحت فعل العقار المذكور فكان: «نعم، لما كنت طالبًا في المدرسة الثانوية في فرجينيا.» ولما استيقظ وسئل عن هذا التناقض، صرَّح أنه كان قد نسي كل النسيان تلك الحادثة إلى أن نبشها السكوبولامين من خبايا الذاكرة. وقد استعمل وكيل نيابة برمنجهام بولاية ألاباما هذه الحقنة للتوصل إلى سر سلسلة من جناياتٍ بلغ عددها خمسًا وعشرين، فضبط عصابةً مؤلَّفة من اثنَي عشر رجلًا، واستخدم هذا العقار في الاهتداء إلى حقيقتهم. ولما كانت المحكمة لا تُسلِّم بدليل من هذا القبيل، اعتمد على الحقائق التي انتزعها منهم وهم تحت العقار في الفوز باعترافٍ صريح.

بصمات الشفاه تكشف عن القاتل

هناك قضيةٌ أجنبية شغلت دوائر التحقيق في مصر في وقتٍ ما خلال الحرب، ولكن أحدًا لم يعلم بأمرها؛ نظرًا للكتمان الشديد الذي أحاط بها، شأنها شأن جميع القضايا الأجنبية التي وقعت أثناء الحرب، وهاك وقائعها:

تلقى بوليس قسم عابدين بلاغًا[١] من «عسكري مُراسلة» هندي الجنسية، كان يقوم بخدمة الكولونيل سمارت البريطاني، مؤدَّاه أنه حضر في الساعة السابعة صباحًا إلى منزل

[١] مقال الإثنين.

مخدومه كعادته، وفتح باب الشقة بمفتاحه الخاص الذي تعوَّد أن يحتفظ به، وانهمك حتى الساعة الثامنة والنصف في تنظيف أثاث المنزل، ثم خُيِّل إليه أنه سمع صوت الجرس ينبعث من حجرة السيدة «مارجو» زوجة مخدومه، فطرق الباب، ولَمَّا لم يُجِبه أحدٌ اقتحم الباب عَنوة، وأشد ما راعه أن وجد سيدته جثةً هامدة وملابسها ممزَّقة؛ ممَّا يدلُّ على أن القتل حدث بعد مُقاومة شديدة.

ثم ذكَر أنه ترك المنزل في الليلة السابقة حوالَي الثامنة مساءً، وكان به سيدته وبعض أصدقائها، ومنهم الطيار أول «جوني» من سلاح الطيران البريطاني، وأنه لما عاد في الصباح وجد كثيرًا من زجاجات الخمر والأكواب الفارغة وبقايا من فضلات الطعام.

وانتقل على الأثر رجال التحقيق، مأمور القسم وضابط المباحث ووكيل النيابة والطبيب الشرعي وموظف تحقيق الشخصية، إلى مسكن الكولونيل سمارت، وقد وجدوا الشقة كما وصفها العسكري الهندي. أما القتيل فقد وُجدت مخنوقة بخيطٍ رفيع، ومُلقاةً بهيئة تدلُّ على عنف المُقاومة التي أبدتها دفاعًا عن عِرضها.

وفي منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر، وفي أثناء انهماك المحقِّقين في عملهم، حضر الطيَّار أول «جوني»، فسأله رجال التحقيق عن سبب حضوره في هذه الساعة، فذكَر أن السيدة مارجو دعته في الليلة السابقة لتناوُل الغداء معها. وعند استجوابه قرَّر أنه كان مع القتيل حتى منتصف الثانية عشرة من الليلة السابقة، كما قرَّر أنها توجَّهت معه إلى محطة المترو، وأنها أعطته كتاب توصية لقائده للسماح له بإجازةٍ صغيرة؛ ليتمكن من تناوُل الغداء معها.

وفي خلال ذلك حضر الطبيب الشرعي، وقرَّر أن القتل حدث حوالَي منتصف الليلة السابقة، فاشتبه المُحقِّق في الطيَّار جوني، واستصدر أمرًا من البوليس الحربي بالقبض عليه رهن التحقيق.

ويشاء الاتفاق أن يهتدي موظف تحقيق الشخصية إلى فكرةٍ لا شك أنها عجيبة حقًّا؛ فقد أخذ في التقاط بصمات «شفاه» القتيلة، وكذلك بصمات الشفاه التي وُجدت مطبوعة على خدَّيها، كما التقط بصمات شفاه الطيَّار جوني والعسكري الهندي.

وفي ساعةٍ مُتأخرة من الليل، اهتدى الموظف إلى أن بصمات شفاه العسكري الهندي تطبق على البصمات المطبوعة على خدود القتيلة!

فأُلقي القبض على الهندي، وُوجِه بالجريمة فاعترف بها، وقال إنه لم يكن يقصد قتلها، وإنه حين اقتحم عليها مخدعها قاومته مقاومةً عنيفة، وعندئذٍ انتزع قطعة من

الخيط الذي يربط به محفظته، وشدَّه حول عنقها فاختنقت وماتت. وهذه طريقةٌ هنديةٌ معروفة، ثم ترك المنزل إلى القشلاق، وفي الصباح قدَّم بلاغه إلى البوليس.

وأُبلِغ الكولونيل سمارت زوج القتيل بالحادث، وذُكِر له اعتراف العسكري الهندي فذُهِل، ولكنه لم يلبث أن كتب إلى البوليس الحربي تقريرًا مطوَّلًا جاء فيه أن مُراسلنا الهندي في غاية الاستقامة والأمانة، وأن الدافع الوحيد الذي دفعه إلى ارتكاب هذه الفعلة هو سيرة زوجته المعوجَّة؛ فإن الهندي حين وجدها في حالة سُكْر شديد لم يستطع مُقاومة هذا الإغراء الصادر عنها، ولم يكن يقصد قتلها، ثم اقترح العفو عن العسكري قائلًا: «أوَليس بشرًا؟!»

عقدة أوديب والطفل بين أمه وأبيه

إن حب الطفل لأمه صغيرًا لا يدفعه إلى القتل كبيرًا إلا إذا اقترن بحقدٍ نحو الأب، وحين وُلِد الطفل وُلِدت معه عقدةٌ نفسية استعصى عليه حلها على الأيام، فأصبح يُعاني في قرارة نفسه ما يُسمِّيه رجال التحليل النفسي بـ «عقدة أوديب المرَضية»، وإليها يرجع كثير من متاعبه النفسية شابًّا وكهلًا، وقد تدفعه أحيانًا إلى القتل. والقتل في هذه الحالة لا يقع عادةً على شخص الأب بالذات، بل على شخصٍ آخر يتخذه العقل الباطن بديلًا للأب أو رمزًا له، يكون في الغالب مُشتركًا مع الأب في بعض الصفات أو المظاهر، أو في المنزلة أو المقام، كما هي الحال في القتل السياسي؛ وما ذلك إلا لكَوْن نزعات الطفولة الجامحة التي يُكنُّها المرء في سُوَيداء قلبه، لا تجرؤ على الخروج من وَكْرها إلى ميدان الحياة الشعورية سافرة؛ خوفًا من غضب الضمير ونقمته؛ إذ إن الضمير هو مُمثِّل المجتمع، ووريث آدابه وتعاليمه وتقاليده، فتبدو النزعة إلى قتل الأب مُقنِعة في زيٍّ مُستعار، كأن تلبس ثوب البطولة السياسية والتضحية لمصلحة الجماعة. وهي البواعث التي يتذرَّع بها عادةً المُجرم السياسي لتبرير موقفه من جريمته أمام ضميره وأمام الناس. فالمريض بـ «عقدة أوديب» يختار هذا الميدان، أي ميدان الجريمة السياسية، ليُنفِّس عن نزعةٍ طفليةٍ مكبوتة نحو قتل الأب بطريقةٍ تكفل له راحة الضمير. وهذا ما يُفسِّر سر هدوء نفسية هذا الفريق من المُجرمين بعد ارتكاب جرائمهم، وتبرير الموقف على مثل هذه الصورة التي تقوم على خداع الضمير ومُغالطته، وتُسمَّى في عُرْف رجال التحليل النفسي بـ «التبرير»، وهي من المظاهر المألوفة لدى المُصابين بالظواهر المرَضية، ولها نظير في حياتنا اليومية؛ إذ لا يعدم الإنسان حُجة أو مُسوغًا لعملٍ غير مشروع تشتهيه نفسه وتتُوق إليه. والتبرير في معظم الحالات يكون عمليةً لا شعورية يقوم بها العقل الباطن، وهي ترمي إلى تخدير الضمير والحيلولة دون يقظته، أو تسكين الألم حين يقظته.

فالأسباب الظاهرة التي يلجأ إليها المُجرم السياسي لتبرير مهمته هي مُبرراتٌ زائفة دبَّرها عقله الباطن، أما الأسباب والدوافع الحقيقية فهي مدوَّنة في قرارة نفسه، مكنونة في ظلام اللاشعور، فلا يدري عنها الشعور شيئًا، فيظن صاحبها أنه أقدم على فعلته بدافع البطولة والنعرة الوطنية، وما درى أن نزوات الطفولة وغرائزه البدائية هي المسئولة عن إجرامه حين كوَّنت في نفسه عقدةً مرَضية استوطنت مَغاور اللاشعور، مُتربصةً لتَحِين الفرصة المُلائمة للخروج مقنَّعة؛ ليتسنَّى لها أن تقضي لُبانتها، وتُحقِّق أغراضها من الحياة الشعورية في غفلة من الضمير.[١]

فكم من مُجرمٍ هذا شأنه، لو تنبَّه القائمون على أمره صغيرًا إلى ما يُعانيه في أعماق نفسه من أمارات الكبت المرَضي لمشكلات الطفولة، أمكن إنقاذه في الوقت المُلائم من السقوط في هذه الجريمة، بتحليلٍ نفسي يحلُّ عقاله من براثن عُقَده النفسية الخبيثة قبل أن يستفحل أمرها، ويستعصي داؤها، ويفلت من قبضة يده زمامها.

ومن الأمثلة على العقدة حادثُ قتل كان مطروحًا على محكمة جنايات بني سويف، دور مايو سنة ١٩٣٤.

وكان الأستاذ محمد شوكت التوني هو مُحامي المتَّهَم الذي ترافَع عنه أمام محكمة الجنايات، وقد تحدَّث عن السبب الحقيقي الذي دفعه إلى التورط في القتل، وقد حاوَل المُحامي جهده أن يُقنِع قضاة المتَّهَم بوجهة نظره، ولكن مع مزيد الأسف خيَّب القضاة ظنونه، وذهب الفتى المسكين ضحية جهل قضاته بحقيقة نفسيته. ونظرًا لأن الحادث يُعدُّ من خير الأمثلة المطبَّقة للنظريات العلمية فإننا نُورِد هنا مذكرة المُحامي:

مايو سنة ١٩٣٤

فرغت بالأمس من قضية «محمد ...» وصدر فيها الحكم بالأشغال الشاقَّة لمدة خمسة عشر عامًا، ولو كان في مصر نظام المُحلفين لقضى ببراءته، ولكان لقضيته دويٌّ في أنحاء البلاد.

وكَّلني عنه محمود أفندي التاجر بالقاهرة، وفهمت منه أن المتَّهَم شابٌّ من عائلةٍ ميسورة الحال بجهة المنصورة، وكان والده مِتلافًا مِزواجًا، وقد كان محمد وحيد والدته التي طُلِّقت من أبيه بعد حياة طويلة مُتواصلة العذاب،

[١] مقال المستشار الدكتور محمد فتحي بك «المصري».

وتُوفِّيت بعد نيله شهادة الكفاءة، وكانت صلته بوالده تكاد تكون مقطوعة، فعُيِّن في وظيفةٍ بسيطة بوزارة «...». وعرفت من محمود أفندي أن الشاب هادئ الأعصاب خافت الصوت قليل الاختلاط بالناس، وأنه ضعيف البِنية، ويُستبعَد أن يكون قد ارتكب في حياته جريمة قتل ذبابة.

لقد كان محمود أفندي من ذوي قُربى والدة المتَّهَم عن بُعْد، ولكنه كان يعطف عليه عطفًا شديدًا، وقد دفع الأتعاب من جيبه الخاص، وقد أكبرت فيه هذه العاطفة.

لقد قرأت القضية في ملف الجناية، وتتلخَّص في أن قسم بوليس بندر بني سويف أُبلِغ بوجود جثة رجل تنزف منها الدماء بإحدى شوارع المدينة في الساعة الحادية عشرة، ولم تُسمَع استغاثة، ولا وُجدت آثار تدلُّ على الجاني، وقد وُجد بالجثة أكثر من جرح. ورأى مأمور البندر بعد استئذان وكيل النيابة تفتيش البيوت المُجاورة؛ على فكرة أن الجريمة ارتُكبت في إحداها، ثم نُقلت الجثة، وقد تعرَّف بعض أهل الحي عليها، وعُرِف أنها لشخصٍ يُدعى «سليمان ...» من المُشتغلين بالسمسرة في الصفقات الزراعية والعقارية، وأنه ميسور الحال.

استُدعيت زوجة القتيل، فوُجدت بها آثار اعتداء شديد، ووُجد بطفل لها في الثالثة من عمره إصابات. وقد قرَّرت أن هذه الآثار نتيجة اعتداء زوجها عليها وعلى طفلها في الساعة العاشرة من مساء الحادث، وأنه ترك المنزل على الأثر.

فجأةً حضر مُعاوِن بوليس البندر ومعه سِكين تقطر دمًا، وشابٌّ هو المتَّهم محمد، وهو يسكن في المنزل المُواجه لسكن المجني عليه. ولما سئل عن التهمة أنكرها، وكانت السكين ممَّا يُستعمل في المنزل للطبخ، ولكنها كبيرة وحادَّة.

سار التحقيق، ووكيل النيابة حاوَل إيجاد علاقة بين المتَّهَم المُنكِر وبين زوجة المجني عليه البادي عليها آثار ضرب مُبرح.

شهد شهودٌ عديدون من الجيران والأقارب، فأجمعوا على أن المجني عليه كان سكِّيرًا مِتلافًا، وأنه كان دائم الاعتداء على زوجته، وذكرت سيدةٌ عجوز تسكن نفس المنزل أنه لا يمرُّ يوم لم تُضرَب الزوجة فيه! ولم يشهد شاهدٌ واحد عن قيام علاقة بين المتَّهَم وزوجة المجني عليه، غير تقرير من أحد كونستبلات البوليس، وكان مُنتدبًا للمباحث، ولعله أراد أن يُوجِد لنفسه شأنًا في القضية.

بقيَ المتَّهَم مُنكِرًا دون أن يُعلِّل وجود السكين الملوَّثة بدماء القتيل بمنزله، ولم يُعلِّل ما وُجد بملابسه من دماء. وقد ظهر من التقرير الطبي أنها دماءٌ بشرية، وأن السكين هي التي أحدثت جميع الجروح التي وُجدت بالمجني عليه.

فماذا يُجدي الإنكار؟ ولكن ما هو الدافع للقتل؟ لعله الحب، ومن الحب ما يدفع إلى القتل، وإلى ما هو أشنع من القتل.

لقد زُرتُ المتَّهَم في سجنه في اليوم السابق للمُحاكَمة، وأقنعته أن لا مصلحة له في الإنكار، على الأقل بالنسبة إليَّ، وإلا كان مجهودي عبثًا، فاعترف لي بالقتل، ولكنه أقسم لي، وهو يؤكِّد أن القتيل مقتول قصاصًا ممَّا ارتكب، أنه لم تكن بينه وبين زوجة القتيل أية علاقة، بل لم يُحدِّثها في يوم من الأيام، ولكنه كان يسكن في مُواجهة مَسكن المجني عليه منذ أكثر من ستة أشهر قبل وقوع الحادث. وقد لفت نظرَه ما يحدث من شجارٍ دائم بين الزوجَين، وما يراه دائمًا من اعتداء الزوج على زوجته بالضرب والإيذاء الشديد، ولم يكن يرى ما يُبرِّر هذا الاعتداء؛ فالزوجة قائمة على شئون منزلها لا تكاد تُفارِقه، مُنهمِكة في أمور بيتها، وخاصةً خدمة الطفل الصغير الذي كان وحيد والدَيه، ولكن الزوج سكيرٌ عِربيد.

ملحوظة: «لقد عاد الشاب المتَّهَم إلى طفولته، ورأى في هذه العائلة والده ووالدته وطفولته ممثَّلةً في الطفل الصغير. ولقد انجذب إلى مراقبة جيرانه، وكان يُحسُّ أنه واحد منهم؛ لأنه كان دائمًا يرى عائلته في صورة هذه العائلة. ولقد أحب الزوجة، رغم إنكاره ولعله لا يدري، حبًّا مُبرحًا؛ لأنه كان يُحبُّ أمه حبًّا مُبرحًا أيضًا. وقد كرِه الزوج كُرهًا مُضاعَفًا؛ لأنه كان يكره والده.»

لم يكن يشغل المتَّهَمَ شاغلٌ بعد عمله اليومي في وظيفته، فكان يأوي معظم وقته إلى مَسكنه، ومنه يرى صور التعذيب المُتتالية المستمرة في منزل الجيران، حتى استعرت نار العداوة في قلبه للزوج، وأصبح أكره الناس عنده وأبغض خلق الله إليه، وظلت هذه الكراهية تتأجَّج من ناحية، والحب يتأجج من ناحيةٍ أخرى، حتى كان يوم الحادث صباحًا؛ إذ رأى الزوج يفتتح اليوم بمُشاجرةٍ صاخبة انتهى منها إلى ضرب زوجته ضربًا كان يقع كالسهام في قلب المتَّهَم الذي كان يُحسُّ دائمًا بأن هذه المظلومة، شبيهة أمه، في حاجة إلى من يردُّ عنها هذا العدوان، وكان يريد أن يكون هو الذي يردُّه، ولكنه كان يشعر بضعف

جسمه. وممَّا زاد في تأثُّره أن هذه الزوجة الفاضلة غسلت دموعها بعد أن ترك زوجها المنزل، وقامت تعتني بابنها، وتنظِّف البيت، وتطبخ الطعام الذي يأكله الزوج.

اعتذر المتَّهَم عن عدم الذهاب إلى عمله في هذا الصباح، وظل طوال نهاره مهمومًا كئيبًا حتى أقبل المساء، فإذا بالزوج يعود إلى منزله مخمورًا، فيجد الطعام مهيَّئًا، وما إن يرى الزوجة حتى ينهال عنها بأواني الطعام، ويضربها ضربًا مُبرحًا. وفي هذه الأثناء يدرج الطفل ما بين والدَيه، فيحمله الزوج ويرمي به زوجته، فيصرخ الطفل صرخةً أطارت عقل هذا الشاب (ملحوظة: ولعله رأى في الطفل نفسه عندما كان أبوه يضرب أمه ويسومها سوء العذاب)، فانحدر إلى المطبخ وحمل السكين، ثم هبط إلى الطريق، فرأى الرجل يُغادر مسكنه، فلحقه في وسط الحارة، فانهال عليه بالسكين طعنًا، ثم عاد إلى منزله حيث انتظر مجيء البوليس والقبض عليه.

بيَّنتُ هذه الظروف للمحكمة في مُرافَعتي. ولقد كنت مؤمنًا ببراءة موكِّلي، وكنت مُختنقًا بالعبرات، ولكن بالرغم من أنني أدليت بمُرافعةٍ مؤثِّرة، فإن أوتار قلوب المُستشارين المكنونة في صدورهم كانت أبعد الأشياء عن التأثر بدفاعي؛ إذ كانت المحكمة مؤمنة بأن هذا الشاب تربطه بزوجة القتيل علاقات غرام، وأن ثورة الزوج كانت لهذا السبب؛ ومن ثَم قضت عليه بالأشغال الشاقة خمسة عشر عامًا، فرجعت كسير القلب محزونًا. انتهت مذكرة الأستاذ التوني.

لقد كان الأستاذ التوني صادق النظر في تصوير نفسية المتَّهَم تصويرًا دقيقًا سليمًا، وموفَّقًا فيما وصل إليه من معرفة الدافع الحقيقي الذي دفعه إلى القتل وهو «عقدة أوديب»؛ أعني حقد المتَّهَم القديم الذي يُكنُّه نحو والده في أعماق اللاشعور منذ عهد الطفولة.

وواضحٌ من وقائع الحادث المُتقدم أن الذي دعا إلى إثارة نفس المتَّهَم على المجني عليه هو تكرار حوادث التعذيب، وما بين الموقفَين (موقفه القديم من والدَيه، والموقف الجديد للأسرة التي تُجاوره) من تشابُه، فكان التماثل هو العامل الخفي الذي حرَّك أشجانه القديمة، وقوَّى لديه ظاهرة التقمُّص أو الاندماج في شخصية الطفل الصغير لجارَيه، وإلباس هذَين الجارين ثوب والدَيه القديمين، فطغى لاشعور المتَّهَم عليه طغيانًا لم يجد سبيلًا إلى دفعه أو ردِّه.

ومن يدري؟ ربما كان هناك أيضًا تشابُه في الخلقة بين زوجة المجني عليه ووالدة المتَّهَم، أو بين المجني عليه ووالده، وهو ما من شأنه أن يجعل ظاهرة اندماج الماضي في الحاضر التي تجري في جوف اللاشعور أشدَّ قوة وأدقَّ إحكامًا، فيجعل طغيان اللاشعور على الشعور أعظم بطشًا وأقوى سلطانًا.

وهناك قضيةٌ أخرى لعب فيها المركَّب الوالدي دورًا مُماثلًا، وقد رواها الأستاذ هوجو استوب المُحامي ببرلين، في المؤلَّف القيِّم المعروف باسم «المُجرم وقضاته»، والذي وضعه بالاشتراك مع الدكتور فرانز ألكسندر، وكلاهما من كبار المُحلِّلين النفسيين في العالم، ومن المُطابَقات التي تلفت النظرَ أن الأستاذ هوجو استوب كان مُحامي المتَّهَم أمام محكمة الجنايات، وكان موقفه مُماثلًا لموقف الأستاذ محمد شوكت التوني في قضيته السابقة، غير أننا لا نرى الاسترسال في تطبيق نظرية عقدة أوديب.

قاضية محكمة الأحداث

قالت «إلينورليك» في مجلة «كوزمويوليتان»: «امرأةٌ ضئيلة الجسم، ولكنها تحمل عبء دعوة ينوء بها الرجال؛ تلك هي القاضية كاميل كيلي بمدينة منفيس في ولاية تنيسي. فقد جعلت همَّها أن تُقنِع كل جافي الطباع من الآباء وغيرهم أن ليس ثمةَ شيء يُسمَّى «الطفل الفاسد»، وأن كل ما يحتاج إليه علاج الطفل العاصي العنيد هو قدرٌ صالح من الحب والحنان والفهم. وقد بلغت ما أرادت.»

وقد أمضت على منصة القضاء عشرين عامًا حافلةً بالعجب، وكفلت بحنانها ٤٥٠٠٠ طفل، وبلغت من التوفيق مبلغًا جعل اختيارها لمنصبها يتكرَّر ست مرات بغير مُعارضة من أحد.

وهي في مَلبسها أشبه بأميرةٍ صغيرة نحيلة تختال في أجمل ثيابها، فإذا تكلَّمت، والكلام عادتها التي لا تنقطع، لم تُلقِ بالًا إلى كثرة سامعيها أو إلى اختلاف طبائعهم وعقولهم؛ ففي نفسها عقيدة لا تزال تدفعها وتُحركها؛ إذ أُشرِب قلبها حب البشر جميعًا؛ أبيضهم وأسودهم، غنيهم وفقيرهم. فتراها تظل ست عشرة ساعة لا تملُّ وهي تشرح رأيها الذي تعتقده للناس من الزعماء إلى الخادمات إلى العمال إلى نواب الأمة، وترى عددًا جمًّا من الناس يحوطها بمحبته، فمن رجال ونساء وأطفال يحتشدون كل يوم على مَقربة من دار المحكمة، ومن كبار المشهورين إلى صغار المغمورين قد وقفوا ينتظرون لكي يُلقوا إليها بالتحية.

وقد قالت امرأة مدَّت إليها القاضية يد المعونة: «إن الذين يتولَّون بذل الخير للناس يتصنَّعون أحيانًا ابتسامةً تُوطِّد الثقة بينهم وبين أولئك الناس، أما القاضية كاميل فهي إذا ابتسمت لك شمختَ برأسك، وأحسست كأن الدنيا أصبحت طوع يدَيك.» وقال رجل من أصحاب الأعمال كان قد وقف بين يدَيها في المحكمة وهو يومئذٍ صغير: «إنها فيمن عرفتُ هي الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يجعلك تشعر بأن لكرامة المرء وعزته لذةً لا تُعادلها لذة.»

وغرفة محكمتها مكانٌ تبتهج العين برؤيته، ولكنه جليل يُشعِرك بالهيبة. فيه كراسيٌّ وثيرة، وفيه بدل منصة القضاء المألوفة منضدةٌ تتلألأ عليها باقة من الزهر. وتُعالج القاضية كاميل قضاياها غير مُتقيِّدة بتقاليد المحاكم، وتحرص على أن تجعل لغتها بسيطةً واضحة. فإذا جلست مجلسها قالت: «ليست هذه الغرفة إلا ساحة للتقاضي تُتاح فيها الفرصة لكل امرئ أن يتكلَّم، ولن أدع أحدًا يُغادرها وهو مهموم أو ضيِّق النفس، فتعالَوا نُعالج هذا الأمر معًا.»

وقد أراد أحد مشاهير المُحامين أن يستعجل النظر في إحدى القضايا، فانتهرته القاضية قائلةً: «لا أحب أن يتعجَّلني أحد. هذه محكمةٌ همُّها الأخلاق قبل كل شيء، وسأستنفد من الوقت ما يُتيح لي أن أُقوِّم الأخلاق.»

وأهل بلدتها جميعًا يُظاهرونها أقوى مُظاهرة، حتى لقد استطاعت أن تجمع حولها طائفة من أقدر رجال المحاكم؛ فمن أجل ذلك كان سبيلها في الإصلاح والتقويم أجدى من سُبُل القضاة الآخرين.

وهي تقول: «إنك لا تستطيع أن تُخرِج سوء الخُلق من طبيعة الطفل بالعنف ولا بالتقريع؛ فالطفل سريع التحول والانصراف، فلا تكاد تمضي في مُحاولة تهذيبه قليلًا حتى تراه قد صار أصمَّ لا يسمع لما تقول، فإذا وجدت في خُلُق الطفل ما يسوء فعليك أن تفحص عن العلة الكامنة، وتُحاول علاجها.» وهي ترى أن العقاب الذي يؤلِم البدن شيء لا جدوى فيه، وهي ترى أن الطفل إذا كان ثائرًا حديد الطبع (وهما وقود الحياة)، فهو خليق بأن يُرجى منه خيرٌ كثير، وتقول: «وإذا بذلت معونتك لطفلٍ هادئ الطباع عاجزٍ قليل الحيلة كنتَ خليقًا أن تظلَّ له كافلًا ومُعينًا مدى الحياة، ولكنك إذا أعنتَ آخر من ذوي العُرام والطباع الحديدة فجَّرت ينبوعًا مُتدفِّقًا لا يقف أمامه شيء.»

وقد وجَّهت القاضية كاميل طائفة من الصغار ذوي الحدَّة والشراسة، فجعلتهم يُقيمون، وهم لا يدرون، ملعبًا بمعونة من المجلس البلدي، ويشتركون هم مع الجماعات

الأخرى القائمة في البلدة، ويحظى الطفل منهم بالمعونة التي تُتيح له أن يُنمِّي مواهبه، فتراها الخاصة تحثُّ الآباء مثلًا على أن يُشجعوا الطفل الذي يُجيد العمل بيده على أن يصبح صانعًا من الطبقة الأولى، بدلًا من أن يصبح موظفًا من الطبقة الثانية.

فإذا رأت القاضية أن الآباء والأطفال قد عرفوا الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه نفضت يدها من معونتهم. وهي تؤمن بأن من الواجب على كل امرئ أن يعتمد على نفسه، وأن يكون عنيفًا في زجْرِ الضِّعاف الواهنين، وأن يمقت التدليل والطراوة.

كان والد القاضية كاميل أحد الجرَّاحين المُمتازين، وهو الدكتور ج. ب. ماكجي، بيْدَ أن فتاته كاميل لم تمِلْ نفسها قط إلى أن تعيش عيشة الفتيات المدلَّلات المُترَفات، ومات أبوها وهي في ميعة صِباها، فعزمت على أن تصبح طبيبة أيضًا، وظلَّت تُزيِّن لولاة أمرها أن تلتحق بمدرسة الطب، فلم تلبث أن ماتت لها أختٌ أكبر منها، وخلَّفت بنين صغارًا، فهجرت كاميل ما كانت فيه لتربِّي أولاد أختها. وقبل أن تبلغ العشرين من عمرها لقيت شابًّا مُحاميًا هو نوماس فيتزجر الدكيلي، كان مِثلها شبابًا وتوقدًا، فتزوَّجا وعاشا في سعادةٍ مُشرِقة الجوانب، وظلَّت كاميل سنوات ولا همَّ لها إلا رعاية زوجها وصغارها الثلاثة.

كان توماس قد أعجبه ما في زوجته من عقل، وأحب لها أن تصرفه فيما ينفع، فأغراها بأن تدرس القانون عنده في مكتبه، فظلَّت سنتَين تُشاركه في عمله ليلًا، ثم بقيت ١٨ شهرًا تُعاونه في سائر أعمال مكتبه بعض الوقت، ثم رأت يومًا ولدها الصغير وقد خرج قاصدًا مدرسته، فانتبهت فجأة وجعلت تتساءل: «أي ضرب من الأطفال صغارهم أو كبارهم سوف يُعاشرهم ابنها هذا بعيدًا عن رعايتها ونظرها؟» وجعلت تقول لنفسها: «من الخطأ أن نظنَّ أن مهمة الأم الفاضلة لا تتجاوز ما يجري بين جدران بيتها.»

فما هو إلا أن اختارت أجمل قُبَّعاتها ولبِستها، وانطلقت مُيمِّمةً شطر المدرسة التي فيها ولدها، وقدَّمت نفسها للأساتذة المُدرسين، ثم لم يمضِ طويل وقت حتى كانت قد بذلت جهدًا في تأليف جماعة للآباء والمُعلمين، وظفرت بانتخاب أول امرأة لمجلس التعليم في بلدتها، ثم أجالت طَرْفها في نواحي البلدة؛ لتنظُر ما يفعل الأطفال بعد المدرسة، فلم يرُقها ما رأت.

فلما مضت سنوات، وجاءت ساعةٌ صارت البلدة في حاجة إلى قاضية لمحكمة الصغار؛ كانت كاميل قد طارت شهرتها في البلدة بأنها المرأة التي تستطيع أن تستميل أي إنسان للجهاد في سبيل تهذيب الأطفال. ومع أنها لم تنَل إجازة الحقوق، فقد سنَّ المجلس

التشريعي للولاية قانونًا يُتيح لها أن تكون أول امرأة تتولَّى القضاء في ولاية تنيسي، وثانية اثنتَين في البلاد كلها.

ولم تنَل كاميل حتى اليوم إجازة الحقوق، ولكن المحاكم العليا لم تنقُض من أحكامها في ثماني سنوات سوى حكم واحد.

فلما نجحت في تهذيب أطفال بلدتها صرفت جهدها إلى تهذيب آبائهم، وهي تقول: «ليس مردُّ الفساد والاعوجاج إلى الصغار، بل الوزر وزر الآباء، وأكثر ما يكون عليه الصغار إنما هو من جناية الكبار عليهم.»[٢]

وكل ضرب من ضروب الإخفاق التي تحيق بالآباء تُعرَض عليها في المحكمة؛ فمن الآباء، كما تقول كاميل، «من يتعدَّون حدود القانون، ثم ينقلبون ساخطين حين ينتهك صغارهم حُرمته»، ومنهم من يأمر ابنه أن يُراقب له شرطي المرور؛ ليسوق هو سيارته بسرعةٍ تتجاوز ما حدَّده قلم المرور، ومن الآباء من لا يزالون في شقاق ونزاع، ولا يخطر لهم ببالٍ أن صغارهم يتلقَّفون كل كلمة يسمعونها، ومنهم الأم التي لا تقول شيئًا سوى: «امسح رجلَيك يا ولد. ابعد عن الكرسي يا ولد.» فهذا ليس بيتًا يؤلَف، بل كل ما فيه دعوة تدعو الطفل أن يخرج إلى الشارع.

وشر هؤلاء جميعًا أولئك الآباء الذين يأبَون أن يحملوا تبعة الأبوَّة والأمومة، وتقول كاميل: «إن الأطفال عندئذٍ يلتمسون لأنفسهم حنان الأبوَّة والأمومة حيثما وجدوها. وكثيرٌ من البنات السيئات الخُلق ليس بهنَّ إلا أنهنَّ يبحثن على غير هدًى عن الحب الذي افتقدنه في بيوتهن، والآباء الذين يُبرئون ذمتهم بأن يكفلوا للطفل حاجة جسمه، ثمَّ يتركون سائر أمره لمدرسة أو لخادم، إنما يحرقون قلوب أطفالهم باللوعة والحزن.»

وقد اقتبست نظامَ المحكمة التي أنشأتها كاميل بعضُ حكومات الولايات المتحدة في ست ولايات، وقد اتبعت كثير من المدن أسلوبها في الإصلاح، بيْدَ أن كاميل ترى نفسها أسعد ما تكون حين تكون المُعاملة بينها وبين أفراد الناس. وقد قال أحد أصدقائها وقد يئس من أمرها: «إن شر عادات كاميل أنها إذا لقيت فتاة لا تكاد تتذكَّر فيما يبدو؛ ألقيتها في حفلة أم في سجن؟» فليس في قلبها المُخلِص الكريم حدٌّ فاصل يُفرِّق بين الناس، ويجعل بعضهم عندها أفضل من بعض.

---

[٢] ومن أجل أن يُصلِح الآباء أخطاء أنفسهم جعلت القاضية في محكمتها مكانًا يقصدونه للاستشارة والاسترشاد. وقد وفد عليها آلاف من الآباء يستشيرونها، وجاءوا بصغارهم أيضًا لتُسدِّد لهم خُطاهم قبل أن يبلغوا مرتبة الفساد والاعوجاج.

آيات في كشف الجرائم

قال جوتشمبرلين في مجلة «ذي أميريكان ليجيون»: «ألقت شرطة كليفلاند القبض على عاملٍ وقع في ظنهم أنه ضرب زوجته ضربًا أفضى إلى موتها، ولم يكن عندهم شهود عيان، وأبى العامل أن يعترف، فجاءه دافيد كاولز رئيس معمل البحث العملي للكشف عن الجرائم، ووجَّه إليه أسئلةً مُتعددة، فتبيَّن أنه رجل على حظٍّ يسير من الذكاء، فقال له: «إذا كنت أنت القاتل، فدمُ زوجتك لا يزال على يدَيك، ولن يدخل في طوقك أن تغسله أو تُزيله.» وصبَّ على يد الرجل محلولًا قلويًّا، ثم أضاف كاشفًا قلويًّا أحال المحلول الأول أحمر قانيًا كلونِ دم البشر، فاعترف الرجل بالجريمة.»

وبمثل هذه الوسائل التي تجمع بين العلم ومعرفة طوايا النفوس، استطاع كاولز أن يحلَّ مئات من الجرائم الغريبة، وهذان مثلان من حوادث حدثت:

غريزة السرقة «كلبتومانيا»

أوردت الدكتورة «دونيتا فرجسون» في مجلة «كورنوت» أنه قد تعدَّدت حوادث السطو على منازل إحدى المدن الأمريكية، عن طريق دخول الطابق الأول، واقتحام غرفة نوم السيدات، وسرقة أدوات الزينة والحُلي والثياب الداخلية وخطابات الغرام النسائية ليس غير، وذلك في جميع هذه الحوادث، ومن سارقٍ واحد ارتكب نحو ٤٠٠ سرقة في أقل من سنة، وأخيرًا ضبطه البوليس مُتلبِّسًا بآخر جرائمه، وقد تبيَّن من تفتيشه أنه يحمل عددًا كبيرًا من رسائل الغرام، ويُخفيها تحت ثيابه كما لو كانت أنفس شيء لديه.[٣]

وكان هذا اللص الرهيب شابًّا نحيل الجسم قميء الهيئة دقيق العظام رقيق الحس، لم يلبث أن اعترف وهو بين يدَي المُحقِّق بحقيق جرائمه، وكان اعترافه طلقًا مفصَّلًا لم يُحاول فيه إخفاء شيء ممَّا اجترح. ولما مثل أمام القاضي أعاد اعترافه، وقال إنه يعلم تمام العلم أنه اجترأ على القانون، وخالف الوضع الاجتماعي الصحيح، وإنه لذلك يستحق العقاب، ثم أضاف إلى قوله هذا أنه مع ذلك لم يكن يسرق لكي يعيش، ولكنه كان يُحس وهو يُقارف جرائمه بأنه مدفوع إلى ارتكابها بعاملٍ خفي لم يكن يُدرِك كُنْهه،

[٣] ترجمة حسن بك جلال.

وأنه لم يكن يستطيع كَبْح جماح نفسه إذا ما أرخى الليل سدوله عن أن يخرج في تلك الجولات التي كان يقوم بها، والتي كان يعود منها راضيًا عن نفسه كل الرضا، مُطمئنًّا كل الاطمئنان، مُستشعرًا براحةٍ نفسيةٍ تامة لم يكن ليحصل على شيء منها أثناء النهار.

ومحاكم أمريكا — كمحاكم غيرها من بلاد الله — لا يتَّسع صدرها لمثل هذا الهذيان، فتوكَّل قاضيها على الله، وأنزل بهذا المُجرم الجريء الفاجر أشد العقوبة.

وكان مُدير السجن الذي نزل فيه المتَّهَم من رجال العصر الحديث الذين يظلون أوقاتهم على القراءة والاطلاع على ما يستحدثه أولو الألباب من البحوث والدراسات، وكانت قد طغت على المكتبات في بلده موجة العلوم النفسية الحديثة، فقرأ لفرويد وأصحابه ما قالوا، وعرف الشعور واللاشعور، كما عرف العُقَد النفسية وكيفية انعقادها ووسائل حلها، ورأى أن يُجرِّب شيئًا من معرفته هذه مع ضيفه الجديد؛ لينظر هل يُفلِح في العثور على عُقدته؟ ثم هل يُوفَّق بعد ذلك إلى مُعالجة حلها؟ فصار يستدعيه إليه، ويخلو به كلما سمح له عمله بذلك، ثم يُحادثه ويُحادثه، ويستمع إلى حديثه ويُوجِّهه فيه، ويسأله ويتلقَّى جوابه، حتى وقف على قصة حياته، وعلى التيَّارات التحتية التي أثَّرت في سلوكه، وانحرفت به عن طريق الهداية إلى ذلك الطريقِ المُعوجِّ الذي ركبه؛ فعرف كيف أنه في طفولته أُصيب بشلل الأطفال، وأن ذلك أثَّر في نمو جسمه، فنشأ ضعيفًا عاجزًا مُتخلِّفًا عن أقرانه في الجد وفي اللعب، وأنه كانت له شقيقةٌ قوية البِنية مفتولة العضلات، تُمارس كثيرًا من الألعاب الرياضية، فكانت كثيرة الاستهزاء به، والحط من شأنه، والتهكُّم عليه، والتنديد بضعفه وعجزه.

فلما شبَّ وكبِر هفَت نفسه إلى الفتيات اللاتي في مثل سنه بحكم غرائزه الفطرية، ولكنهن أعرضن عنه وازدرينه، فشعر بشيء من التحول في عواطفه نحوهن، وذهب الشوق وحلَّ محله النفور، وتبخَّر الحب وانعقدت مكانه سُحُب الكراهية والمَقت، وانعكست عاهته الجسمية على نفسه فشوَّهتها هي أيضًا، وأصبح يُحس بهذا الدافع الخفي الذي كان يدفعه إلى تحسُّس فرائسه في مضاجعهنَّ، وسلب أمتعتهنَّ، واستراق رسائلهن، وهَتْك أسرارهن، والاستمتاع بآثارهن.

ووضع مدير السجن أصبعه على «العقدة»، بعد أن تكشَّف له نفس صاحبه على هذه الصورة الواضحة.

فإن ما أصاب الشابَّ في طفولته من الشلل، وما أورثه هذا الشلل من عجز، وما واجهت به أخته هذا العجز من زراية وسخرية، كل أولئك أشعر الصبي بنقصه وحقارة

شأنه، ولكن «غريزة السيطرة» — وهي إحدى الغرائز الرئيسية في الإنسان — تأبى عليه أن يعيش في هذا الهوان الذي سبَّبته له عاهته؛ فهو لا بد له من الكفاح للخروج من هذه الورطة، ولردِّ ما يستطيع أن يردَّه إلى نفسه من الاعتبار، ولكنه شبَّ وكبِر، وأصبح يَلقى من الفتيات أقسى ممَّا كان يَلقى من أخته. وفي الوقت الذي تفتَّحت فيه نفسه للصواحب والصديقات غُلقت دونه الأبواب في كبر واشمئزاز، وارتفعت حرارة عواطفه، فلم يلقَ من جاراته إلا الماء البارد يُلقى على ناره المشبوبة. إنها إذن الحرب قد أُعلنت بينه وبين هذا الجنس الآخر المُتمرد المُتغطرس.

ورأى المسكين أنه استُدرج إلى معركة لم يكن له يد فيها، ودفعته «غريزة البقاء» إلى الثبات والدفاع عن نفسه، فنزل إلى الميدان، ولكن بسلاحه الخاص الذي يسَّرته له الطبيعة، والذي لم يكن يملك غيره؛ سلاح السطو والاغتصاب.

وقام بأولى غزواته الليلية على مَخدع فتاة ممَّن تأبَّين عليه مع كثرة صِلاتها بشبان الحي أجمعين، فسلب ونهب، وخرج من الموقعة بغنائمه وأسلابه راضيًا عن نفسه معتزًّا بشجاعته، وقد تولَّاه إحساسٌ مُريح بأنه عرف كيف يستردُّ شخصيته التي تآمر المجتمع على أن يُفقِده إياها. ومنذ تلك الليلة التي استشعر فيها تلك الراحة جعل دأبه أن يقوم مع الليل فيُجدِّد نشاطه، ويفتتح ميادين جديدة يستمتع فيها بإثبات شخصيته. وكان كل عمل يؤدِّيه يرمز إلى ناحية من نواحي النقص الذي يُحسُّه ويُثير في نفسه الشعور بالتعويض والرضا؛ فاقتحام المنازل كان يُشعِره بالقوة الجسدية التي لم يكن ينعَم بشيء منها؛ لأنه مُصاب بذلك الشلل الذي لا يُشعِره إلا السقم والضعف، وسرقة أدوات الزينة وتلك التوافه التي يحرص عليها النساء كان يُعوضه عن حرمانه من مجلسهنَّ والاستمتاع بهنَّ، وسرقة رسائل الغرام كانت تُعوضه عن تحريرها بنفسه وتبادُلها مع غيره.

تلك كانت قصة هذا الشاب العجيب، ولكن أعجب منها كانت قصة مُدير السجن؛ فإنه عوَّل على انتشال الشاب من ذلك التيَّار الذي جرفه، وعلى العودة به إلى المجتمع سليمًا مُعافًى ممَّا ألمَّ به؛ فما زال به حتى جعله يقتنع بأن مرضه وعجزه هما اللذان دفعا به إلى سلوكه الحالي، وأنه كان ضحية أخته القاسية بقدر ما كان ضحية ذلك العجز الطبيعي، وأنه لو كان في طفولته قد لقي ما يُخفِّف عنه وطأة عاهته بالمحافظة على شخصيته، والقيام على توجيهه نحو العمل الذي يُلائم حالته، لما اندفع نحو السرقة ليُعوض بها ما فاته على النحو الذي قدَّمنا. وما كاد الشاب يرى نفسه على حقيقتها في ضوء هذا التحليل، حتى أبدى رغبته في الإقلاع عن تلك العادة التي تحكَّمت فيه، وصار يُلحُّ في طلب أي عمل

مشروع ليُمارسه. فلما أرشده المُدير إلى العمل الذي اختاره له أقبل عليه بكل جوارحه حتى أتقنه، وسار في السجن سيرةً محمودة. فلما أتمَّ مدة عقوبته خرج وهو يشعر أنه قد خُلِق خلقًا جديدًا. وزكَّاه مُدير السجن لدى شركةٍ كبيرة؛ فقدَّمت له عملًا ممَّا تعلَّمه وهو في السجن. فكان في عمله الجديد موضع رضاء من معه، وانجاب عن نفسه إحساسه بنقصها، وصلح حاله، وتزوَّج وعاش بقية عمره عيشةً راضية.

وقالت الدكتورة دونيتا فرجسون في مجلة «كورونوت»: «لقد رُوِّع سكان إحدى المدن الأمريكية من تعدُّد حوادث سرقة المنازل في الليل، وكانت هذه الجرائم تتمُّ في كل الحالات بطريقةٍ واحدة، وتُسرَق فيها أشياء مُتماثلة؛ ممَّا حمل رجال البوليس على الاعتقاد بأن الجاني لا بد أن يكون شخصًا واحدًا، ومُصابًا بخبل في قُواه العقلية.»

اعتاد المُجرم أن يقتحم الطوابق الأولى في المنازل أو الفيلات الصغيرة، ولا يدخل غير حجرات نوم السيدات، ولا يسرق سوى أدوات الزينة والحُلي والملابس، ويهتمُّ بوجهٍ خاص بسرقة رسائل الغرام المُرسَلة إلى السيدة. وقد بلغ عدد ما ارتكبه من جرائم في أقل من سنة نحو ٤٠٠ جريمة.

ونشط البوليس في تعقُّب آثار الجاني، حتى وُفِّق إلى إلقاء القبض عليه مُتلبِّسًا ببعض جرائمه، وكان يُخفي رسائل الغرام تحت ملابسه كما لو كانت أثمن شيء لديه. ولشدَّ ما دهش البوليس عندما رأى أن هذا الذي أقلق سكان مدينة كبيرة، وأزعج إدارة الأمن العام فيها، كان شابًّا نحيلًا يبدو عليه الضعف والسقم، وكان مُصابًا بشللٍ جزئي.

اعترف اللص بجرائمه، فأُحيل إلى المُحاكَمة، فلما مثل أمام القاضي دافع عن نفسه قائلًا إنه يعلم تمام العلم أنه قد اجترأ على القانون، وخالف الوضع الاجتماعي؛ إنه لذلك يستحق العقاب. مع أنه لا يسرق لكي يعيش، إلا أنه كان مدفوعًا بعاملٍ خفي، فلم يستطع كَبْح جماح نفسه؛ إذ كانت الجريمة ذاتها تُشعِره بالارتياح والقوة والاعتداد بالنفس، وفي صورةٍ مُوجَزة كانت تُوحي إليه بالشخصية، وهو ما حرمه منها المجتمع.

ولم يُجدِه هذا الدفاع شيئًا، وحُكِم عليه بالأشغال الشاقَّة في سجن سنج سنج المشهور.

وكان مُدير السجن وقتئذٍ من أساطين علم النفس، وكان يرى أن العقوبة لا تؤدِّي إلى زجْرِ المُذنِب، بل إنها في كثير من الأحيان كانت تدفعه إلى التمادي في الإجرام بدوافع نفسية مُتعددة؛ ولذلك كان يؤمن بفائدة التحليل النفسي للمُجرم حتى يمكن معرفة نوازعه ودوافعه؛ ومن ثَم يسهل علاجه وردعه. فلما وفد عليه اللص الذي أشرنا إليه آنفًا،

أحاله على قسم العلاج النفسي المُلحَق بالسجن، وعهد به إلى الدكتور «رالف باتاي» مُدير القسم، وبعد جلسات مُتعددة أفضى إليه اللص بقصة حياته، قال:

«أُصبتُ في طفولتي بشلل الأطفال، فأثَّر في نمو جسمي، فنشأت ضعيفًا عاجزًا عن منافسة أقراني في الدراسة أو اللعب أو في العمل، وكانت لي شقيقةٌ قوية البِنية مفتولة العضلات، تُمارس كثيرًا من الألعاب الرياضية، فكانت دائمة التهكُّم عليَّ، والحط من شأني، والتنديد بضعفي وعجزي.

ولما بلغت مرحلة الشباب حاولت بحكم غرائزي التقرُّبَ من الفتيات، فأعرضن عني وازدرينني؛ فأصبح لزامًا عليَّ أن أسعى إلى العمل على تعويض النقص الذي أشعر به، فأقدمت على السرقة.»

واستطرد الرجل قائلًا: «وكان كل عمل أؤدِّيه يرمز إلى ناحية من نواحي النقص الذي أُحسُّ به، ويؤدِّي إلى الشعور بالتعويض والرضا.

فاقتحام المنازل يجعلني أشعر بالقوة الجسدية التي لست مُتمتِّعًا بها.

وسرقة أدوات زينة السيدات يُعوض ما حرماني من صداقتهن والتمتع بهن.

وسرقة رسائل الغرام تُعوضني عن كتابتها وتبادُلها.

وكنت بعد إتمام السرقة أشعر بذاتيَّتي بارتياحٍ نفسيٍّ عجيب.»

وعلى ضوء هذا الاعتراف وضع الدكتور «باتاي» قواعد معالجة الرجل، فجعله أولًا يقتنع بأن مرضه في الطفولة الذي أدَّى إلى عجزه وخيبته هو السبب المباشر لسلوكه الحالي، فلو كان قد وجد الشخص الذي يُوجِّهه إلى امتهان حِرفة مُلائمة، ويتعهَّده بالعناية الدائمة في أطوار نموه، لما أقدم على السرقة. والواقع أن أبوَيه كانا قد أهملاه إهمالًا تامًّا كأن لا وجود له.

وهنا أظهر المُجرم رغبةً مُلحَّة في الإقلاع عن الإجرام، ومُمارسة أي عمل شريف مشروع. واقترح عليه طبيبه نوع العمل الذي يُلائمه، فأقبل عليه بكل جوارحه وأتقنه، وسار في السجن سيرًا مشكورًا. فلما أتمَّ مدة العقوبة خرج من السجن وقد خُلِق خلقًا جديدًا. وزكَّاه مُدير السجن لدى شركة كبيرة، فعيَّنته في مكاتبها، وأصبح عضوًا نافعًا في المجتمع، واستردَّ اعتباره وتزوَّج. ومنذ عشرة أعوام حُوكِمت فتاتان مصريتان والدهما ضابطٌ كبير على سرقة حُلي بهذه الطريقة.

مرضى قابلون للشفاء

الواقع أن معظم المُصابين بداء السرقة قابلون للشفاء إذا كُفِلت لهم العناية الواجبة. وقد اهتمَّ الإخصائيون في أمريكا بدراسة هذا المرض، فكشفوا عن أسراره، ونجحوا في علاجه. والقصة التالية أفضل دليل على ما نقول:

منذ خمس سنوات قبض بوليس إحدى المدن الأمريكية على كاهنٍ معروف فيها مُتلبِّسًا بسرقة سيارة، واعترف الرجل أمام المُحقِّق بأنه اعتاد سرقة السيارات، وكشف له عن الحوادث التي ارتكبها ولم يُضبَط فيها، فأحاله المُحقِّق إلى المحكمة الجنائية.

وحاول مُحامي المتَّهَم أن ينفي عنه جريمة السرقة، وينسب إقدامه عليها إلى مس في قُواه العقلية، وأحاله القاضي إلى مستشفى الأمراض العقلية، حيث ظلَّ يُعالَج بالتحليل النفسي مدة عام كامل حتى شُفِي من داء السرقة، واستطاع أن يستأنف عمله في خدمة الدين. وهو الآن من أشهر رجاله في أمريكا، ويتقاضى مرتَّبًا ضخمًا، وينعَم بمواهب عقلية ممتازة، ويحظى بالاحترام.

أما إصابته بداء السرقة فترجع إلى العوامل التالية التي أدلى بها في اعترافاته لأطبائه.

قال الرجل: «منذ طفولتي وقفتُ نفسي على أن أكون كاهنًا، لكني وإن كانت تنهاني عن هذه المهنة لأني في نظرها لن أصلح لها، فكانت تنتقدني بشدة، وتُجسم هفواتي، وتزجرني وتُعاقبني على أي خطأ يبدر مني. ولم أستطع اختيار مهنة أخرى؛ لأن الأمر كان قد قُضي فيه، والتحقت بكلية اللاهوت، وأتممت دراستي، وعُيِّنت كاهنًا. وكنت في قرارة نفسي أمقت هذه المهنة، وأشعر بشيء من النقص كان يُعوضني عنه إعجاب الناس بي وتقديرهم لعملي، ثم تزوَّجت، ولم أُوفَّق في حياتي الزوجية؛ لأن زوجتي كانت كأمي؛ تُجسم من أخطائي، وتنتقدني انتقادًا مرًّا، وتزعم أنني لا أصلح لا للحياة الزوجية ولا

لخدمة الدين، ولا لأية مهنة أخرى، فضعفت ثقتي بنفسي، وفقدت سيطرتي على الزوجة وعلى المنزل، فتولَّدت عندي الرغبة المُلحَّة في السرقة؛ سرقة الأشياء الكبيرة التي تُشعِرني بالمقدرة والسيطرة والزعامة، فوجدت أن هذه الأمور يمكن تحقيقها في سرقة السيارات؛ فإني في قيادتها على الصورة التي أريدها وفي توجيهها كما أشاء، كنت أشعر بتمام الرضا النفسي، وبالتعويض الكامل عن كل نقص أصابني.»

وقد سهَّلت هذه الاعترافات مهمة الأطباء، فنجحوا في علاجهم، وأنقذوا الرجل من دائه الخبيث. ويقول العلماء: «إن مرض السرقة مثل مرض الكذب، ينشأ كلٌّ منهما من العوامل النفسية كما ينشأ من الاضطرابات الفسيولوجية، وضعف الغُدد المتصلة بالمخ، فلا يستطيع؛ أي يؤدِّي وظيفته كاملة، كما ينشأ أيضًا من عوامل اجتماعية كالمنازعات التي تحدث بين الأبوَين، وتؤدِّي إلى هدم السعادة المنزلية، والخصومة بين أفراد الأسرة الواحدة أو الطلاق، فيتأثَّر الأولاد — وعلى الأخص الفتيات — بمسلك آبائهنَّ أو أمهاتهن، فيؤثِر العزلة على الاختلاط؛ إذ يعتقدون أن الناس يتهكَّمون عليهن، ويسخرون منهن، فينشأ عندهن مرض السرقة. وكذلك ينشأ المرض من خيبة أمل الفتاة في حبها، أو المرأة في حياتها الزوجية، أو عدم توفيق الشاب أو الفتاة إلى الزواج.

فالرجل الأعزب والفتاة العانس قد يُصابان بمرض السرقة.»

ونحن نسُوق الحادثة التالية كدليل على خيبة المرأة في حياتها الزوجية، وتولُّد حب السرقة عندها:

فقد حدث أن ضُبِطت شابَّةٌ مثقَّفةٌ غنية من أسرةٍ كبيرةٍ مُتلبسة بسرقة دراجة. وعند التحقيق معها أعربت عن أسفها على ما فعلت، وأخبرت المحقِّق بأنها تجد لذةً كبيرة في السرقة؛ ولذلك ترغب فيها، وأن هذه الرغبة المُلحة نشأت عندها منذ أن أهملها زوجها.

ولما كان المحقِّق من المُهتمين بعلمَي النفس والاجتماع، فقد مضى يستدرجها حتى كشفت له عن تاريخ حياتها، فقالت:

«إني الشقيقة الوحيدة لخمسة إخوة اعتادوا أن يُضايقوني في طفولتي، ويُطلِقون عليَّ كنايات التهكم والسخرية. ولما أصبحت فتاة حاولت أن أظفر بإعجابهم فأخفقت. وكانوا يركبون الدراجات، فتعلَّمت مِثلهم ركوب الدراجة، وأخذت أتفنَّن في قيادتها، حتى كنت أسير أسرع منهم، وأتفوق عليهم في المسابقات، وقد عوَّضت هذه الهواية المفيدة ما كنت ألقاه من عنف واضطهاد.

وتزوجتُ وسعدت في حياتي الزوجية وقتًا قصيرًا، ثم أهملني زوجي لانهماكه في أعماله الكثيرة، فأخفقت أيضًا في حياتي الزوجية، وشعرت بالرغبة في سرقة الدراجات

وحدها؛ لأنها كما كانت تُشعرني بالرضاء وأنا فتاة، كانت تُشعرني كذلك بالرضاء بعد أن تهدَّم صرْحُ سعادتي الزوجية، فأنا لا أسرق إلا الوسيلة التي أشعر أنها تُعوِّضني عن نقصٍ طارئ.»

وهكذا ثبت للمحقِّق أن المرأة كانت حسنة النية؛ إذ كانت تسرق الدراجات وتُغيِّر طلاءها، وتبيعها لأمهات الأطفال الذين ذهب آباؤهم إلى ميادين القتال عبر البحار، ثم تُرسِل الثمن إلى جمعية الصليب الأحمر.

ولما كانت قد أبدَت الرغبة الخالصة في الإقلاع عن السرقة، كان لا بد من أن يعود إليها زوجها. وهذا ما أوضحه له الطبيب النفساني، واقتنع الزوج، وعاد إلى العناية بزوجته، وعندئذٍ شُفِيت.

من هو الإنسان العادي؟

الإنسان العادي في تعريف الدكتور «ساندور لاراند»، الطبيب النفساني العالمي، هو الشخص الذي يستطيع أن يُقِيم علاقاتٍ اجتماعيةً مع الناس على اختلاف ميولهم وبيئاتهم، وأن يؤدي عملًا مشروعًا، وأن يُهيئ الصفاء في الأسرة، وأن يسعد في حياته الزوجية. فإذا خاب في أية ناحية من هذه النواحي لسببٍ قهري أو غير إرادي، أو لعدم تأدية أعضاء الجسم لوظائفها كما يجب؛ تولَّد عنده مرض السرقة. فالثابت أن معظم المرضى بهذا المرض الداهم أشخاصٌ اضطربت عواطفهم أو أفكارهم، فلم يعودوا يعرفون كيف يسُوسون أمورهم أو ينجحون في أعمالهم. والسبب المباشر لذلك هو إخفاق آبائهم في تربيتهم التربية الواجبة بسبب خيبتهم في حياتهم الزوجية، وعجزهم عن إقامة صَرْح السعادة العائلية.

ويستطرد الدكتور «لوراند» فيقول: «إن مرض السرقة يُشبِه إلى حدٍّ كبيرٍ المشي في أثناء النوم. وكلاهما مرضٌ نفسي؛ فالشخص الذي ينهض من نومه وهو غير واعٍ، ويسير في المنزل، ويؤدي أعمالًا معيَّنة، أو يسير على حافة الشرفة؛ إنما يفعل ذلك بدوافع نفسية، وهو حين يعود إليه عقله الواعي لا يذكُر شيئًا ممَّا فعل أثناء النوم، إنما الفرق بين الحالتَين أن المُصاب بمرض السرقة يسرق وهو في حالة الوعي.

أما الذي يمشي أثناء النوم فإنه لا يكون واعيًا. على أن السارق في الحالة الأولى يسرق دائمًا أشياء ترمز إلى التعويض عن نقص، فهو قلَّما يفكر في الناحية المادية، وحين يعرف المحلِّل النفساني نوع الأشياء المسروقة يسهل عليه معرفة الدافع، فيُوفَّق في علاجه.»

ويقول رجال المباحث الجنائية والبوليس السري: «إن بعض النساء تُصاب في أيام الحمل بمرض السرقة، وسبب ذلك يرجع إلى اضطراب وظائف الجهاز التناسلي، فيؤثِّر في

باقي أعضاء الجسم؛ إذ يكنَّ في حالاتٍ عديدة قد عمدن إلى الامتناع عن الحمل مدةً طويلة ثم عُدْن إليه. ويُعامل القضاةُ الحواملَ اللائي يسرقن في أثناء مدة الحمل دون أن يكنَّ في حاجة إلى السرقة بمُنتهى الرحمة والشفقة مراعاةً لظروفهن.»

المرأة والجريمة

قالت إيريش تيمس: «إن الفتاة التي تسطو على البيوت مألوفة في دبلن؛ فقد قُدِّمت للمحاكم فتيات بتهمة السرقة، وتنقسم أولئك الفتيات إلى قسمَين؛ الأول من كان له أخٌ عضو في إحدى العصابات، والثاني من كانت تنتمي إلى عصابةٍ كل أعضائها من النساء.

ولكن الجرائم التي ترتكبها الفتيات والنساء يغلب عليها بصورةٍ عامة طابعٌ خاص، وهي السرقة من البيوت أو المخازن، أو خطف حقائب السيدات في ملاهي الرقص، أو الصناديق المخصَّصة لوضع الثياب في أماكن الاستحمام.

وليس من شك في أن اعتياد النساء على السرقة، والأسباب التي دفعتهنَّ إليها؛ مشكلةٌ اجتماعيةٌ خطيرة تحتاج إلى درس وعلاج.

وحسبُنا أن نذكُر تلك الفتاة التي بدأت ترتكب السرقة من منزل مخدومها؛ فإن من المُحتمل أن تكون من إحدى المُقاطعات النائية التي يعيش ذووها في فقرٍ مُدقِع، فجاءت إلى دبلن ووجدت عملًا في سهولة، ولا بد أنها لاحظت الفرق العظيم بين قريتها والعاصمة، ورأت مظاهر المدنية، فكثرت رغباتها ومطالبها.

وسرعان ما تشعر بحاجتها إلى ترتيب شعرها على أحدث طراز، وإلى شراء مُستحضَرات التجميل، ورغبتها في الحصول على ثيابٍ أنيقة. وقد تكون تعرَّفت على أحد الأصدقاء من الرجال، فيُحرِّضها على سرقة النقود.

وهنا تبدأ في السرقة. ولا بد أن يُكتشَف أمرها طال عليها الوقت أو قصر، فإذا اكتفى مخدومها بطردها قرَّرت البقاء في دبلن في انتظار العثور على عمل، ولكنها — إذا لم تكن تحمل كتاب توصية — لا تستطيع أن تُقِيم في الأماكن المخصَّصة لسُكْنى الفتيات العاملات؛ لأن هذه الأماكن تُحاذر من قبول الفتيات غير المعروفات. وعندئذٍ قد تضطرُّ إلى البحث عن غرفةٍ رخيصة تأوي إليها، ويحتمل أن تشترك في تلك الغرفة مع امرأةٍ أخرى أمهر منها وأعرق في السرقة والجريمة. فإذا كانت من النوع «الخام» أو قليلة الذكاء، سهل على زميلتها أن تُسيطر عليها، وأن تُوجِّهها في طريق الإجرام، فتصبح من بنات الشوارع.

وتتبع ذلك مرحلة من الأمراض وانحطاط الأخلاق والأعصاب الناشئ عن الإجهاد، وقد تنتقل بعد هذه المرحلة إلى مستشفى الأمراض العقلية، أو إلى أعماق السجون.

ومن بواعث الارتياح أن يكون هناك احتمال لتدخُّل مُراقبات سلوك النساء في الوقت المناسب للحيلولة دون تدهوُر الفتاة إلى الحضيض؛ أو تدخُّل المحكمة، فتُرسِل الفتاة إلى إحدى الإصلاحيات، فتبتعد عن الإغراء والتحريض، وتستقيم سيرتها.

أما إذا استمسك مخدومها — عند اكتشاف سرقاتها — بوجوب تقديمها للمحكمة، فإن القاضي يؤجِّل القضية إلى أن تستطيع إحدى مُراقبات السلوك درس الظروف التي أحاطت بها. وإذا كانت الفتاة صغيرة السن فقد تقترح المُراقبة الاكتفاء بردِّها إلى أهلها، ومتى كان مُحيطها العائلي فاسدًا أُرسلت إلى مدرسةٍ صناعية.

وإقدام ابنة المدينة على السرقة رغم خطره أخفُّ عاقبة من لجوء ابنة القرية إلى هذه الجريمة؛ فلِلأولى عادةً بيتٌ تقطن فيه مهما كان هذا البيت غير صحي أو غير مُلائم، وظروفها خيرٌ من تلك التي تلجأ إلى السُّكنى الرخيصة، ومهما يكن من شيء تظل إحدى الفتاتَين تحت المُراقبة، وقد تُساعدان على الالتحاق بعمل، أو تُرسَلان إلى منازل خاصة تُشرِف عليها الأديرة، إلى أن تقوم الدلائل على رجوعهما إلى الاستقامة.»

ملاحظات عن جريمة قتل

«في كل جريمة تقع بعض تصرفات غير طبيعية، تكفي، إذا تنبَّه لُملاحظتها عقلٌ منطقي دقيق خبير بطبائع النفوس البشرية، لأنْ تُميط اللثام عن سرها ودوافعها، وتهدي لفاعليها.»

هذه قصةٌ واقعية حدثت بإحدى مدن أمريكا في أغسطس سنة ١٩٢٢، وهذه قصةٌ عادية يتكرر مثلها في عالم الإجرام في البلاد كلها. ليس الغرض سَرْد حوادث تُثير اهتمام القُراء، ولكننا نقصد إلى عرض أسلوب البحث والتحقيق المُثمِر في مثل هذه الحالات.

وُجِد أحد التجار في إحدى مدن أمريكا مقتولًا في مسكنه الخاص الذي يقطن فيه هو وزوجته وَحْدهما، ووُجِدت زوجته وقد أُوثِقت برباط إلى مقعد في المطبخ. وذكرت الزوجة أنها أحسَّت حوالَي الساعة الثانية بعد منتصف تلك الليلة بحركة في المنزل، فهبَّت من نومها، واتجهت إلى المطبخ مُخترِقةً قاعة الطعام التي تتوسَّط الشقة، فلم تشعر إلا بهجوم رجلَين عليها جاءاها من خلفها، وسارع أحدهما بسدِّ فمها حتى لا تصيح، ثم تعاونا معًا على شدِّها بوثاقٍ متين إلى مقعد بالمطبخ، وبقيَ أحدهما معها، وتسلَّل الآخر

إلى غرفة النوم حيث يرقد زوجها. وبعد ذلك بلحظة سمعت طلقًا ناريًّا، وعلمت أن زوجها قُتِل. وكل ما استطاعت أن تتبيَّنه من ملامح الجانيَين أن أحدهما طويل والآخر قصير.

وتولَّى رجال التحقيق بحث الوقائع، واتضح لهم أن القتل كان بقصد سرقة مبلغ سحبته الزوجة في اليوم نفسه من البنك، وبعد تعقُّب كل من يُشتبَه فيهم في الجهة، وتعرُّف كل من يصح أن يكون قد حام حول البنك في ذلك اليوم منهم، لم يستطع التحقيق أن يصل إلى نتيجة في تحديد الفاعل في هذه الجريمة.

وبعد ثلاثة أيام من الحادث رأى المحقِّق أن يستعين بخبير من رجال المباحث معروف بخبرته الواسعة بالجرائم والمُجرمين، سبق أن أماط اللثام عن أسرار كثير من الجرائم الغامضة.

حضر هذا الخبير، وهو رجلٌ هادئ لا يكاد يشعر الرائي بأنه رجلٌ غير عادي، وهو في الواقع ليس أكثر من ذلك، وكل ميزته أنه يستطيع أن يكشف ما هو غير عادي من التصرفات التي تصدُر عن المُجرمين؛ وبذلك يُمسِك بالخيط الذي يجذب به الحقائق من أعماقها.[١]

كان أول ما قام به الخبير أن اتصل بالمحقِّق، واستمع إلى ما أورده من الوقائع، وما اتجهت إليه شبهته. وأراد المحقِّق أن يتصل بالمُشتبَه فيهم، ويستمع إلى أقوالهم، ولكنه قال في رفقٍ إنه يُفضِّل أن يبدأ بزيارة مكان الجريمة. فوافقه المحقِّق، وقال له إنه سيجد هناك أرملة القتيل، وقد يستفيد منها بعض الفائدة على الرغم من فداحة ما تشعر به من الألم للفاجعة التي رُزئت بها.

قصد الخبير إلى سكن القتيل تصحبه سكرتيرته الخاصة التي تدوِّن كل ما يقوم به، فوجد الأرملة جالسة وبيدها إنجيل تقرؤه، فقال لها: «صباح الخير يا سيِّدتي، إني أنا رجل المباحث الذي دُعِي للنظر في القضية، وإني أرجو ألا أُزعجك كثيرًا، فإني أعلم مبلغ ما سبَّبته لكِ الفاجعة من متاعب، وما أرهقك به رجال التحقيق من أسئلة، وكل ما أرجوه أن تأذني لي بإلقاء نظرة على المسكن ومحتوياته.»

فشكرته السيدة وانفجرت باكية، فربَّت كتفها، وطيَّب خاطرها قائلًا لها: «ما جَدْوى البكاء وهو لا يُرجِع ذاهبًا؟»

---

[١] الثقافة.

ثم انصرف إلى مهمته، وأخذ يرسم تخطيطًا للمسكن، وعرف أنه مكوَّن من ثلاث غُرَف؛ إحداها للنوم وبها سريرٌ واحد ينام عليه الزوجان، وغرفة جلوس، وكلتا الغرفتَين لهما منافذ خارجية على الشارع، ثم تليهما قاعة الطعام، وليس لها نوافذ على الخارج، ثم تتصل قاعة الطعام بالمطبخ، وهو على شارعٍ عام وبه منافذ. وبعد أن أتمَّ المُعاينة وأتمَّ الرسم، عاد إلى السيدة وقال: «والآن أيتها السيدة أرجو منك أن تتفضَّلي إذا لم يكن في ذلك إزعاج لك بتمثيل ما حدث في تلك الليلة تمثيلًا دقيقًا.» وهنا فعلت قائلةً: «لقد كنت نائمة في الغرفة مع زوجي.»

– «وأين كان وَضْعك وأنت نائمة؟»

– «كنت على الطرف الخارجي.»

– «حسن، هذا يُفسِّر قيامك على أثر سماعك الحركة دون أن يستيقظ زوجك.»

– «وسمعت حركة، فخرجت من الغرفة إلى قاعة الطعام متَّجِهة نحو المطبخ.»

– «أظن يا سيِّدتي أن الليلة كانت مُقمِرة، ولا بد أن الضوء كان يتسرَّب إلى المكان من النوافذ.»

– «هذا صحيح، ولكن قاعة الطعام لم تكن مُضيئة إضاءةً كافية؛ ولهذا لم أنتبه لوجود أحد، ولم أشعر وأنا على أبواب المطبخ إلا وقد هُوجِمت من الخلف، وسارع أحد المُهاجمين إلى سدِّ فمي وتقييد حركتي، بينما أسرع الآخر إلى شدِّ وثاقي، ورُبِطتُّ إلى مقعد بالمطبخ.»

– «هل تبيَّنتِ ملامح الرجلَين؟ أظن ضوء القمر في المطبخ كان يسمح بشيء من ذلك.»

– «أنت تدري حالة الإنسان في مثل هذه الظروف، كل ما استطعت أن أتبيَّنه أن أحدهما طويل والآخر قصير.»

– «وهل كان الطويل يلبس قبعةً صغيرة، ويضع على عينَيه نظارةً سوداء؟»

– «يا لله! هذا صحيح. كيف غابت عني هذه الملاحظة فلم أذكُرها إلا الآن وأنت تُورِدها؟»

– «استمرِّي يا سيِّدتي.»

– «ثم تسلَّل الرجل القصير إلى غرفة النوم، وسمعت طلقًا ناريًّا.»

– «ماذا حدث عند سماع الطلق؟ هل قال أحد الرجلَين شيئًا؟»

– «نعم، قال الرجل الطويل القائم إلى جواري عندما سمع الطلق: «ما هذا؟ هل كانت له ضرورة؟» فأجابه القصير من الغرفة: «لم يكن من ذلك بدٌّ؛ فقد استيقظ الرجل وأراد مُقاومتي».»

– «وأين كان المال الذي سُرِق؟»

– «كان تحت الوسادة.»

– «شكرًا يا سيِّدتي.»

والتفت الخبير إلى سكرتيرته، وسألها إن كانت قد أثبتت ذلك كله، ثم استأذنا وانصرفا.

وفيما هو خارجٌ التقى الخبير بطائفة من مُكاتبي الصحف سمعوا بنبأ حضوره، فبادروا ليتحسَّسوا منه جديدًا عن القضية، فقال لهم: «لقد أعطتني أرملة القتيل أوصاف أحد الرجلَين، وقد كنت كوَّنت عند حضوري فكرة عن القاتل، وأظنني قد انتهيت إلى ما يؤيد فكرتي.»

وقصد الخبير إلى المحقِّق، فسارع إليه في لهفة قائلًا: «ما وراءك؟ لقد نقل إليَّ الصحفيون أنك اهتديت إلى الفاعل، فمن هو؟»

فقال: «ستتبيَّنه حين تسمع المحضر من سكرتيرتي.»

وأمرها أن تتلو المحضر. وبعد أن فرغت من تلاوته قال المحقِّق: «لم تزِدْنا جديدًا؛ فكل ما ذكرته كنَّا نعرفه من قبل، وأين من هذا ما تقوله من أنك اكتشفت القاتل؟ إن كل ما وصلت إليه أنك علمت أن القاتل كان يلبس قبعةً صغيرة، ويضع منظارًا على عينَيه — وهي معلوماتٌ قيِّمة أعجب كيف فات الأرملةَ ذِكرُها لنا — ولكن كيف تستطيع من هذه الأوصاف وحدها الاهتداء إليه؟»

فقال له الخبير: «ألم تستطع من هذا المحضر أن تحدس من القاتل؟! إن القاتل يا سيِّدي هو أرملة القتيل.»

– «هذا عجيب! إنها امرأةٌ صالحةٌ معروفة بالاستقامة والمُواظبة على الكنيسة، وفوق ذلك فقد وُجِد في فمها وجسمها آثار مجهوداتها مع القاتلَين.»

– «اسمع يا سيِّدي حجتها القاطعة في أنها هي القاتلة:

أولًا: لقد ذكَرت أن أحد الرجلَين بعد أن سمع الطلق خاطب الآخر قائلًا: «لماذا قتلته؟ وهل كانت هناك ضرورة؟» فأجابه الآخر قائلًا: «لقد استيقظ وأراد المُقاومة، فلم يكن من قتله بدٌّ.»

هل تتصوَّر أن هذا طبيعي؟ ضَعْ نفسك مكان أحد الرجلَين، وتصوَّرْ أنك سمعت طلقًا في الغرفة الأخرى، فهل تقطع بأن المقتول هو الرجل النائم لا زميلك، وتخاطبه بلهجة الواثق هكذا؟ إن حالة الشك والذعر والقلق التي تُداخلك لا تسمح بمثل هذا الوثوق، فهي قصةٌ غير طبيعية تنمُّ عن الوضع والاختلاق.

ثانيًا: لقد ذكَرت أنها سمعت حركة، فقامت من نومها لتتبيَّنها. هل هذا طبيعي؟ هل تعلم أن امرأة في الوجود ترقد إلى جار زوجها، فتُحسُّ بحركةٍ غير عادية تبعث على الهلع، فتقوم من غير أن تُوقِظ زوجها لتتولَّى بنفسها تبيُّنها؟ أليس الطبيعي أن تُبادر إلى إزعاجه، وتحمله على أن يقوم هو بنفسه لحمايتها ودرء الخطر عنها؟

أما الوثاق والجروح والبكاء والإنجيل، فكلها حِيلٌ بدائية يلجأ إليها البسطاء من المُجرمين.»

الرأس والجنس

هل هناك علاقة بين هيئة الرأس والجنس؟ هل ينبغي لكل من وهبه الله رأسًا ضخمًا وجبهةً عريضةً أن يكون من عنصرٍ معيَّن؟ لقد أنفق علماء الإنسان في ذلك جهدًا ووقتًا عظيمَين، ولكن الدكتور فرانز فايدن رايخ، البحَّاثة في متحف التاريخ الطبيعي، يؤكِّد لغيره من العلماء أنهم يُضيعون وقتهم هباءً إذا أصرُّوا على تقرير قواعد في هذا الموضوع، بل هو لا يؤيد غيره من العلماء الذين يريدون تقسيم البشر طبقات بحسب مقاييس رءوسهم، ويذهبون إلى أن الأوروبيين ينقسمون إلى طبقتَين؛ طبقةٍ عليا ذات رءوس مُستديرة، وهم شعوب الشمال وشعوب البحر الأبيض؛ وطبقةٍ دنيا ذات رءوس طويلة أو متوسطة، وهم أهل أوروبا الوسطى (الألبية والدينارية)، ويظنُّ أنهم نتجوا من الاختلاط مع شعوبٍ مُستديرة الرأس آتية من آسيا.

فالآن قد انتهى الدكتور فايدن رايخ بعد أن قاس عددًا كبيرًا من الرءوس إلى النتائج الآتية؛ أولًا: أن الآسيويين (وخاصة المغول) — الذين كان يظنُّ أنهم أصل الرءوس الأوروبية المُستديرة — هم في الواقع ذوو رءوس مُستطيلة لا مُستديرة. ثانيًا: أن الشعوب الوحيدة ذات الرءوس المُستطيلة هي الشعوب المُتوحشة في أفريقيا وأستراليا. ثالثًا: أن الناس المُتحضرين من كل شعب تستدير رءوسهم شيئًا فشيئًا.

الغريزة الجنسية عند الفتيات

قالت مجلة «ديتيكتيف»: «ليس أفعل في النفس من سلطان الغريزة الجنسية، التي إذا ما ركبت رأس الإنسان وتمكَّنت منه أفقدته عقله، وسيطرت على حواسه، وصيَّرته عبدًا لها.»

ونحن نعرض لهذا الموضوع على طريقتنا التحقيقية، فلا نتجاوز سرد الحوادث وعرضها أمام القارئ كفيلم السينما، كما أن في ثنايا الحوادث التي نُورِدها شرحًا لطريقةٍ جديدة في علم النفس؛ هي أحدث وسائل الكشف عن جرائم الغريزة الجنسية وإبراز مكنونات النفس. وسيرى منها القارئ أن كثيرين ممَّن يُتَّهمون في الجرائم الخلقية ليسوا إلا ضحايا لأحلام الفتيات، وتسلُّط الغريزة على عقولهنَّ، واختلاطها بتحفُّظهنَّ مما يُحدِث تشويشًا وتشعُّبًا في تفكيرهنَّ يؤدي إلى اضطراب وتصوُّر الأحلام أو القصص كأنها ضعيفة، فيكون الاتهام المُختلَق.

ولعل كلًّا منَّا يذكُر أن صديقًا أو شخصًا معروفًا له بحسن الخلق واستقامة السيرة قد اتُّهم فجأةً بأمرٍ مَشين، وربما ذهب ضحية هذا الاتهام، وقضى نَحْبه غمًّا وكمدًا لِما أصابه من سوء السيرة.

فهل كل هؤلاء مُذنِبون حقًّا؟ وأي عامل يحمل الفتاة على اتهام شخص معيَّن بما لم يفعله أو يفكر فيه؟ هذا ما تكشف عنه الحوادث التالية، ونرجو أن يُمعِن القارئ في مُطالعتها؛ ففيها سر الفتاة أو سر الطبيعة؛ أمِّ الغرائز كلها.

جرائم يُصوِّرها الخيال

ففي إحدى دور السينما في الولايات المتحدة، بينما كان عرض الفيلم مستمرًّا والجمهور يتلهَّى بمُشاهدته، دوَّت صرخة امرأة فيها نبرات الخوف والاستغاثة، فأُوقِف عرض الفيلم،

وأُضيئت الأنوار، وشاهد النظارة فتاةً مُنتصِبة القامة موردة الوجه، تنمُّ أساريرها عن القلق، وهي تصيح: «لقد خدش عفافي.»

وأشارت بأصبعها إلى رجلٍ يُجاورها.

وتجمَّع النظارة حول الرجل، ومضَوا يضربونه ويدفعونه حتى ساقوه إلى دائرة البوليس، وكان يبكي ويدفع عن نفسه التهمة، ولكن شهادة المرأة كانت كافية وقاطعة، فحُكِم عليه بالحبس والغرامة.

ولو كان المتَّهم من السُّود، وكان مكان الجريمة في ولايات الجنوب، حيث يعجز البوليس عن حماية المتَّهم من غضب الشعب؛ لكان عقابه أشنع وأفظع، فيُعذَّب ويُجلَد ويُحرَق حيًّا.

ومن الغريب أن الإحصاءات الرسمية دلَّت على أنه ثبت بالتحقيق بعد توقيع الجزاء أن ٨٠٪ من المتَّهَمين كانوا أبرياء!

أما النساء اللائي يُوجِّهن الاتهام فهنَّ في الغالب مريضات بالهستيريا، أو نوع من الجنون التصوري «مانيا»، يُصوَّر للمرأة به أن الرجال يتعقَّبونها، وتحمل نظراتِ الرجال على محملٍ سيئ. فإذا ما وصل الفيلم أو أي مشهد آخر إلى نقطة تُهيِّج الإحساس، وتصل بها إلى قمة الخيال والتصور، وحدث أن تحرَّك جارها حركة ولو كانت عادية؛ فزعت، وصوَّر لها الوهم أنها موجَّهة للاعتداء عليها.

وتُصاب المرأة عقب ذلك بالهذيان، فتُصوِّر للناس تفاصيل حادث وَهْمي طُبِع في ذهنها من روايةٍ قرأتها أو سمعتها، فتقصُّها على أنها وقعت لها من هذا الرجل البريء الجالس بجانبها.

فتاة تقع ضحية الغريزة الجنسية

وقد حدث في فرنسا حادثٌ غريبٌ أثار اهتمام دوائر البوليس والقضاء والطب الشرعي والنفسي، وكان موضع حديث الأندية والصحف.

وإليك التفاصيل كما يسردها أحد القضاة الفرنسيين ممَّن عرضت لهم آلاف الحالات:

في شهر أكتوبر، وهو موعد افتتاح المدارس، غادرت الفتاة «أوديت كال» منزل والدَيها في بلدة «جاب» في الساعة ٧:٤٥ لتذهب إلى المدرسة، وهي فتاةٌ جميلة في الخامسة عشرة من عمرها.

وفي اليوم نفسه في الساعة ١٣ اشتدَّ قلق والدها — وهو ميكانيكيٌّ بسيط — لعدم حضور ابنته إلى المنزل لتناوُل الغداء، فذهب إلى ناظر المدرسة، فأخبره بأنه لم يرَ ابنته طول النهار.

وفي اليوم نفسه أيضًا في «جرينوبل» التي تقع على مسافة ١٣٠ كيلومترًا من «جاب»، كان أحد الضباط الشبان يتغدَّى في مطعمٍ أُقيم على الجبل الذي يُطلُّ على مدينة جرينوبل، فسمع أصوات استغاثة آتية من النواحي المُجاورة.

فهرع مع كل من كانوا في المطعم، وكم كانت دهشتهم حين شاهدوا فتاةً فائقة الجمال تئنُّ وهي في حالة ضعف، وقد تولَّاها الذهول والخبل.

ولم تستطع الإجابة عن الأسئلة التي وُجِّهت لها، فهل هذا فِعل المخدِّر؟

ونُقِلت الفتاة إلى مسكن صاحبة المطعم، وأُجريت لها الإسعافات اللازمة، وبدَت كأنها ما زالت تحت تأثير رُعْب شديد، وكانت تهذي بالألفاظ التالية: «أين أنا؟ وماذا أفعل؟ ألم أقتل أمي؟ آه من الرجال السُّود. كلا، لا أريد ركوب السيارة الحمراء.»

وكان المكان هادئًا كثير السكون، فعادت إلى الفتاة ذاكرتها وقالت: «اسمي أوديت، وقد خطفوني في سيارةٍ حمراء، وسقَوني شرابًا أحمر.»

ولكنها عادت إلى خوفها من الرجال السود والملابس القاتمة.

وبدأ البوليس تحقيقه بعد أن عرف اسمها، وأبلغ والدها، فحضر ولم تعرفه، بل قفزت إليه كأنه عدو؛ لأنه كان يلبس «جاكتة» سوداء، وصاحت به: «آه! مَن هذا الرجل الأسود؟»

وأخيرًا استطاعت أن تبوح ببعض معلومات عن هذا الرجل الذي يُقلِق بالها، فقالت إنه رجلٌ ضخمٌ قويٌّ يلبس بذلةً سوداء، أسود الشعر! أزرق العينَين، طويل الأهداب، مليح الوجه.

ومضت أوديت في هذيانها، فتكلَّمت عن موت أمها، مع أنها ما زالت حيةً تنعم بصحةٍ قوية.

فإذا كان اليوم الرابع من أكتوبر عرفت أوديت والدها، ولكنها ما زالت تهذي وتبكي أمها بزعم أنها ماتت. وتولَّى علاجَها طبيبٌ كبير، واستمرَّ التحقيق.

وانتشر الخبر في المنطقة الجنوبية الغربية من فرنسا، ومضى الناس يتساءلون: «أهناك جريمة خطف، أم مُغامرةٌ غرامية أعقبها اعتداء، أم تصورٌ جنوني وهذيان؟»

واتجه التحقيق إلى جريمة الخطف؛ فقد صرَّح والد الفتاة بأنها كانت وحدها في البيت حين حضر إليها شابٌّ قال إنه جاء ليُوقِّع بوليسة تأمين، وكان ذلك قبل وقوع الحادث بأيام.

وأكثر هذا الرجل من إطراء جمال أوديت، وألحَّ في الدخول إلى المنزل، حتى اضطرَّت الفتاة إلى أن تُثبت الباب بقدمها؛ إذ كان الزائر لا يميل إلى الابتعاد أو الخروج، وذُعِرت الفتاة، وبدا عليها الرعب إذ ذاك. ومن هنا اتجهت الشبهة إلى أن يكون هذا الزائر الغريب هو مُرتكِب الحادث.

فإذا أضفنا إلى هذا أنه كان قد غادر بلدة «جاب» منذ أيام إلى مرسيليا، وأنه يملك سيارةً حمراء؛ ثبت أنه الشخص الذي تعنيه أوديت في هذيانها.

كيف اختُطِفت؟

ولكن شهود الحادث أكَّدوا أن أوديت لم تُخطَف في سيارة، ولكنها سافرت بالقطار، فرآها أحد موظفي المحطة تستقلُّ قطار جرينوبل، وأكَّد هذا القول بائع الكتب في المحطة.

ودلَّ الكشف الطبي على الفتاة على أنها لم تكن ضحية لأي اعتداء خُلقي أيًّا كان نوعه.

وهنا تخرج المسألة من بين يدَي البوليس والنيابة والطب، ويتولَّاها علماء النفس، فاسمع التحليل الذي أوضحه للقضاة إخصائيٌّ كبير في علم النفس:

تبلغ أوديت خمسة عشر عامًا، وهو السن الذي يلمع فيه في العيون هذا اللهب الغريب الذي يقلق له الوالدان؛ لهب الرغبة الجسدية. وكانت أمها تسهر عليها في غيرةٍ شديدة، وتُسمِعها كل يوم العبارة القاسية: «يجب أن تكوني عاقلة، إذا لم تكوني مُستقيمة فإني أنتحر.»

وتكوَّنت عند أوديت فكرة عن هذا السلوك السيئ الذي تنهاها عنه أمها في كل يوم، وانعكست هذه الأفكار، وسلَّط الخيال أوهامه، وتحكَّم هذا الخيال في لحظاتٍ كادت الفتاة تفقد فيها كل مُقاومة، وتتعرَّض للسقوط لأول طارئ.

وبينما هي في هذه الأفكار المُتشعِّبة يحضر رسول شركة التأمين وكانت وحدها في المنزل، وهو شابٌّ أنيق الملبس كما يقتضيه عمله، يرتدي بذلةً قاتمة، فهو الرجل الأسود. وشاء الاتفاق أن يُبدِي الرجل لباقته أمام فتاة جميلة ما هي إلا طفلةٌ عديمة التجارب، فتُقاومه، وتذكُر أمها ونصائحها، ويختلط فيها عامل الحياء والإحساس الخاص الذي يُسمِّيه علماء النفس «هزة الحنان».

وكان للشاب سيارةٌ حمراء من النوع الذي تحلم به الفتيات.

ويحين يوم بدء الدراسة، فتذهب أوديت وحدها إلى المدرسة، وتهجس في خاطرها أفكارٌ غريبة هي نتيجة الخيال القوي والغريزة المكبوتة في سنٍّ تلتهب فيه؛ لو يعود هذا الشاب الظريف بسيارته الفخمة فيُحدِّثها بأسلوبه الرشيق، ويُطرِبها فيُثير كامن عاطفتها، وآه لو يخطفها معه في السيارة، لو!

وتعصف برأسها النوبة التي تميل بها إلى السقوط، ويصحبها الخيال والهذيان، وهي نوباتٌ حقيقية وصفها البروفسور بتير الأستاذ بجامعة بوردو، وحلَّل ظروفها في دراساتٍ دقيقة.

وتبدأ الرحلة التي تخيَّلتها! فهي تعيش في حلمٍ قديم بُعِث في نفسها!

نعم، كانت حالمة، فسافرت وذهبت إلى الجبل كأنها تُنفِّذ برنامجًا أو تُمثِّل دورها في قصة. فإذا ما اشتدَّت بها النوبة فقدت صوابها، ونسيت كل شيء، فخارت قُواها وراحت تهذي، وفي تصوُّرها دائمًا ذلك الرجل الذي تنشُده، والوحيد الذي رأته؛ الرجل الأسمر، صاحب العيون الزرقاء والوجه المليح والملابس الأنيقة القاتمة.

هذا هو شرح ما حدث للفتاة كما فسَّره طبيب النفس، وما زالت بين يدَيه يُعالجها، وستُشفى من نوبتها كما شُفِيت من قبلها كثيرات.

ونذكُر بهذه المناسبة أنه قد حدث في القرن السابع عشر أن انتشر في فرنسا وباءٌ بين النساء، وبخاصةٍ الراهبات اللائي أثَّر على عقولهنَّ الجوع الجنسي، فمضين يتَّهمن الرجال، وذهب ضحية اتهامهن كثيرٌ من القسس.

ونذكُر الحادث التالي الذي وقع في إحدى مدن الشمال في فرنسا. فقد تقدَّم إلى دائرة البوليس يومًا ثلاث فتيات، واتَّهمن رجلًا قالوا إنه كان يتنزَّه في الغابة، هدَّدهن بالمسدَّس ليعتدي عليهن.

وأسرع رجال البوليس إلى الغابة، فعثروا على الرجل، وهو موظف بوزارة المالية يقوم بنزهته اليومية. وقد دُهِش حين شاهد الفتيات يهربن لمجرد رؤيته. أما المسدَّس الذي زعمن أنه هدَّدهن به، فلم يكن إلا غليونه أسنده بيده إلى فمه.

ولما وضح الأمر للفتيات كنَّ أسبق الحضور إلى الضحك من المهزلة التي يُصوِّرنها.

وبحث القاضي، وكان مهتمًّا بعلم النفس، عن سبب هذا التصور، فوضح له أن إحدى الفتيات، وهي عاملة على الآلة الكاتبة عند أحد المُحامين، نسخت قبل حادثة الغابة بأيام موضوعًا لدعوى اعتداءٍ جنسي بإكراه، فعلِق ذلك في ذاكرتها، وترك فيها أثرًا عميقًا، فقرأته وأعادت قراءته، وقصَّت موضوعه على صديقتَيها.

وبعد هذا كان كافيًا أن تُفاجئهنَّ حركة رجل في الغابة وهنَّ تحت تأثير قصة الاعتداء الجنسي بالإكراه، فتحدث هزة الأعصاب عند الفتاة الأولى، وتتبعها الاثنتان بالعدوى، فيَعدُون خائفات. فالخيال وأثر القصة العميق يُصوِّران لهنَّ أن غليون الرجل ليس إلا مسدَّسًا مُشهَرًا عليهن بغيةَ الاعتداء على عفافهن.

أما الرجل فإنه لم يتحرك من مكانه، مع أنهن زعمن أنهن رأينه يهجم عليهن، ورأين المسدَّس مصوَّبًا إليهن.

كل هذا من فِعل الخيال القوي الذي يتسلَّط على الفتيات المُحافظات.

وهذه قصة فتاة أخرى في الثانية عشرة من عمرها، اتَّهمت مخدومها، وهو رجلٌ واسع الثراء، بأنه اعتدى عليها، وأبانت في شكواها تفصيلات لا تترك مجالًا للشك في إدانة الرجل.

ولكن الحقيقة وضحت؛ فقد قرَّر الطبيب الشرعي أن الفتاة عذراء لم ينلها أي اعتداء.

وإنما انعكست في ذهنها قصصٌ كانت تسمعها من صديقة لها أكبر منها سنًّا.

اضطرب خيال الطفلة التي لم تتجاوز اثني عشر عامًا، فتصوَّرت تفاصيل القصص المُثيرة، ووجَّهتها إلى مخدومها زاعمةً أنه ارتكبها معها.

وقد اعترفت أمام القاضي وهي تبكي، وأنَّبت نفسها، وطلبت الصفح من سيدها وهي تُقبِّل يدَيه.

أثر الحرب في الإجرام

تُعتبر الحروب من الظروف التي تمرُّ بالمجتمعات فتُغيِّر من مجرى حياتها، وتُحدِث أثرًا واضحًا في كافة اتجاهاتها الذهنية ومقاييسها الاجتماعية. وممَّا لا شك فيه أن الإجرام وهو ظاهرةٌ اجتماعية، أو على تعبير البعض سُنةٌ كونية، يتأثَّر تأثرًا واضحًا بالحروب، ويصطبغ بها بألوانٍ مُتعددة. والإجرام بعناصره يتكون من المُجرم والجريمة، ويُضاف لذلك عنصرٌ ثالث هو العقاب، وهو جواب المجتمع على الخارجين عليه الكاسرين نواميسه. والحرب في نيلها كل مظاهر الحياة بالتغيير تنال الإجرام في عناصره الآنفة الذِّكر، فهي تنال المُجرم من ناحية بواعثه النفسية ومدى قداسة المعايير الخلقية عنده، وتناله أيضًا من حيث نوعه وبيئته، وفي نظرته إلى طائفة معيَّنة من الجرائم والفصل بينها وبين الخطيئة، والاستعانة بكل وسائل التبرير لإبعاد بعض الجرائم عن دائرة الخطيئة.[1]

وتتأثَّر الجريمة بالحروب، فتنطوي تلك الظاهرة الاجتماعية تحت قانون العرض والطلب كما ردَّد ذلك الفيلسوف تارد، فتكثر أنواع من الجرائم تقتضيها الظروف الطارئة، أو بتعبيرٍ آخر يشتدُّ الطلب عليها، وتصطبغ أفعالٌ ما كان يدور بخلَدِ أحدٍ أن تصطبغ بصبغة الجريمة، ويُلابس الجريمةَ بصفةٍ عامة صفةُ المُبالغة في الأداء أو على الأقل الأداء الإجماعي.

والعقاب، وهو العنصر الثالث من عناصر الإجرام، يظهر أثر الحرب واضحًا عليه في تلك النظرة الحازمة التي تُوليها السلطة العامة بعض الجرائم، وارتفاعها بدرجات العقاب في بعض الحالات وبعض الظروف إلى درجةٍ غير متصوَّرة في الظروف العادية.

---

[1] مقال الأستاذ أحمد مختار قطب في «الكاتب المصري».

وسنبدأ بشرح أثر الحرب في المُجرم، وسنُحاول الوصول إلى ما وراء العرض الظاهر لصانع الجريمة مُقتفين دخيلة نفسه.

يصدُر المُجرم في جريمته عن بواعث تُحرِّكه، وعن بيئةٍ اجتماعية تُساعد في تكوين هذه البواعث لديه. وفي الظروف العادية تعمل البيئة عملها في تكوين البواعث الخاطئة؛ فهذا شخصٌ يُولَد في أحضان الفقر، فتدفعه الحاجة وأخلاط السوء إلى ألوان من الإثم والجريمة. وهذا حدثٌ من أقاصي الصعيد يُقتَل والده، وتعمل البيئة الحارَّة التي تغلي بالانتقام عملها في نفسه، ويضجُّ بشماتة الناس وتعييرهم، فتنمو فكرة الانتقام عنده وتترعرع إلى أن يُنفِّس عنها بالطريق الذي يختاره؛ وبذلك ينخرط في سلك المُجرمين.

وفي الحرب تزداد البواعث الموجودة أصلًا، والتي تُحرِّك الشخص لارتكاب الجريمة، جلاءً ووضوحًا وقوة؛ فطبيعة الطفرات التي تُلازم الحروب، وترتفع بأشخاص من الفقر إلى الغنى العريض، هذه الطفرات الواسعة تصلح حافزًا ضخمًا لدى كثير من الأشخاص على ارتكاب جرائم الأموال، وتُوفِّر في نفوسهم عنصر المُقامرة التي قد يكون من نتائجها فيما بينهم وبين أنفسهم استواؤهم على عرش المال إن كفلت لهم حظوظهم النجاة من مُعقبات فعلهم. فمثلًا في جرائم الأموال، وهدف الشخص فيها وقصده الأول الحصول على مالٍ مملوك للغير بطريقٍ غير مشروع، يزداد الدافع على ارتكاب هذه الجرائم في أزمان الحرب وضوحًا وقوة، فيدفع المُجرمين على اجتراح مثل هذه الأفعال دفعًا أشد عنفًا وأكثر جلاءً من أزمنة السِّلم. وهذا ما ظهر فعلًا في عدد من المُجرمين؛ فكثيرٌ من موظفي الحكومة الذين كانوا في مدة الحرب يحتكُّون بحكم عملهم بالتجار يرون بأعيُنهم الربح الذي ينعم به هؤلاء، فيُعمِلون أذهانهم في مُقارناتٍ خاطئة بين حالتهم وحالة هؤلاء المجدودين، وكثيرًا ما أنتجت هذه المُقارنات لدى بعضهم بواعث على الجريمة، فتُولِّد حالة الموظف المالية، وما يتوقَّعه لنفسه من مستقبلٍ تعِس، وما يرى عليه التجار الذين أسعدهم الحظ، كل هذا يُولِّد عنده رغبةً حائرةً عاجلة في الربح، فيسعى نهمًا وراء المال، ويشعر بجوع مادي هو أول درجات الجريمة عند ضعاف النفوس. وقد وقعت طوائف مُتعددة من الموظفين في المحظور بسبب هذا، وأُضيف إلى السجون شبابٌ يانعٌ سلبته الرغبة الجامحة في الاغتناء نعمة الحياة الشريفة. وفي غير دوائر الموظفين كثيرون من ضعاف النفوس أذهلهم الغنى المُفاجئ الذي حلَّ بغيرهم، فتولَّدت عندهم رغبة التسابق المُندفع الذي لا يعرف الهوادة ولا يعرف القيود، خلقيةً كانت أو قانونية أو اجتماعية، وولَّدت هذه الرغبة بدَورها باعثًا جامحًا على الاغتناء ولو كان عن طريق الجريمة. فهذه

الطفرات الواسعة التي ولَّدتها الحروب تُعتبر مسئولة شيئًا ما عن أشخاصٍ عديدين وقعوا في الجُرم، وما كانوا ليقعوا فيه لو لم تسرِ الظروف على هذا النحو.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، بل إن بيئة الحرب تُغيِّر من نظرة بعض الأشخاص إلى المعايير الخلقية التي تواضَع المجتمع عليها، ومن مُقتضى هذه المعايير إدخال طائفة من الأفعال في عدد من الجرائم. والملحوظ أن الأخلاق تنهى عن الجريمة أيًّا كان لونها؛ إما لأن اقترافها خطأٌ خلقي في ذاته كالسرقة والاغتصاب، وإما لأنها مُجافية — وإن لم تكن مُجافاةً تامة — لقواعد الأخلاق كجرائم الإهمال؛ فإن في ارتكابها تعريضًا للمركز الذي يحرص الرجل المحترم على التمتع به في المجتمع، والحرب تؤثِّر في هذا الوضع المُريب الذي يُحيط بالجريمة، فتكاد تخرج بها في نظر بعض الأشخاص عن دائرة الخطيئة إلى دائرة الأفعال المشروعة. ففرص الاغتناء الواسعة، وموجات الأموال التي تُنفَق بغير حساب، وعمل الظروف غير المفهوم في توزيع الأموال على أشخاص دون آخرين، وزيادة الاعتقاد أن الحرب فرصة لا تُعوَّض للاغتناء لا يكون وراء تركها إلا الندم؛ كل هذا يُغلِّب في بعض النفوس رغبة انتهاز الفرصة، ويُلبِس الجريمة ثوبًا من أثواب المحاولات والكفاح في الحياة لا أكثر، وتختفي تدريجيًّا المعايير الخلقية تحت هذا الستار، فيصبح الشخص المُقدِم على الجريمة في نظر نفسه ليس أمام عمل مشروع أو غير مشروع، أو عملٍ ينال من مركزه الاجتماعي أو لا ينال منه، بل أمام اختيار الفقر أو الغنى، انتهاز الفرصة أو تركها، ولا شأن للأخلاق في هذا الموقف، ولا محل لرقابة الضمير. ويندفع وراء هذا التصور الخاطئ مُستعينًا بكل وسائل التسويغ، إلى أن يصل بينه وبين وجدانه إلى أن مهارة الشخص في انتهاز الفرصة، وأن طعام الساعة هو عقل الساعة. ولا تترك له عجلة الحرب الهوجاء فرصة للتأمل والتدبر في أوهامه وأخطائه.

في إحدى القضايا سئلت فتاةٌ اندفعت في تيَّار الفساد عن حياتها قبل الوقوع في الرذيلة، فأجابت بأنها كانت خادمة. ولما سئلت عن سبب إيثارها عملها الجديد على القديم، وهو يمتاز بطهارة المسلك، أجابت بأنها خرجت من المقارنة بين الماضي والحاضر إلى أن في الحاضر يُسرًا وسهولة في سُبُل الرزق، ويُسرًا وسهولة في تجميع المال، وتفويت مثل هذه الفرصة قد يدعو إلى ندم العمر كله. وظهر أيضًا أن بعض الموظفين الذين انزلقوا إلى الرشوة كان يُساورهم شعورٌ خفيٌّ أن فعلهم هذا لم يكن إلا إقامة للعدل بينهم وبين غيرهم من المجدودين بسبب الحرب، وإصلاحًا للتوزيع الذي قامت به المُصادفات بغير حساب، وهي علةٌ مفهومة في نظرهم، بل إن كثيرًا من الذين اقتُطعت منهم مبالغ

الرشوة ليذكُرون أن هؤلاء الموظفين كانوا يُصرِّحون لهم بذلك دون مُواربة، مُوضِّحين أنه ليس غريبًا ولا نابيًا أن يخصَّهم شيء ممَّا ينالون من أموالٍ طائلة. ومن ذلك يبدو مقدار تأثُّر المعايير الخلقية بالحروب، ومقدار مُزاحمة الفرص البرَّاقة، وهي كثيرة جدًّا في زمن الحرب، للتراث الخلقي، ومقدار تداعي مبادئ الأخلاق أمام رغبة جمع المال.

هذا هو أثر الحرب في صانعي الجريمة، وهذا هو المدى الذي يتأثَّر به المُجرم. وأما أثر الحرب في الجريمة فيتعيَّن أن نبدأ قبل الكلام عنه بتعريف الجريمة.

يُعرِّف رجال القانون الجريمة بأنها كل فعل أو امتناع يُقرِّر له القانون عقابًا. والمفهوم بداهةً أن القانون عندما ينهى عن فعل أو امتناع يستهدف في ذلك مُقتضيات الزمان والمكان، فما يُعتبر محرَّمًا في وقت من الأوقات أو ظرف من الظروف قد لا يُعتبر كذلك في وقتٍ آخر أو مناسبةٍ أخرى.

والمجتمع بحكم غريزته في المحافظة على نفسه دائم اليقظة، ويتحرَّى ما يُهدِّد كيانه فينهى عنه، ويُوجِب الأفعال التي يراها لازمة للمحافظة عليه، وأوقات الحروب أشد الأوقات تهديدًا لسلامة المجتمع؛ ومن ثَم تزداد حسَّاسيته، فيرصد العقاب في أفعالٍ مُتعددةٍ أحسَّ بخطرها واضحًا. والحرب التي مرَّت بنا أَرَتْنا بوضوحٍ ذلك الحرص وتلك اليقظة التي تُلابِس المجتمع في المحافظة على نفسه؛ فقد نهى عن أفعال وهو لا يبغي من وراء نهيه إلا تلبية رد الفعل الجديد الذي وضعته فيه ظروف الحرب قهرًا.

أحسَّت الحكومات منذ البداية بأطماع الطامعين، ورأت شبح الجوع والغلاء يُهدِّد كيان الشعوب، ورأت الميزان يختلُّ بين مختلف الطوائف، ورأت توثُّب بعضها لبعض، فاستجابت لذلك كله، وأدخلت أفعالًا معيَّنة في باب المحرَّمات، وقرَّرت لها عقابًا، ووُضِع الاتجار تحت الرقابة، وأُقيمت له حدودٌ اعتُبرت مُجافاتها جُرمًا، وحُرِّمت الأفعال الكثيرة لضمان تموين الشعوب، وأخرى لضمان سلامة الدولة في أعمالها الحربية. وصفوة ما تقدَّم أن أفعالًا كثيرة انسحب عليها ثوب التحريم بسبب الظروف الطارئة؛ ومن ثَم زاد عدد الجرائم زيادةً ملحوظة.

وفيما عدا الجرائم التي نشأت لأول مرة بسبب الحرب، فقد اختلَّ التوازن اختلالًا واضحًا بين الجرائم المحرَّمة أصلًا في زمن السِّلم، فبينما دعت ظروف الحرب إلى زيادة نوع معيَّن من الجرائم بقيت أنواعٌ أخرى في حدودها الطبيعية. ويصحُّ أن نستهدي هنا بنظرية الفيلسوف تارد في إخضاع الإجرام لقانون العرض والطلب؛ فقد اقتضت ظروف الحروب، وتجمُّع الجند في المدن لقضاء فراغهم، والتماسهم الراحة عن طريق اللهو، وعدم

اطمئنانهم على حياتهم، ممَّا يُقلِّل حرصهم على المال، اقتضى كل ذلك زيادة عدد الجرائم الخلقية وجرائم الأموال زيادةً فاحشة؛ فوسائل تصيُّد المال ميسورة بالطُّرق غير المشروعة. فقام هيكلٌ ضخم من جرائم مُتعددة هدفُها الأول ابتزاز أموال هؤلاء الجنود، وفي هذا الهيكل زادت الجرائم الخلقية وجرائم السرقة زيادةً ملحوظة. ودعا تجمُّع الجيوش، وكثرة ما تُنفِقه، وانتشار الجنود، وقضاؤهم حاجاتهم، وكَوْنهم جنودًا، إلى حرص التاجر وجشعه، فكثرت جرائم غش البضائع. ومجرد مُطالعة الإحصائيات الرسمية يؤيد ما سبق أن ذكَرنا من اختلال موازين الجرائم، وازدياد بعضها ازديادًا واضحًا.

والحرب تُعتبر بيئةً صالحة لنوع من الجريمة يستتر دائمًا تحت ستار البطولة، وهو الجريمة التي تُوجَّه ضد الدولة، والتي تصطبغ بصبغة المُغامرة التي يقوم بها المُغامرون الطامحون. فجرائم الخيانة وجرائم الاتصال بدول الأعداء والمُراهنة الإيجابية العملية على مصاير الدول، كل هذه الأفعال تظهر غالبًا في أيام الحروب، ويقوم بها أشخاصٌ تضيق صدورهم بالمطامع الواسعة والآمال العريضة، وهم في الغالب من الطوائف الممتازة ذهنيًّا، لكن شدة أثرتهم هي التي تدفعهم إلى سلوك هذا السبيل.

وهناك أثر للحروب ينسحب على الجريمة بصفةٍ عامة، فالعنف والتنظيم الذي يُلابِس الحرب يصبغ الحياة كلها، ومن بينها الجريمة، بهذه الصبغة، فهي تتخذ شكلًا منظَّمًا تُوحي به عقلية الحرب والميدان، فتُنظم العصابات للسرقات وللنهب ولابتزاز الأموال بالطُّرق غير المشروعة، وتجمُّع هذه العصابات وتنظيمها يؤدي بها إلى شيء من الثقة والجرأة؛ ومن ثَم تنشأ الجريمة التي تؤدَّى بشكلٍ إجماعيٍّ عنيف.

هذا هو أثر الحرب في الجريمة، وهذا هو اللون الذي تصطبغ به. أما أثر الحرب في العقاب، وهو العنصر الثالث من عناصر الإجرام كما سبق أن أوضحنا، فيمكن تلخيصه في زيادة حساسية المجتمع في الحفاظ على نفسه، فيصدر من العقوبات ما يكون رد فعل للعنف الذي يبدو من المُجرم والاتساع في الجريمة. فالأثر عبارة عن عنف يُقابل عنفًا، وشدة تُقابل شدة؛ ومن ثَم ترتفع العقوبات، ويوجد القضاء العسكري بإجراءاته الصارمة وشدة أخذه للجناة، وما هذا كله إلا كما أوضحنا استجابةً للظرف الجديد؛ ظرف المُبالغة والجنون في كل شيء. هذا هو أثر الحرب في الإجرام أحد مظاهر الحياة الاجتماعية، وهو كما أوضحنا اندفاع من المُجرم إلى آخر مدًى تُطيقه إرادته الإجرامية، مع تبرير ومُغالطة ترمي إلى تسويغ الجريمة، واتساع واختلال في ميزان العمل الخاطئ، ويقظة وحرص واستجابة من جانب الحكومات لهذه الدواعي التي تُهدِّد كيانها.

الطب والعدالة

قال جاك ستنيك في مجلة «فيوتشر» شيكاغو: ذهب ضابط الشرطة في إحدى مدن ولاية ماساشوستس من مقعده حين بدأت امرأة تقصُّ عليه ما رأت وهي في طريقها لزيارة جارٍ لها، فقد تعثَّرت في جثة وهي تسير في ظلام شارع ضيِّق من شوارع البلدة، وكانت المرأة تتحدث إليه في المسرَّة وصوتها يتلعثم رعبًا وفزعًا.

ولما خفَّ العسس إلى مكان الجريمة جمعوا الحقائق الآتية في وقتٍ وجيز:

كانت الرصاصة قد اخترقت قلب الضحية، ولكن لم يكن ثمةَ سلاحٌ قريب منه سوى مسدس في حجرة نومه التي تبعد ستين قدمًا عن جثته.

واعترفت المرأة أنها كانت معه حتى الساعة السادسة، وأنهما افترقا على ميعاد في أمسيةٍ مُقبِلةٍ قريبة، ثم روت قصةً قصيرة عن تعلُّقها بذلك الجار وما بينها وبينه من وشائج غرام، فاحتجزها ضابط الشرطة مُحتاطًا.

ولو أن شرلوك هولمز شهد هذا لأسرَّ إلى ظهيره واطسن بأن الأمر لا يعدو جريمة قتل عادية لا إبهام فيها؛ جثة رجل ليس بجانبها سلاح، ولا يُعقل أن يسير ستين قدمًا وفي قلبه رصاصةٌ اخترمته. وهذا بعينه ما عنَّ للمحقِّق، ولكن كان في الولاية شرلوك جديد لا يركن كلفه إلى الاستنتاج وحده، فهو رجل يتَّشح بأرواب جامعة هارفارد المُزركَشة، يُقيم في الدور الأعلى من بنايةٍ حجرية قد كُتِب على مدخله: «قسم الطب الشرعي». فإن البناية كلها جزء من كلية الطب بجامعة هارفارد، وهذا القسم هو الأول من نوعه في الجامعات الأمريكية، بل في جامعات العالم بأسْره.

ولم يكن سلاح شرلوك الجديد سوى مِبضع الجرَّاح وحشد من أدواته يشقُّ بها ستار الغموض، فيدين هذا ويُبرئ ذاك.

وقد أصرَّ المحقِّقون على إدانة المرأة، وكادت تتردَّى في الوهدة لولا أن أنقذها قرار العلم.

فقد أظهر التشريح ما يعجز شرلوك القديم عن تفسيره حتى بخير مَجاهره؛ إذ إن قلب الرجل كان سليمًا لم يُمَس، ولم يكن في موضعه الطبيعي من الجسم، حتى إن أبرع الرماة يُخطئه كهدف. وباستقصاء مجرى حياة الرجل قُبيل مصرعه ظهر أنه قتل نفسه بالمسدس الذي كان في مخدعه، ثم مشى قرابة الستين قدمًا؛ فإن الرصاص لم يُصِب قلبه الذي ظهر بالتشريح أنه كان في الجانب الأيمن من تجويف صدره.

وقد أعانت طرائق جامعة هارفارد العلمية على إجلاء غوامض أكثر من مئتَين من ألغاز الجرائم. وزعيم هذا القسم في الجامعة هو الدكتور موريتز الذي يلجأ إليه رجال الشرطة إذا وهنت عزائمهم تلقاء تعقُّد الجرائم وغموضها؛ فهو في تقديرهم شرلوك الجديد الذي نفض عنه غبار القيود البالية في بحث الجرائم، ووسَّع ذلك البحث إلى أقصى مدًى مُستطاع.

ومن أطرف الأمثلة على ما يستطيعه العلم إزاء الجريمة ما حدث حين قُبِض على شابٍّ يافع لقتله زميلًا له، فقد ادَّعى الشاب أنه كان يلعب بمسدسه حين انطلق منه الرصاص، ولم يكن القتل يدور بخلده. ولو أن المحقِّقين رأوا ثُقبًا واحدًا في الضحية لهان عليهم الأمر، ولكن كان أمامهم ثُقبان، فما استطاعوا شيئًا سوى دعوة الدكتور موريتز الذي أعلن بعدَ فحصٍ دقيقٍ أنها كانت رصاصةً واحدة حقًّا، ولكنها حين اصطدمت بجبهة الضحية انفلقت شقَّين؛ اخترق أحدهما المخ، وارتدَّ الآخر جانبًا، فأحدث ثُقبًا ثانيًا هو الذي ضلَّل المحقِّقين. وبذا انتشل موريتز وأعوانه رجلًا في ربيع حياته من وهدة السجون.

ويُحدِّثك هذا الرجل الوثَّاب عن قيمة جهود الطب في مُكافحة الإجرام، فيقول: «إن حالةً واحدة من خمس حالات للوفاة في الولايات المتحدة سببها القسوة والعنف، أو لها أسبابٌ أخرى لا يمكن إيضاحها. وفي كثير من الأحيان لا تستطيع العدالة أن تضع يدها على الحقيقة إلا أن يُعاونها طبيبٌ وراءه معملٌ كامل الأُهبة للأبحاث. وهل يستطيع غير الطبيب المجرِّب أن يحدِّد لك أسباب الوفاة، ويتعرَّف على شخصية الضحية حتى من بقايا تافهة؟ وهل غير الطبيب يستطيع أن يذكُر لك نوع السلاح الذي استُخدم في جريمةٍ ما وظروف الجريمة وأوصاف المُجرم، وهي أمورٌ ذات بال لم تحظَ بوافر من العناية حتى عهد قريب؟»

ومعمل الدكتور موريتز مكتظٌّ بالمهمات التي تُعينه في أبحاثه العلمية عن الجريمة؛ ففيه نوع من المَجاهر يُعِين على تحديد أنواع المواد الكيميائية مهما تدق كمياتها، وآلة التصوير تُعِين على تكبير المرئي ألفَين ومائتَي مرة، وأخرى تُعِين على التفرقة بين الألوان، وجهاز للأشعة فوق البنفسجية يجلو ما غمض من حالات التزوير، وكلها أجهزةٌ علميةٌ غاية في التعقيد، ولكن ألم يقل موريتز إن نصف الجرائم يمكنك أن تفضَّ أغلاقه بالبحث الطبي؟

وقد بلغ ذلك البحث أقصى دقته مع رجلٍ اتُّهم بذبح ضحيته فأنكر ذلك، ولكن سرعان ما اعترف وهو يجهش بالبكاء حين واجهته نتيجة تحليل أثر تافه من بشرة الضحية علِق بحذائه.

وهناك أيضًا لغز المُحامي نوكسون، وهو قانونيٌّ يُعتدُّ به في الولاية؛ فقد اتُّهم بقتل طفل له مشوَّه الخلقة لا لحزازة في نفسه، بل عن وحي الشفقة والرثاء له، وكانت أداة الجريمة سلك المِذياع المُكهرب، وقام مُحاميه يقول إن الوفاة حدثت بسبب إهمال مُراقبة الطفل. وترك المحقِّقون القول الفصل للدكتور موريتز الذي شرع يُجري تجاربه على الخنازير لشبَهِ طبيعة بشرتها ببشرة الإنسان، فقرَّر أن الحروق التي في جسم الطفل لا يمكن أن يُحدِثها مثل ذلك السلك في زمنٍ يقل عن عشرين دقيقة، وأُدين نوكسون تبعًا لذلك.

وقد يجد العلم قيمةً كبرى لأشياء تبدو لنا تافهة لا يؤبَه لها؛ فقد وجد رجال الشرطة جثة فتاة قد عدا عليها البِلى في غابةٍ كثيفة، وكان جل أنسجة الجسم قد ذهب، ولكن قد بقي عليها بعض الملابس، وحبلٌ حول عنقها يتصل بقيد في يدَيها.

ولما استُخْدِمَت الأشعة السينية في البحث أمكن تحديد قامة الفتاة وعمرها ووزنها، ولما أُعلن عن أوصافها في الصحف جاء أبواها يلهثان بحثًا عن فتاتهما.

ثم ثبت بعد ذلك أن حلقة الحبل حول عنقها كانت ضيِّقة إلى حدٍّ يكفي لخنقها، وظهر ذلك بتجربته على مائة وخمس وعشرين فتاة في نفس طول الضحية ووزنها، ثم أظهر فحص المِجهر نوع الحبل بالدقة، فعرف المصنع الذي أخرجه، وعرف المحقِّقون من أبوَيها أنها بارحت منزلها لثلاثة أشهُر قبل العثور على جثتها، وقرَّر الخبراء الزراعيُّون، بعد تقدير نوع الطقس من حرارة ورطوبة، أن جسد الفتاة ظل مُلقًى قرابة الثلاثة أشهر. وقد اعتصروا تلك الحقيقة من فحص الحشائش المُتعفنة تحت جثة الفتاة، ووضح الدافع إلى كل هذا بعد أن اكتُشفت عظامٌ دقيقة لجنين في أحشائها.

وانطلق رجال الشرطة يبحثون في كل مكان، حتى وضعوا أيديهم على شابٍّ كان للفتاة به صلة، وضاق عليه الخناق حين وُجدت عنده قطعة حبل تُشبِه ذلك الذي خُنِقت به الفتاة، وبهذا الحبل اقتيد الشاب إلى ظلام السجن.

وفي مرةٍ أخرى فتح الدكتور موريتز بتقريره أبواب القفص لزوجٍ آثم وُجدت زوجته طريحة في مطبخها، وقد وشم وجهَها خدشٌ كبير، وقرَّر الجيران أنهم سمعوا مشادَّة بين الزوجَين غداة مصرعها، فاعترف الزوج بكل ذلك، وزاد عليه أنه ضرب زوجته على وجهها ضربةً قوية، ولكن لم تطرحها أرضًا، ولما بارح بيته سمع صياح زوجته ونباحها بشتائم مُقذِعة.

وراح مُحامي الرجل يطرق أبواب موريتز زعيم الطب الشرعي بهارفارد. ولما خفَّ موريتز لفضِّ أغلاله قام بفحصٍ دقيق لجثة الزوجة، ظهر منه أن انفجار وعاء دموي بالمخ نتيجة الهياج الشديد هو الذي فتك بها، ولم يكن الزوج مُخطئًا في شيء.

وقد أثارت أبحاث هارفارد هذه دهشة الكل حين حُلَّت مُعضِلة بنت في الثالثة من عمرها سقطت على الأرض فلم يُصِبها سوء تقريبًا، غير أنها ما لبثت أن وقعت فريسة العلة ثم قضت؛ فقد كشف البحث الدقيق عن حقيقة سبب هلاكها، وكان شيئًا لا يطرأ لإنسان على بال؛ إذ لم يكن سوى طبقةٍ رقيقة من الرصاص اعتاد أطفال البيت اقتلاع رقائق منها تُلوِّث أيديهم بذرَّات المعدن، ثم تأخذ طريقها إلى أجوافهم، فتنفث فيها السم. وكانت سقطة تلك الصغيرة سببًا في إنقاذ بقية أطفال المنزل.

وجلس رجل على مائدة غدائه، وكان مُدمنًا مُفرِطًا في الشراب وأَكُولًا نهمًا، فالتقم قطعة لحم يريد ازدرادها دفعةً واحدة، وما لبث بعدها أن قام يتنفَّس بصعوبة، ثم ألقى نفسه على سرير نومه في الدور العُلوي من منزله. ولما صعدت إليه زوجته أَلْفَته هامدًا. وظنَّ رجال الشرطة أن الأمر لا يعدو شرِهًا قتل نفسه بأكلة، ولكن أقبل طواف البريد بعد يومَين يحمل خطابًا: «أمسِكوا بتلابيب الزوجة؛ فقد قتلت بعلها بالسم.» ولم يُقِلها من العثرة إلا قول المعمل؛ فإن قطعة اللحم التي التهمها الزوج سدَّت عليه منافذ الهواء حتى ذهب.

وجاءت زوجةٌ تشكو برودة في عواطف الزوج، وتتهمه بمحاولة التخلص منها بكل وسيلة. وفي ذات يوم وُجدت الزوجة هامدة في فراشها وهي في خير ملابسها، وسرعان ما أطبقت البراثن على عنق زوجها، ولم يُنقذه من الشقاء إلا قرار قسم الطب الشرعي بجامعة هارفارد؛ فقد أعلن أن كمية السم ونوعه لا يدعان شكًّا في أن المرأة قتلت نفسها،

فهو بلونه ورائحته سهل الاكتشاف على من لا يودُّ قتل حبلى حياته. وكانت الزوجة تقصد من قتل نفسها إيقاع بعلها في الشرَك بعد أن أبلغت الشرطة عن سوء نيته وشذوذه المزعوم.

هذه الجهود التي بذلها قسم الطب الشرعي بجامعة هارفارد بلغت مبلغًا رائعًا من جزالة الفائدة رغم أن عمره لم يتعدَّ الخمس سنوات.

ويأمل العلَّامة موريتز، زعيم ذلك القسم، أن ينتشر هذا النوع من البحث في جامعات العالم؛ حتى يُتيح العلم للعدالة أسلحةً جديدةً ماضية، تُعِين المجتمعات في كفاحها العنيف ضد الإجرام.

الغيرة

قال أحمد أمين بك في مجلة الثقافة: «أول ما يخطر على البال في الغيرة، غيرة النساء على الرجال، والرجال على النساء. وللناس الحق في ذلك؛ فمظهر الغيرة في هذا أروع مظهر وأشده وأقساه، حتى ليبلغ الأمر بالغيرة إلى حد القتل كما في كثير من حوادث الصعيد. وكثير من العائلات يشيع فيها الشقاء والتعاسة وقلق البال بسبب حية تسعى في البيت اسمها الغيرة. يتأخَّر الرجل عن موعده بعض الزمن لعمل له أو سمر مع أصدقائه، فيلعب الفأر في عب الزوجة، وتظن بزوجها الظنون: لعله تزوَّج، أو على الأقل صادَق، أو وقع في غرامٍ جديد. حتى إذا حضر، فالعتاب الحار، ومط البوز، وليُّ الوجه، والخصام أسبوعًا أو أسبوعَين. ومهما أقسم لها بأغلظ الأيمان فلا تُصدق، وتفتِّش منديله وتشم رائحة ثيابه لعلها تقع من ذلك على دليل الجريمة. ورحم الله صديقنا عاكف بك الشاعر التركي المشهور؛ فقد كان تجاوز سن السبعين، فإذا جاءت الساعة العاشرة استأذن منَّا في الانصراف؛ لأنه إن غاب عن ذاك قليلًا تأكَّدت السيدة زوجته التي تبلغ مثل هذه السن أيضًا أنه تزوَّج. والسيدة العصرية إذا خرجت مع زوجها إلى السينما أو التمثيل حاسبته على كل لفتة ونظرة، وإذا أطال نظرته إلى جهةٍ ما اتهمته بالمُغازلة، ولو كانت الجهة التي ينظر إليها خالية من كل جمال. وويلٌ له إن وجد سيدة في الطريق فسلَّم عليها وسلَّمت عليه؛ فهناك الداهية الدهياء، وهناك الأسئلة التي لا تنتهي: من أين لك هذا؟ ومن هذه؟ وكيف عرفتها؟ ولمَ لم تُخاصمها بعد زواجك؟ وهناك الحساب العسير على كل تصرُّف من تصرفاته في البيت، فإذا كلَّم خادمته بأدبٍ دبَّت الغيرة، وإذا جلست القطة بجانبه دبَّت الغيرة، وإذا تأنَّق في ملبسه دبَّت الغيرة، وإذا دق التليفون لعبت الظنون. والحياة عذاب في عذاب.

وقد تكون الغيرة من جانب الرجل كذلك، فلا يسمح لزوجته بالخروج إلا ورِجله مع رِجلها، ولا تشتري شيئًا إلا إذا اختاره لها، ولا تزور إلا بإذنه. ومن حين لآخر يدقُّ التليفون يسأل عنها ويتأكد من وجودها، وإذا تأخَّرت في الطريق عشر دقائق أكثر من المعتاد حاسبها حسابًا عسيرًا، وإذا وقفت في الشباك تشكَّك، وإذا بالغت في الزينة توسوس. والحياة عذاب في عذاب أيضًا.

ولكن ليس هذا كل ميدان الغيرة؛ فهناك ميادين أخرى تصُول فيها الغيرة وتجُول؛ فقد عزَّ على الشيطان أن تشقى العائلات وتهدأ المصالح الحكومية، فاخترع لعبةً تُشبِه الضرائر في البيوت، وسمَّاها «كادر الموظفين»، ونشرها في كل مصلحة وفي كل غرفة في المصلحة، فوقع في غرامها عشرات الآلاف من الموظفين، وشغلتهم عن كل ما يُسمَّى «إنجاز عمل» أو «تحقيق مصلحة للجمهور»، وأصبحت هذه اللعبة شُغْلهم الشاغل وحديثهم الذي لا يُمَل، ولم ينجُ منها أحد من ساعٍ في المصلحة إلى وكيل الوزارة. «فلانٌ أخذ درجة ولم آخذ، وفلانٌ نال علاوة ولم أنَل، وفلانٌ أخذ درجتَين في سنتَين ولم آخذ درجة في سبع سنين، وفلانٌ محسوب فلان ومُتزوج بنت فلان، أما أنا فلست محسوب أحد ومُتزوج بنت عمي. هل هو أكفأ مني، أو أذكى مني، أو أغْيَر على العمل مني، أو يحضر في المواعيد مثلي؟ أبدًا. وفلانٌ كل كفايته أن يتملق لرؤسائه وأنا رجلٌ صريح، وفلانٌ خدم الرئيس في مسألةٍ شخصية فرقَّاه، وأنا رجلٌ عزيز النفس لا أعرف غير عملي.» وهذا حديثه ليلًا ونهارًا، سرًّا وإعلانًا، في بيته إذا تحدَّث، وفي الترام إذا ركب، وفي السمر إذا سمر، وعلى الشراب إذا شرب، وفي الأحلام إذا حلم، ولم يسلَم من ذلك حتى من رُقِّي استثناءً؛ فـ «فلان رُقِّي استثناءً مرتَين، وأنا رُقِّيت استثناءً مرة، ولمَ لا أكون رئيس المصلحة وأنا أكفأ منه؟ ولمَ لا أكون وكيل وزارة وبعض وكلاء الوزارة من تلاميذي؟»

وهكذا لعب الشيطان لعبته، فخلق عشرات الآلاف من الضرائر، وحرَّك الغيرة في الوظائف، فكانت أكبر من مصيبة الغيرة في البيوت. وإذا كان في البيوت من يموت من سم الغيرة، فمئات من الموظفين يموتون حسرة على الدرجة، وكلهم يموت وفي نفسه شيء من الدرجة أو العلاوة.

ولكن لا ننسى أن الغيرة من ناحيةٍ أخرى نعمة على الإنسانية؛ فلولاها ما تسابق الطلبة في العلم ليكونوا الأوائل، ولا التجار في تجارتهم ليكسبوا الزبائن، ولا الأمم في ميادين العلم والصناعة والمدنية ليبلغوا أعز مكان، بل إن المرأة تغار على زوجها فتُحبه، وتعمل على ألا يفرَّ من يدها، والرجل الذي يغار على زوجته يُحبها ويجتهد في إرضائها،

والموظف الذي يغار قد يجدُّ في عمله حتى لا تتكرَّر مأساته؛ فالغيرة ككل شيء في هذا الوجود نعمةٌ ونقمة.

أساس الغيرة حب التملك عند وجود المُزاحمة، فإذا ازدحم قوم على شراء شيء — كما في المزاد — دبَّت الغيرة عند الشارين، ودفعتهم الغيرة على التسابق والتزايد، ومن رسا عليه المزاد زالت غيرته لأنه تملَّك، ومن لم يرسُ عليه غار، وامتزجت غيرته بالغضب، ومنشأ الغضب العقبات التي صادفته في طريقه.

والأمر في المعنويات كالأمر في الماديات؛ فالزوجة تُريد أن تملك قلب زوجها فتغار، فإذا أحسَّت أن امرأةً أخرى تريد أن تملك قلبه — ولو كانت أمه — زادت غيرتها. وهذا هو السر في النزاع المستمر بين الزوجة والحماة، فقلب الرجل وُضع في المزاد، فإن نجحت الزوجة في اكتساب قلبه رضيت، وإلا ثارت وغضبت. والموظفون يغارون لتسابُقهم في حب تملك الدرجة، فمن أخذها هدأ، ومن لم يأخذها ثار وغضب. والطلبة يتسابقون في ملك الأولية، والتجار يتسابقون الأولوية، والأمم تتسابق لملك الصيت وحسن السمعة. وزعماء الأحزاب تدبُّ بينهم الغيرة؛ لأن كلًّا يريد أن يتملَّك قلب الأمة، ثم هم يتنازعون كما تتنازع الزوجة والحماة؛ يشترط هذا أن يكون رئيسًا وذاك أن يكون رئيسًا، ويزعم هذا أنه وكيل الأمة وذاك أنه وكيل الأمة. والقانون في جميع الحالات واحد، وهو أن أساس الغيرة حب الملك، فمن فاز هدأت غيرته، ومن خاب طارت ثروته.»

وقال عضو الأكاديمية الفرنسية: «الغيرة أنواعٌ مُتباينة كباقةٍ من الزهور المختلفة.» أي إن طُرُق الإحساس بالغيرة كثيرةٌ مُتنوعة. ولو أن المرأة عندما تقول «فلانٌ غيور» لا تُميِّز مُطلَقًا بين الزوج أو الخليل أو الصديق. فلو أن شابًّا اتخذ امرأةً مُتزوجةً خليلة له، ثم علم أن لها عشيقًا آخر غيره؛ لبدأت الغيرة تستولي عليه وتحزُّ في قلبه.

أما ذلك الشاب الذي يحب امرأةً شريفةً عسيرة المنال، ويُتيَّم بها لدرجة العبادة، لو حدث يومًا وعلم أن حبيبته اتخذت لها رفيقًا تُبادله الحب الشريف الأفلاطوني، لأصبح غيورًا إلى أقصى حد رغم اعتقاده بطهارة فتاة أحلامه، ورغم أنه يعلم تمام العلم أنه لا يملك محاسبتها على أعمالها، وليس له حق التصرف في عواطفها؛ لأنها ليست ملكًا له.

ويوم تلمس الحبيبة غيرة صاحبها تعرض عليه أن تُضحي بالآخر في سبيل إرضائه، ولكن كبرياءه تمنعه من قبول هذا العرض؛ لأنه كريم حتى في عواطفه. وهذا النوع هو الذي يُطلَق عليه «الغيرة القلبية».

وهاك مثلًا ثالثًا للغيرة؛ رجلٌ مُتزوج يحب زوجته حبًّا شديدًا كأيام شهر العسل، رغم مُضي خمس سنوات على زواجهما، يخرج الزوجان لحضور حفلة ساهرة راقصة،

وفي أثناء الطريق تهمس الزوجة في أذن زوجها: «كم أودُّ أن أكون أجمل امرأة في الوجود لأُشرِّفك وأُسعدك يا عزيزي!» وتنتهي الحفلة بعد أن تنال الزوجة فعلًا إعجاب الجميع، وبالرغم من ذلك تجد الزوج في أثناء عودته إلى المنزل واجمًا كئيبًا، أتعرف ما سبب ذلك؟ إنه كان مُتألمًا أن يتأمل الناس عنق زوجته العاري، وأن يتمتَّعوا بجمالها، ويتمنَّوا لو ظفروا بها.

إن مجرد الإحساس، رغم وفاء الزوجة الأكيد، بعث في الزوج الغيرة المادية.

وتحضرنا في الغيرة الجنسية قصة الكاتب الهولندي اليهودي «باروخ اسبينوزا» الذي قام بعمل تجارب بواسطة العنكبوت، أثبت بمُقتضاها أن الغيرة ظاهرةٌ حسيةٌ كامنة حتى في الحشرات. ويُضيف أن الرجل الذي يتبيَّن خيانة خليلته له تضطرب نفسه، ويحزن قلبه ويتنازعه حبُّها في آنٍ واحد.

وبديهيٌّ أنه يوجد فرق من حيث قوة الغيرة وضعفها إذا كانت علاقتنا بالمرأة الباعثة على الغيرة علاقةً بريئة، ففي هذه الحال يستولي علينا شعور الاشمئزاز، وربما انتهى الأمر بنا إلى كرهها، وتنعدم الرغبة في الظفر بها.

أما إذا ظفرنا بها فعلًا فإن مُلاطفتها لمُنافسنا تذكِّرنا بما كانت تخصُّنا به من لطف ورقة ومُداعبة، ومجرد هذه الذكريات تزيد من تمسُّكنا بالمرأة. ولهذا تلجأ المرأة عادةً إلى هذه الوسيلة لاستعادة حبيب هجرها؛ لأنها بهذا تُثير عاطفته لدرجةٍ تدفعه إلى التصميم على انتزاع حبيبته من يد خصمه ومُنافسه، كما نُلاحظ ذلك في القصة التي يرويها ريموند كاسال.

أحب كاسال هذا امرأةً مُتزوجةً رائعة الجمال تنتمي إلى أسرةٍ كبيرة، وكان نوع عمل زوجها لا يسمح لها بمعرفة أوقات غيابه عن المنزل مقوَّمًا بالضبط؛ ولهذا كان كاسال مُضطرًّا إلى البقاء في داره يوميًّا من الساعة الثانية إلى السادسة بعد الظهر، ثم في المساء بالنادي حتى العاشرة، كل ذلك انتظارًا لرسالة من خليلة له تُحدِّد له فيها موعدًا للقائه، وكثيرًا ما كان ينتظر بدون جدوى؟ وكان الحبيبان يلتقيان نهارًا في أماكن مُتنوعة وغير مطروقة، أما في المساء فكان كاسال يُفضِّل لقاءها والاختلاء بها في منزل أحد أصدقائه، ويُدعى «روبير». مضت على هذه العلاقة ثمانية شهور طوال كانت كفيلة أن تملأه مللًا وضجرًا، لدرجةٍ جعلته يشعر بالزهد في هذه المرأة؛ نظرًا للقيود التي كانت تُلازم لقاءهما، فضلًا عن خلوِّ حبهما من العاطفة الصادقة اكتفاءً بالشهوة البهيمية. فكَّر كاسال في قطع علاقته بخليلته، ولكنه لم يهتدِ إلى الطريقة المثلى التي تتفق وآداب اللياقة نحو امرأة

لم تتعمَّد الخطأ في حقه، ولم تُسئ إليه قط. وذات مساء بينما كان يتأهَّب للذهاب للقاء خليلته إذا بها تُنبئه بتأجيل الموعد إلى اليوم التالي؛ ممَّا أثار سخطه وغضبه، وضاعف رغبته في الهجر. لاحظ صديقه روبير عليه الحزن والأسى، فسأله عما إذا كان حقًّا يحبُّ هذه المرأة، فأجاب كاسال بالنفي.

ولما وثق روبير من ذلك صارح صديقه بأنه ذات مساء خسر كثيرًا في لعب القمار، واضطرَّ أن يهرع إلى المنزل لإحضار نقود، فرأى فراءً ومروحة على المائدة في حجرة الاستقبال، ودفعه الفضول إلى أن يُمتِّع ناظره برؤية هذه المرأة الجميلة التي طالما سمع امتداح حسنها وبهائها. واستطاع أن ينعم من خلال ثقب الباب برؤيتها عارية، فبهره جمالها وقوامها، ومنذ تلك اللحظة أحبها وتعلَّق قلبه بها.

لم يُحدِث اعتراف روبير الخطير أثرًا يُذكَر في نفس كاسال الذي رضي أن يذهب صديقه بدلًا منه في الميعاد المحدَّد في اليوم التالي؛ وبهذا يتخلَّص من حبيبته.

وفي أثناء الليل أخذ كاسال يستعرض أمامه ما قد يحدث من مفاجآتٍ غير مُنتظَرة في خطته هذه؛ إذ ربما تخونه الشجاعة، فلا يستطيع القيام بتمثيل دور الغيور كما يجب. ومن ناحيةٍ أخرى، ماذا يكون الحل إذا طردت خليلته روبير شر طردة؟

لم يُطِق كاسال صبرًا، فذهب إلى وكر غرامه بعد الميعاد بقليل، ولما وجد الباب مُحكَم الإغلاق نادى صديقه روبير، ولما لم يرد عليه صديقه كسر الباب عنوةً، فوجد خليلته في أحضان روبير، فصُعِق لهذا المنظر، وكأن الدنيا زُلزلت تحت قدمَيه، واعتراه ذهولٌ غريب. وعقب هذا الحادث عاوده حبه لخليلته وهيامه بها أكثر من ذي قبل، لدرجة أنه قطع صلته بصديقه القديم روبير من أجل هذه المرأة التي ظلَّت خليلة له طوال ثلاث سنوات.

هذه القصة الواقعية أكبر دليل على أننا نجهل اتجاه عواطفنا، وأنه من الخطأ أن نُنكِر سلطان المرأة علينا.

والوسيلة الوحيدة للانتصار عليها هي تجنُّبها والابتعاد عنها، كما يقول أكبر علماء النفس في العصر الحديث نابليون بونابرت. ونستطيع أن نؤكد أن المرأة التي تثأر لنفسها فتتخذ خليلًا آخر تنجح في إيلام خليلها الأول على الأقل، وربما نجحت في استعادته. أليست الغيرة الحسية كفيلةً بأن تُسيِّر العاشق كما تريد المرأة وتهوى؟ لأن هذا النوع من الغيرة يبدأ بحدة، ثم يتضاءل شيئًا فشيئًا، وربما تلاشى نهائيًّا؛ فقد شاهدتُ يومًا تمثيلية عُطيل، وعندما دخل البطل عُطيل لقتل ديدمونة انفجر المُتفرجون من الضحك؛ لأن فلسفتهم العميقة في الحب جعلتهم يفكرون أنه من الجائز أن هذا الغيور الغاضب

الذي صمَّم على قتل حبيبته الغادرة ربما انتهى به الأمر إلى إيقاظها بحنان ورفق، وطلب الصفح منها.

ويجب التمييز بين الغيرة الحسية والغيرة القلبية؛ ففي الأخيرة يُوطِّد المُحب العزم على تحمُّل ما قد يُصادفه من متاعب بصدرٍ رحب دون ضجر؛ فإن إخلاصه بقلبه في الحب يجعله يستعذب الآلام والمِحن. غير أنه يجمل بنا أن نُصرِّح أن الغيرة القلبية البحتة نادرة جدًّا؛ إذ كثيرًا ما تندمج في الغيرة الحسية، وهاك بعض الأمثلة على الغيرة القلبية:

أحبَّ طالب بمدرسة الهندسة «السنترال» بباريس، يُدعى «روجيه فالنتين»، فتاةً تفُوقه في الجاه والثروة، ولما تخرَّج طلب يدها، فرفض أبواها نظرًا لفقر روجيه وكِبَر سنه عنها. فلم يتألم لذلك، ووطَّد العزم على الكفاح في الحياة حتى يفوز بها، ورحل إلى بونس إيرس. وما كاد يستقر هناك حتى تزوجت الفتاة، ولما بلغت الثلاثين من عمرها مات زوجها، وكانت قد أنجبت منه بنتًا. في ذلك الوقت عاد فالنتين من أمريكا، وطلب يد الأرملة التي قبِلت في الحال دون تردُّد، مُكبِرةً فيه هذا الشعور النبيل؛ فقد ظلَّ وفيًّا مُخلِصًا في حبه رغم مُعاكسة الظروف له في تحقيق سعادته، ولكن الطفلة التي أنجبتها هذه المرأة من زوجها الأول كانت تُنغِّص حياة الزوج الجديد، وتُسبِّب شقاءه، رغم أنه كان يعطف عليها، ويعتبرها كابْنتِه تمامًا، فوجودها يُذكِّره دائمًا بأن شخصًا آخر شاركه حب المرأة التي يُقدِّسها، ولكن روجيه كان يتحمَّل هذا صامتًا دون أن يفوه بكلمة يُفهَم منها أنه مُتألم. هذه هي الغيرة القلبية بأجلى معانيها.

ومن الجائز أن نُصادف عاشقًا تنهش الغيرة قلبه بالنسبة لخليلةٍ ماتت فعلًا، كما حدث لراءول جارنييه الذي سافر إلى أمريكا وعاد بعد وفاة خليلته التي كان يعبدها. ولما علم من صديقة لها أن شخصًا آخر كان يتردَّد عليها أثناء غيابه هاله هذا النبأ، وعنَّف نفسه على تركه باريس بينما كان في إمكانه البقاء بجانب حبيبته وإسعادها، والظفر بها وحده دون غيره. هذا مَثلٌ رائع من أمثلة الغيرة القلبية البحتة التي تُميِّزها الأنانية العاطفية، والتي تشمل الماضي والمستقبل؛ لأن القلب يعيش على الذكريات والأفكار الثابتة، بينما نجد أن الغيرة الحسية منشؤها مناظر وصورٌ ملموسة تُثير أزمات وانفعالاتٍ عارضةً من السهل زوال أثرها، أما الغيرة القلبية فقد تُسبِّب الأسى والحزن العميق الذي قد يُفضِي بدَوره إلى الموت كمدًا.

فبينما العقل يُوصينا «بأن المرأة التي تبعث في نفوسنا الغيرة غير جديرة بالحب؛ إذ لا داعي للغيرة من أجلها»، يُجيب القلب: «بل إن هذا السبب بعينه، وهو أنها غير جديرة بالحب، يجعلني غيورًا.» ثم يُضيف بصوتٍ خافت: «وهذا هو سر حبي لها.»

آثار الغدة الدرقية في النفس الإنسانية

أهم ضرورة من ضروريات الشباب هي التيقظ أو الانتباه، ومعناهما إحساس الإنسان بما يدور حوله. ويدخل تحت حصرهما الفضول والحياة والشجاعة والمزاج والخلق.[1]

نقول أحيانًا إن هذا الرجل يبدو شابًّا. والحق أننا لا نصف وجه الرجل، وإنما نصف روحه الوثَّابة الفتيَّة التي تُضفِي على صاحبه صفة الشباب. وإذا كنت في عمر ذلك الرجل، وشعرت بأنك أشيب منه؛ فلا بد من أن هناك علاجًا لهذا الفرق يُميِّز بينك وبينه، وأنت وحدك هو الذي يمكنك علاج نفسك.

وتراني ما دام الأمر كذلك مضطرًّا إلى أن أتحدَّث في هذا الموضوع عن السبب في عدم التيقظ أو الانتباه، والحقيقة أنهما يرجعان أولًا وآخرًا إلى قطعةٍ صغيرة بداخل رقبة الإنسان وفي مقدَّم العنق، ويُطلِقون عليها لفظة «الغدة الدرقية».

وقد تكون هذه الغدة سببًا في تنغيص حياة الإنسان، فتصبح لا فرق بينها وبين الموت، كما أن كثيرين يشيبون قبل أوانهم لعدم توفُّر نشاط هذه الغدة. ولا أظن أن أحدًا من القُراء يعرف عنها شيئًا، أو قُل إن أحدًا لم يهتم بها أي اهتمام؛ لصِغرها من ناحية، ولغموضها من ناحيةٍ أخرى.

تذبل زهرة حياة الإنسان، وينحلُّ نشاطه، وتنهار قُواه، فيلجأ إلى المُقويات في الفيتامينات لعلها تُعيد إليه نشاطه، وتردُّ إليه قُواه، ولكن دون جدوى، فيظل على حاله مُتعَبًا منهوكًا غبيًّا كسولًا نوَّامًا، وينحدر نشاطه عن مستوى نشاط الإنسان العادي. أما السبب في كل هذه الآفات فيرجع إلى غدته الدرقية، رغم أنه لم يُحس بها، ولم يشعر

---

[1] الدنيا الجديدة.

بوجودها، ولم يفكر يومًا في أنه في وُسْعها أن تضرَّ به هذا الضرر. وكثيرٌ من الناس يتألمون ويتوجَّعون، ويصبرون على ذلك الألم، ويتحمَّلون هذه الأوجاع بصبر وأناة، ولا يعرفون أن مجرد اضطراب هذه «البلبوعة» الصغيرة هو الذي يحُول بينهم وبين الصحة والعافية.

يعرف كل إنسان أن «المُصْران الأعور» يُسبِّب آلامًا في البطن، وأن السعال المُزمِن وبصق الدم قد يدلَّان على تدرُّن في الرئة، وأن قِصر التنفس وتورُّم الكاحل علامتان من علامات هبوط القلب. هذا ما يعرفه كل إنسان في كل مكان، ولكن كم من الناس يعرفون أعراض اضطراب الغدة الدرقية؟ أظنهم لا يزيدون على واحد في المائة.

وبالرغم من أن اضطراب الغدة الدرقية غير فتَّاك وليس بمُميت، ولا يضطر الإنسان إلى مُلازمة الفراش، إلا أن الآلام التي تُسبِّبها كثيرة، بل وأكثر ممَّا يتصورها أي إنسان. تنهار قُوى الإنسان بمجرد ضعف هذه الغدة، فيتلوَّى من الألم وهو صابر على تحمُّله كل الصبر، كل ذلك من غير مبرِّر بأن يكون تشخيص الطبيب في غير محله، أو قُل لأنه، أي الطبيب، لم يعرف أثر هذه الغدة، فغضَّ النظر عنها.

أعرف فتاة في الثامنة والعشرين من عمرها، وصفها أهلها بالماليخوليا، وهي حالة من حالات الجنون، ونعتها أصدقاؤها بالنورستانيا، وهي حالةٌ أخرى من حالات الجنون، وحكم عليها رؤساؤها بعدم النفع. فلم تأبه لهذه الصفات جميعًا، ولم تُشعر انتقاداتهم أي اهتمام. وسارت على هذا المنوال حتى تفاقمت حالها، وظهرت عليها أعراضٌ كثيرة؛ كانت منهوكة القُوى باستمرار، ولم تكن تقدر أن تبقى مُتيقظة مُتنبهة فترةً طويلة من الزمن، ولم تقوَ عيناها على البقاء مفتوحتَين وقتًا طويلًا.

فلم يطمئنَّ بالها، ولم يستقرَّ حالها، ولجأت إلى المُقويات من جديد لتهدِّئ أعصابها، ولكن من غير جدوى. امتلأت خِزانتها بالأدوية من كل نوع ولون، فكان بينها سوائل حمراء، وأقراصٌ صفراء، وبلابيع بيضاء، ولكن هذه جميعًا رغم ألوانها الزاهية الجميلة لم تُجدِ ولم تنفع، بل ازدادت حالتها سوءًا على سوء، فأضحت ضعيفةً مهزولةً كسولة، فعوَّل أبوها على استشارة طبيب في أمرها. وبعد البحث والفحص توصَّل الطبيب إلى معرفة أن غدَّتها الدرقية هي موطن الداء، فوصف لها الدواء، ولم تمضِ بضعة شهور حتى ثاب إليها نشاطها، وعاد إليها تيقُّظها.

وأعرف سيدة في الخامسة والستين من عمرها، وكانت منكودةً مجهودة على الدوام، وكانت ابنتها تسخر منها لتكاسُلها، فتُنغِّصها هذه السخرية أكثر من تنغيص الألم. ولما

استدعت طبيبًا وجدت أن السبب في كل هذا النكد والجهد يرجع إلى هذه الغدة الدرقية. عمل الطبيب على علاجها حتى أبلَّت من مرضها، وأُعفيت من سخرية ابنتها اللازعة.

وأعرف سيدةً أخرى تزوَّجت منذ ثمانية أعوام، ولكنها لم تحمل طول هذه المدة. عرضها زوجها على أطباء كثيرين، فقرَّروا أنها سليمةٌ مُعافاة، ولكنها رغم كل هذا لم تُنجِب طفلًا واحدًا. وأخيرًا جدًّا وبعد فوات هذه الأعوام الثمانية، توصَّل نطاسي إلى أن غدتها الدرقية مُضطربة، وبعد علاجها أخذت تُنجِب الطفل في أثر الطفل!

وسيدةً ثالثة في الخمسين من عمرها، وكانت مُتعَبة باستمرار، وكانت تقول بين حين وحين: «إنني أشعر بتعبٍ شديد عندما أستيقظ في الصباح، وعندما آوي إلى مضجعي في الليل.» وكانت عديمة النفع لنفسها وللآخرين أيضًا، ولم تكن تشعر بأية لذة في الحياة. وبعد مُداواة غدتها الدرقية زاد وزنها ٣٥ كيلوجرامًا في بحر ستة شهور، وعادت إلى سيرتها الطبيعية.

هذه أمثالٌ واقعية أوردتها على سبيل المثال والنصح في نفس الوقت، لم يعرف هؤلاء المرضى في أول أمرهم السر في تنغيص حياتهم، وقطعوا الأمل والرجاء في الشفاء حتى أتاهم الطبيب البارع، وشخَّص داءهم الصحيح، ووصف لهم الدواء الناجع. والحق أن معظم أطباء العصر الحديث يفوتهم تشخيص الغدة الدرقية، ويلجئون إلى تشخيصاتٍ أخرى لا صلة بينها وبين الداء الحقيقي.

أما السبب في ذلك فيرجع إلى أن أعراض هذه الغدة ليست واضحةً كل الوضوح، كما أن اضطرابها ليس له دلالاتٌ معيَّنة. ومن هذا ترى أن الطبيب يعزو تعب المريض وتبرُّمه الدائم ونومه الكثير إلى مجهوده العنيف الذي يبذله في عمله لا أكثر ولا أقل، كما يعزو مرض الرجل المتوسط في عمره أو الشيخ إلى تقدُّم عمره.

فهذا رجل أعمال يفشل في أعماله، وذاك طفل لا يمرح مع بقية الأطفال، وزوجةٌ مُتعَبة على الدوام، وفتاةٌ عصبية جدًّا، لا شك عندي في أن سبب هذه الحالات جميعًا هي الغدة الدرقية، ورغم هذا فمن السهل جدًّا أن نعزو فشل الرجل في أعماله إلى كسله، وتأخُّر التلميذ في مدرسته وعدم انتباهه إلى غبائه، وهمَّ الزوجة وحزنها الدائم إلى غلاء أسباب المعيشة، وعصبية الفتاة ونقصان وزنها إلى هيامها بألوان الحب، ولكنني أُفضِّل كثيرًا قبل هذه الادعاءات أن نكشف عن غددهم الدرقية لنتأكد إذا كانت صحيحة أم عليلة.

ولكن ما هو سر هذه الغدة العجيب؟

وأين هي؟ وكيف نقوم بعمل هذه المعجزات؟

أما مهمتها فهي تنظيم نشاط جميع خلايا جسم الإنسان، وهي تتوصل إلى ذلك بإفراز مادةٍ كيميائية من اليود في الدم. أما إذا قلَّت كمية هذه المادة فسوف يتأثَّر جسم الإنسان كله، فيخمد نشاطه، وتقل حيويته. وتزن هذه الغدة أوقيةً واحدة، وصِغر وزنها هذا لا يمنعها من أن تؤثِّر تأثيرًا بالغًا في حياة الإنسان ومستقبله. وهي تُشبه الفراشة في شكلها، وتمدُّ جناحَيها في رقبة الإنسان.

وإذا كانت هذه الغدة طبيعيةً صحيحة فلا يمكن للإنسان أن يراها أو يتحسَّسها، كما أنه إذا ضعف نشاطها فهي تبقى طبيعية في حجمها، فلا يخطرنَّ ببالٍ للقارئ أن يتحسَّس رقبته للبحث عنها، وبعث النشاط فيها بكلتا يدَيه.

والمريض عادةً لا يفكر في استشارة الطبيب إلا بعد أن يستفحل داؤه، وتسوء حاله، وهو يعزو ضعف سمعه إلى وجود مادة شمعية بداخل أذنه، وعصبيته إلى تفكيره الدائم في مشاغله الداخلية والخارجية، ويعزو هذه الأعراض جميعًا إلى تقدُّم عمره.

أما تشخيص مرض الغدة الدرقية فيعتمد كثيرًا على براعة الطبيب، وتيقُّظه إلى حال المريض، وأما علاجها فهو أسهل بكثير من علاج جميع الأعراض الأخرى.

وهذا العلاج سهلٌ لطيف، ولا يشق على المريض تحمُّله، بخلاف القيود الأخرى التي يفرضها على علاج الآفات المختلفة. وبذِكر هذه القيود أقول إنها كثيرةٌ ما في ذلك شك، وتستنفد صبر الإنسان فيضيق بها، لا لشيء إلا لكونه إنسانًا قبل كل شيء!

فبينما ترى أنه واجب على المريض بتدرُّن الرئة وضعف القلب أن يُلازم الفراش، ولا يُغادره لمدة شهور، فيكره ذلك العلاج، وعلى المريض بالسكر أن يلتزم تناول أطعمة خاصة لا ترتاح إليها نفسه، وعلى المريض بفقر الدم أن يُحقن بزيت كبد الحوت فيشمئز منه، وعلى المريض بضغط الدم أن يُحدد من نشاطه، وأن على هؤلاء جميعًا أن يُنفِّذوا أوامر الطبيب بالدقة وإلا ساءت أحوالهم، فيُنفِّذونها كارهين؛ تجد أن المريض بغدته الدرقية ليس عليه إلا أن يبتلع قُرصًا أو قرصَين مرة أو مرتَين في اليوم، وسوف يُشفى بكل تأكيد، وتعود إليه حالة الطبيعة في بضعة شهور! وكلما أسرع المريض بعلاج غدته الدرقية كلما شُفِي من مرضه سريعًا.

ولا تُحاول أن تُعالج نفسك بيدك، أو أن تلعب في رقبتك لتتحسَّس هذه الغدة، وسوف تكون أشبه بمن يلعب بالديناميت. وخليقٌ بك أن تعرف أن كثيرين من الأطباء الهواة قد قضَوا على أرواحهم بمحاولة الكشف على أنفسهم، وتشخيص أمراضهم، أو مُعالجتها بأيديهم.

تتعطَّل ماكيناتٌ كثيرة عن السير في بعض الأحيان، ويكون صوت «الموتور» غير عادي في أحيانٍ أخرى، أما آلتك الشخصية فلا تختلف عن هذه جميعًا، ولا تشذ عنها، ولا بد أن «مسمارًا» معيَّنًا قد انحلَّ، ويحتاج إلى ربط وإحكام. مسألةٌ في غاية البساطة ما في ذلك شك.

ولكن يجب عليك أن تُحدد مكان المسمار أولًا!

كيف تؤثِّر الألوان في نفسك؟

يقول «إدوارد بودولسكي»: «وصل علماء النفس في أبحاثهم إلى أن الحرارة ليست شيئًا ماديًّا فحسب، بل هي كذلك شيءٌ نفساني. وعلى ذلك أصبح استخدام الألوان المناسبة في المنازل والمكاتب أمرًا له أهميته في توفير الدفء والحرارة عن طريق هذا التأثير النفساني؛ فقد ثبت أن من الألوان ما يُوحي بالشعور بالحرارة، ومنها ما يفعل العكس، أو يتعدَّاه إلى الشعور بالبرودة والقشعريرة تبعًا لنوع الفصل السائد، أو تبعًا لحالة الطقس.»

والألوان التي تبعث الشعور بالدفء في نفس الإنسان هي اللون الأحمر واللون البرتقالي، وما يُشتق منهما، كاللون الحنائي والأحمر الداكن والبرتقالي الداكن. أما الألوان الحمراء اللامعة فإنها تبعث الدفء كذلك، ولكنها تُسبِّب في نفس الوقت شيئًا من الانفعال، وتجعل الإنسان عرضة للثورة والتهيج السريع. ومن الألوان المقبولة التي تُوحي بالدفء اللون الأصفر بدرجاته المختلفة بين فاتح وباهت، واللون القرمزي واللون البني. ويُلاحَظ أنه كلما خفَّت درجة الألوان السالفة الذِّكر وأصبحت باهتة، قلَّ تأثيرها في بعث الشعور بالحرارة.

وإذا كانت الحجرة مطليَّة بطلاءٍ لونه يبعث الشعور بالبرودة كاللون الرمادي أو الأزرق أو الأخضر، فيمكننا بعث الحرارة النفسانية فيها عن طريق الأثاث؛ بأن تختار لها قطعًا من الأثاث والتماثيل والمصابيح تشعُّ ألوانًا تبعث على الدفء، فنستخدم مصابيح تُرسِل لونًا برتقاليًّا، وستائر حمراء داكنة، وقطعًا قرمزية اللون أو تميل إلى الاحتراق والتوهج، فكل ذلك وما إليه يُساعد على احتفاظ الإنسان بالشعور بالدفء والحرارة. ومن هذا القبيل الضوءُ الذي ينبعث من لوحة المذياع الزجاجية، فإذا كان أحمر فإنه خير ما يغذِّي هذا الشعور بالدفء في الليالي القرة الباردة.

ويعتقد كثيرٌ من علماء النفس أن البيئة إذا كانت مكوَّنة من ألوانٍ مناسبة تم اختيارها على أصولٍ علميةٍ صحيحة، فإنها سوف تؤثِّر في ميول الطفل النفسية لدرجةٍ كبيرة لا يمكن الوصول إليها بالعقاب أو الزجر والنصيحة. وقد أُجريت كثيرٌ من التجارب العلمية في جامعة «إيوا» برهنت على أن الأطفال الذين يُكثِرون من الصياح والصراخ سرعان ما يلزمون جانب الهدوء والسكينة إذا تعرَّضوا للضوء الأزرق، ويليه في هذا التأثير اللون الأخضر بجميع درجاته، أما اللون الأحمر أو الظلمة الحالكة فإنها تُسبِّب انزعاج الأطفال وصياحهم.

ومنذ سنين وجد أحد أصحاب المخازن الفتوغرافية أن عماله الذين يعملون في صنع الأفلام في غُرفٍ مُظلمةٍ مُضاءة بمصابيح حمراء عُرضةٌ للتهيج السريع والانفعال لأتفه الأسباب، وحينما استبدل صاحب المخزن أضواء هذه الغُرف الحمراء بأخرى خضراء وزرقاء تغيَّرت حالتهم فورًا، فرضيت نفوسهم، وأصبحوا أقدر على احتمال متاعب العمل طول اليوم.

ويضرب الدكتور «كورت جولدشتين»، طبيب الأعصاب العالمي، المثال الآتي دليلًا على تأثير الألوان على حالة المرضى بأمراضٍ عصبية: «عالجت امرأةً مُصابة بمرض في المخيخ، واضطراب يعتريها من حين لآخر، فلا تستطيع أن تحفظ توازُنها. وإذا حدث وارتدَت ملابس تميل إلى اللون الأحمر فإن كل هذه الأعراض تزداد وطأتها إلى درجةٍ لا يمكن احتمالها، فيدور رأسها وتسقط فاقدة الوعي، وحينما ترتدي ملابس تميل إلى الخضرة أو الزرقة يحدث العكس، فتهدأ وتقوى على حفظ توازُنها، وتبدو كما لو كانت سليمة.»

ويقول الدكتور «جولدشتين»: «إن اللون الأحمر يدفع إلى النشاط، ويستفزُّ المرء إلى الحركة والعمل بانفعالٍ ظاهر. أما اللون الأخضر فإنه يساعد على التروِّي وإتقان العمل المنوط بالإنسان. واللون الأحمر يخلق الجو الانفعالي، ويُحرِّك مشاعر الإنسان، فتتوارد عليه الأفكار، وتتفتَّح أمامه سُبُل الحركة والنشاط. واللون الأخضر بدوره يمدُّ الإنسان بهذه الصفات اللازمة للدأب والاستقرار حتى يُنجز مهمته على خير الوجوه، وهي ليست شيئًا غير الهدوء والصفاء تتآلف وتتضافر لتجعل الحياة طبيعيةً متَّسِقة البنيان، وما الحياة إلا ألوان.»

المخاوف التسعة

قال «جين أوين»: «لمَ يُساورك الهم والقلق؟ إنه لمن الطبيعي جدًّا أن يشغل بالَك «همٌّ» واحد على الأقل.»

منذ أمدٍ غير بعيد كنت أستمع إلى طبيبٍ نفساني مشهور وهو يُلقي أسئلته على نيِّف ومائة رجل وامرأة، ولم يكن هؤلاء «مرضى»، بل كانوا أناسًا موفوري الذكاء صِحاح العقول والأبدان، تبرَّعوا بالإجابة على أسئلة الطبيب لمُساعدته في دراسته الخاصة. ومن الغريب أن كل واحد من هؤلاء الناس أشار في غمرة الحديث دون وعي منه إلى خوفٍ خفيٍّ دفينٍ دائم الانتفاض في مكمنه، وعندما جمعت هذه المخاوف ألفيتها لا تعدو تسعة أنواع.

فإذا كان سر شقائك الخفي واحدًا من هذه المخاوف التسعة التالية، فممَّا لا ريب فيه أنك تُعذِّب نفسك دون مبرِّر؛ إذ إن ما يُثير قلقك في الواقع ليس الكارثة في حد ذاتها، وإنما مقدرتك على مُجابهتها. وكل هذا القلق يصبح سرابًا عندما تتخذ عدَّتك عقليًّا وعاطفيًّا لمُواجهتها. فانهض إذن، وتعرَّف أسباب الخوف، وتعلَّم كيف تُقابلها وجهًا لوجه.

(١) الخوف من المرض أو الألم: أثناء اشتغالي بالتمريض كنت أشاهد ذلك النوع من الخوف يقوِّض سعادة مئات من الناس، ويهزُّ ثبات جأشهم ومشاعرهم. وبعض المرضى من مُختلِّي الأعصاب كانوا يتصوَّرون أنفسهم على الدوام فريسة مرض غامض مُبهَم، وغيرهم كانوا يطوون بين جنبَيهم خوفًا مُروعًا من السرطان أو الزهري أو السكر أو الشلل أو اضطراب القلب. وإني لا زِلت أذكُر امرأة كان يُظلِم حياتَها بأسْرها يقينٌ أكيد بأنه مقضيٌّ عليها أن تموت بالسرطان، وكانت تكفي مجرد الإشارة إلى اسم المرض، أو الإحساس بأي ألم حقيقي أو وهمي، أو السماع عن إنسان لم يعد مقدَّرًا له في الحياة أكثر من عامٍ واحد، كانت تكفي هذه الأشياء لتُصيبها بنوبة من الذعر والهلع، وقد ظلَّت طيلة

أعوام عدة ترفض عرض نفسها للفحص الطبي، بحجة أنها لا تُطيق سماع الطبيب يلفظ حكمه عليها بالقضاء، وعندما استطاع بناتها حملها على عرض نفسها على الطبيب لم تكفَّ عن القول طيلة الشهور التالية بأنهن أخفين عنها قرار الطبيب الحقيقي في شأنها.

فلو أنها أجبرت نفسها على أن يفحصها طبيب بين الفينة والفينة لكانت حياتها أكثر اتزانًا، ولما حُرِم زوجها وبناتها من الطمأنينة والسعادة المنزلية، ولكانوا الآن يستعيدون ذكرى امرأة باشَّة سعيدة، لا ذكرى امرأة مُنزعجة مُختلة الأعصاب، قضت نحبها منذ بضعة أشهر في سن الرابعة والثمانين.

إذا ألفيت نفسك نهبة الخوف سيطر عليك من المرض، فلا تتردَّد في عرض نفسك على طبيب، وكُن على يقين أن الأقاصيص التي تدور عن أناس «لم يعد مقدَّرًا لهم في الحياة أكثر من عامٍ واحد» يدخل فيها الكثير من المُغالاة والتهويل، وكذلك الأقاصيص التي تقول «بإخفاء الحقيقة على المريض» لا تعدو أن تكون وهمًا واختلاقًا، وإن كنت لا تُصدق قول الطبيب.

ويمكنك هزيمة «الخوف» من الألم أيضًا إذا استطعت أن تتملَّك زمام نفسك. ضَعْ قائمة بأبغض سنة من الأشياء التي وقعت لك، والتي لا تُطيق أن تمرَّ بتجربتها مرةً أخرى، وإذا كنت على غرار الغالبية العظمى من الناس فستجد أن أشقَّ الأشياء في حياتك لا علاقة له البتة بالألم الجثماني، وأنت لو جعلت هذه الحقيقة نُصْب عينَيك لما بدا لك «الألم» في صورة ذلك الغول البشع.

(٢) الخوف من فقدان الوظيفة أو التذبذب المالي: إذا كان العَرق يتساقط باردًا على جبينك كلما دعاك مخدومك إلى مكتبه، فإن بك «حُمَّى فقدان وظيفة»، من المحتمل أنها تتسبَّب فعلًا في إثباط همتك ونقصان كفاءتك. وهذا النوع من المرض يُصيب — في الغالب — أولئك الذين يُحاولون أن يجعلوا وظائفهم تشغل حياتهم الروحية والعاطفية، وخير علاج له هو أن تنكبَّ على العمل في ساعات العمل، وتطرح عن ذهنك كل فكرة عنه في ساعات الفراغ.

وقد كانت الآنسة «م» فتاةً يانعة الصِّبا ذات كفاءة ومقدرة، استطاعت أن تتدرَّج من وظيفة ساعية بسيطة إلى سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة في شركةٍ كبيرة، وقد صرفت كل همها إلى الاحتفاظ بمنصبها الذي يحسدها عليه الكثيرون، إلى درجة أنها فقدت كل اهتمام بما يدور حوالَيها في العالم الخارجي، فانصرفت عن فصول الرياضة البدنية التي كانت تُمارسها، ورفضت قبول الدعوات، وعدلت عن محاضرات الثقافة والموسيقى التي كانت تنوي الانضمام إليها، وضربت صفحًا عن المُساهمة في نشاط الجمعيات الخيرية.

أصبحت حياتها بأسْرها مُتركزة حول وظيفتها، إلى درجة أنه كان يكفي أن ينسى مخدومها أن يُقرئها تحية الصباح ليحلَّ بها عذاب النذير الوهمي، وأخذ التافه من الأشياء يُثير قلبها وانزعاجها حتى بدت منها علائم الإهمال، ولم يكن هناك بدٌّ من أن تفقد وظيفتها لو لم يشتمَّ مخدومها سبب قلقها.

كُن على يقين أن الموظف الكفء الحي الضمير الذي يمكن الاعتماد عليه يندر تعطله عن العمل. اسعَ إلى أن تكون من ذلك النوع، وكُفَّ عن القلق.

(٣) الخوف من الوحدة: تلقَّيت في الأسبوع الماضي مُخاطبةً تليفونية من أرملة من معارفي أشرفت على الستين لتُعلِمني باضطرابها النفسي الفظيع؛ لأنها وقعت في حب رجل يبلغ من العمر نصف سنها! وقد تبيَّن لها أن الهوَّة السحيقة بين عُمرَيها تقف عائقًا لا يمكن اجتيازه في سبيل سعادتها الزوجية، فأُسقطَ في يدها ولم تدرِ أي سبيل تسلك.

لم تكن لها هواية أو مَشغلة معيَّنة تصرف نشاطها إليها، وهي لم تُحسَّ في حياتها بالحاجة إلى إنماء صداقة مع مخلوقٍ ما؛ نظرًا لأن شهرة زوجها كانت تعمل على جذب الناس إلى بيتها، فلم يكن يخلو من الأصدقاء والمعارف، أما وقد ترمَّلت فقد أحاطها الخوف من الوحدة بسياجٍ عاطفيٍّ شائك، لم تعد تعرف السبيل إلى التخلص من قبضته.

لا تُلقِ اللوم على «الظروف» إذا ألفيت نفسك سائرًا إلى طريق الوحدة؛ فالدنيا مليئة بالناس الأوفياء والأشياء المُمتعة، وما عليك إلا أن تمدَّ ذراعَيك وتفتح صدرك.

أعِدَّ لنفسك «صندوق توفير» من الأصدقاء والهوايات والمشاغل، ولا تكترثْ بعد ذلك أي اكتراث للخوف من الوحدة، وعندئذٍ لن تضطرَّ إلى أن تُعلِّق كل آمالك على شيءٍ واحد أو شخصٍ واحد لا تضمنه كما حدث لصديقتي الأرملة.

(٤) الخوف من سلوك شريكة حياتك أو أطفالك أو أقاربك: يحسُن بك قبل أن تقضي على نفسك بالهموم أن تتحقَّق مما إذا كانت المشكلة التي تُثير قلقك مشكلتك أو مشكلة أحد غيرك.

إذا كنت حقًّا قد حاولت أن تكون مثالًا يُحتذى للزوج (أو للزوجة)، فلا مدعاة البتة لما يُساورك من قلق بشأن «ذلك الرجل» (أو تلك المرأة) ممَّن لا وجود له في الواقع إلا في مُخيِّلتك، أو في الإشاعات العابثة لأحد مروِّجي المتاعب. كُن على يقين أنه ما من امرأة في تمام وعيها تُخالف زوجًا مُخلِصًا رضيًّا دمث الطباع، وكُوني على يقين أنه ما من رجل يهجر بيتًا وديعًا مُفرحًا وزوجةً كيِّسة دون سبب.

وأما الأطفال فسرعان ما يستأنسون وتنصلح سيرتهم بعد أن يتخبَّطوا في عدد من الأخطاء. ثِق أنه ما من أبٍ يستطيع أن يحلَّ إرادته محل التجربة والاختبار، فلا تتبرَّمْ إذن إذا رأيت أولادك يتنكَّبون طريق الصواب، فسرعان ما تردُّهم إليه التجارب.

وإذا ألفيت التفكير القائم في شئون أسرتك يُحتم عليك دائمًا، فيبدو أنك من هذا النوع من الناس الذي يلتذُّ ويستمتع خفيةً وفي دخيلة نفسه إذا شعر أنه شهيد معذَّب، فعليك أن تُغيِّر موقفك.

لقد قال فيلسوفٌ حكيم مرة إنه: «ما من مشكلةٍ تنجم عن علاقات البشر بعضهم بالبعض ويستعصي حلها على الزمن والصبر والحب والدعاء.»

(٥) الخوف من الرأي العام: حدَّثتني صديقة لي تشتغل بالتدريس في الأرياف بقصةٍ ظريفة (ومُؤثِّرة في الوقت نفسه) عن جارتَين في منطقتها، لم تكفَّا منذ أعوامٍ طويلة عن شنِّ حربٍ أسبوعيةٍ كلٌّ منهما على الأخرى بسبب «غسيل» يوم الإثنين، ولم يكن الجو العاصف أو المرض ليحُول بينهما وبين النهوض من الفراش قُبَيل الفجر لتتأكد كلٌّ منهما أنها تستطيع كسب المعركة بتعليق غسيلها قبل الأخرى.

ولا يقلُّ عن ذلك مدعاةً للأسى ما نراه من المخاوف من بعض الناس الذي يُغرِقون أنفسهم في الديون «للظهور بمظهرٍ لائق»، أو الذين يصلون الليل بالنهار في الكدِّ والإرهاق المُضني بما ليس في طوقهم ليبلغوا مكانةً معيَّنة يغيظون بها الآخرين.

كُفَّ عن تعذيب نفسك بظنون الناس وآرائهم! وكُن على يقين من أنك مهما بذلت من جهد للظهور أمام الناس بمظهر الأُبهة والعظمة فلن تترك أثرًا كبيرًا؛ لأن الناس بوصفهم آدميين سيظل اهتمامهم وشغفهم بأنفسهم أضعاف أضعاف اهتمامهم أو شغفهم بك.

(٦) الخوف من الشيخوخة: لن يتردَّد شخصٌ بلغ نهاية العمر بعد حياة ناجحة في أن يؤكد لك أن لكل مرحلة من مراحل الحياة مسرَّاتها ومباهجها، وأنه في مقدور المرء أن يجعل الخاتمة لا تقل بهجة وسعادة عن البداية إذا تعلَّم أن يعيش كل يوم عيشة شبع وامتلاء.

وقد حدَّثتني امرأةٌ ضئيلة بلغت من العمر ثمانين ربيعًا، فقالت وعيناها تتلألآن إنها ما زالت تأمل في الاستمتاع بموارد الحياة حينما «تطعن في السن»! وبمثل هذه الفلسفة المُتفائلة لن يُحسَّ المرء بالذعر كلما حلَّ عليه عيد ميلاد جديد.

(٧) الخوف من الأماكن المُغلقة أو القطط أو الظلام ... إلخ: أصبح الأطباء النفسانيون الآن في موقفٍ يؤهِّلهم لإدراك كُنْه مئات من المخاوف المُتأصلة، ومعالجتها علاجًا حاسمًا، وأغلب هذه المخاوف يمكن اقتلاعها من جذورها في بضع دقائق. ومن حسن الحظ أن

الناس قد أخذوا ينظرون الآن إلى الأمراض العصبية نظرةً عادية، وأصبح التردد على الأطباء النفسانيين لمُعالجة الهزَّات العصبية والارتباكات النفسية من الأمور المألوفة التي لا خزي فيها تمامًا كالتردد على أطباء الأسنان!

(٨) الخوف من الجنون: لعلك سمعت مرارًا بالقول القائل إن الناس الذين يظنُّون أنهم سائرون إلى فقدان عقلهم لا أساس من الصحة. لعلك سمعت بهذا القول أكثر من مرة حتى أصبح لا يعني شيئًا بالنسبة إليك، ولكنه الحقيقة التي لا حقيقة بعدها.

كلٌّ منَّا يُصاب في بعض الأحيان بشرود الذهن، أو بعدم المقدرة على التركيز وحصر التفكير في شيء بالذات، أو ببعض المشاعر المُلتوية أو المُنعكسة، أو يُداخله إحساسٌ مُبهَم بقرب وقوع كارثة. فإذا ألفيت نفسك نهبةً لأحد هذه الأعراض فتستطيع أن تُبشِر خيرًا؛ لأنك إنسانٌ عادي كبقية الناس، وأما إذا ظلَّت مُتغلغلة في قرارة نفسك تأبى التزحزح، فاقصد طبيبك الخاص وهو يشفيك منها.

(٩) الخوف من الموت: لعل أكثر المخاوف ذيوعًا في العالم وأشدها تأصُّلًا هو ذلك الذعر الماحق من الموت، وبعض الناس يأتيهم ذلك الخوف في أوقاتٍ مُتباعدة يُصاحبه إحساس بالشيخوخة في جوف المعدة، والبعض الآخر، حتى من كان لديهم أصلٌ دينيٌّ راسخ، ينزل عليهم ذلك الخوف كأنه ظلامٌ أسود قاتم يتربَّص بهم، ولا يستطيعون منه فكاكًا.

إذا كان الخوف من الموت ينشر عليك جناحَيه القاتمين، ويحرمك من الاستمتاع بالحياة؛ فاكشف للطبيب عما يُساورك ويُثقِل صدرك، وهو لن يتردَّد في أن يؤكد لك أن الجسم البشري والحالة العاطفية ما يكادان يبلغان نقطةً معيَّنة حتى تُرحب بالموت في بساطة واستسلام، ويشهد كثيرٌ ممَّن أشرفوا مرة على الموت بأن «الانتقال» ما كان يزيدهم إلا سرورًا. وقد أخبرني واعظٌ عاد من ميادين القتال أن الجنود لم يكونوا يشعرون أمام الموت بشيءٍ غير الهدوء والسلام العميق.

لا تشغلْ بالك بفكرة الموت، فأمامك الحياة بأسْرها قبل أن يحلَّ الموت، وما أمتع الحياة!

تخلَّصْ من ذلك الخوف الدفين أيًّا كان نوعه، ولا تدَعْه يغترف حياتك ويُفسِدها عليك.

ولا تنسَ أبدًا قول بنيامين فراتكلين: «لقد كانت حياتي مليئة بالهواجس المُقبضة، وأغلب هذه الهواجس لم يكن لها مبرِّر؛ إذ لم يصدُق حَدْسها.»

الانفعالات النفسانية عند الحيوانات

لبعض الحيوانات أدوار في حياتها، تعصف فيها بأدمغتها عاصفاتٌ انفعالية تفُوق عاصفات البشر النفسانية، وقد تخرج بعض الحيوانات عن طبائعها المُعتادة بسببٍ طارئٍ غير عادي على حياتها، فتثور أو تحنَق أو تُغِير أو تحرَد أو تحقد، إلى غير ذلك من الطباع التي لا نظنها في غير البشر.

في حديقة الحيوانات في جامعة كاليفورنيا قردٌ يُدعى «كيوبد»، أَلِفَ قِرْدة تُدعى «سيك»، فعاشا بضع سنين في قفصٍ واحد زوجَين، وظهر عليهما أنهما سعيدان جدًّا. بعد حين نقل ناظر الحديقة القردة إلى قفصٍ آخر بعيد عن قفصها، وجيء بقردةٍ أخرى بدلها تُدعى «توبسي» إلى قفص القرد كيوبد. ففي بادئ الأمر نفر كيوبد منها، وبقي مُجافيها مدة، ثم جعل يألفها فيُغازلها ويُؤالفها. وفي ذات يوم قِيدَ كيوبد وتوبسي من منزلهما إلى منزلٍ آخر، ومرَّا أمام منزل سيك رفيقة كيوبد السابقة، فما إن وقع نظر كيوبد عليها حتى هاج وسخط وصرخ، ثم التفت إلى صديقته الثانية توبسي، ثم عاد ينظر إلى الأولى سيك، وشرع يعضُّ ساقه عضًّا شديدًا حتى جرَّحها تجريحًا، وأسال الدم منها غزيرًا، فأخذوه إلى مستشفى الحيوانات حالًا حيث ضمَّدوا جِراحه، ثم أعادوه إلى منزله، وأعادوا إليه رفيقته الأولى سيك، فكانت تؤاسيه، وتُهدئ ثورة أعصابه، وتسكِّن روعه، حتى اطمأنَّ تمام الطمأنينة كلها، وعادت إليه وداعته الأولى. ويقول مُدير الحديقة الذي برع بمعالجة سكان الحديقة: «إنه لولا إعادة رفيقته إليه لقتل نفسه عضًّا وتجريحًا.»

إذا حُبِس بعض الحيوانات الداجنة مُنعزلًا أُصيب بالألم العصبي، والشاهد على هذا أن أحد دارسي طبائع هذه الحيوانات عزل بعض الفراخ التي نفقت عن بيوضها حديثًا «كتاكيت»، ووضع كل فرخ في قفص على حِدَة، ووضع له الحَب أو الغذاء، ووجَّه إليه

النور حسب الاقتضاء، ولم يدَعْه يرى أحدًا من إخوانه، حتى ولا الأستاذ المُختبِر نفسه. في الأسبوع الأول كانت هذه الفراخ المُنفردة كثيرة التصويت، وفي الأسبوع التالي صار كلٌّ منها كثير الحركة، يفرُّ من زاوية إلى زاوية في القفص، ثم يُطارد الذباب، ويُبعثر طعامه من الحَب والخليط في الصِّحاف، ويثب كأنه يطير من جنب إلى جنب. مثل هذه الحركات لم يحدث من الفراخ الأخرى التي لم تنعزل عن أخواتها. ولما وُضِعت هذه الفراخ المُنفردة التي صارت عصبية المزاج مع أخواتها الأليفة أجفلت وجزعت، وكانت تبتغي الفرار من بينها، فكان القفص الذي يجمع الفريقَين في اضطرابٍ مريع.

ورُبِّيت ببَّغاء في قفص مع كُرةٍ مصنوعة من نسيجٍ أبيض وأزرق، ولم تكن لتهدأ إلا إلى جنب الكرة المعلَّقة المُتأرجحة، فكانت تُداعبها كأنها طيرٌ ذو ريش وزغب، ثم تضع رأسها وضعًا بحيث تصدمه الكرة في خلال تأرجُحها. كانت تُعامل الكرة كأنها رأس ذَكر أليف، وتُجامله وتُعاطفه كأنه حبيبها الذي أُغرمت به، وكانت تودُّ أن تكون الكرة معلَّقة دائمًا بحيث تكون على مستوى رأسها، حتى إذا كانت أوطأ من رأسها كانت تضطرب جدًّا، وإذا رُميت الكرة إلى أرض القفص صمتت هي، وعكفت إلى إحدى الزوايا حزينة كأن أحد رفاقها مات، وكذا تفعل الببغاوات حين تموت واحدة منهنَّ، وقد يطول المأتم عندهن يومًا ويومَين.

إن بعض علماء النفس يعزون الظاهرات الشاذة في بعض الحيوانات إلى النبضات الجنسية «النسلية» بناءً على نظرية فرويد، ذاك حين يتعذَّر على الحيوان الوصال الجنسي، فتسوء تصرفاته جدًّا، ويصبح كالمجنون. فمن ذلك أن بَبرًا — وهو نوع من السباع الهندية أبيض مخطَّط — كان سجينًا في قفصه، فكان يقضي لُبانته الجنسية ضامًّا إلى صدره قُرمة شجرة في قفصه، وذلك متى اشتدَّت غُلْمته، وهاج شبقه، حتى يكاد يُجنُّ جنونه.

وإذا حدث ما أهاج شبق بعض الحيوانات بدَت منها أفعالٌ تصرف بها ذلك الهياج، وتُسكن الاضطراب؛ فقد لُوحِظ أن بعض أشباه الإنسان وغيرها من الحيوانات الثدييَّة الضخمة إذا أهاجتها حركات الحيوانات المُجاورة لها — في حديقة الحيوانات — أو إذا كايدها الزُّوار المُتفرجون، تهيج فيها النعرات الجنسية هياجًا يتجاوز حد المألوف.

وكان أحيانًا إذا خابت النعرة الجنسية في هذه الحيوانات، ولم يتيسَّر لها الوصال، كانت تصرف عاطفتها الجنسية بأفعالٍ أخرى غير جنسية، ومن ذلك أنها تُقاتل حيواناتٍ أخرى وإن تكن غير مُعادية لها. وقد لُوحِظ أن بعض ذكور الطيور إذا خابت في حبِّها

تصرف شوقها في بناء عشوش لا حاجة بها إليها، أو في المُبالغة بالتباهي بجمالها كالطاوس حين ينصب ذيله ويُفرده.

وفي بعض الأحوال إذا أُهيج الحيوان للقتال ولم يجد ما يُقاتله قاتَل نفسه؛ فالكلب إذا لم يجد ما يُداعبه داعب ذيله. ومن ذلك أن شمبانزيًا كايَده الزائرون جدًّا، فصعد على عمود وجعل يخبط رأسه بشدة في السقف. والجُرْذان إذا خابت مسعًى عضَّت ذيولها. ويُقال إن الأفعى إذا غضبت ولم تجد ما تلدغه عضَّت بطنها. وشُوهِد ضبع مخطط يعضُّ كفه حتى أدماه. وقد شُوهِد قرد في حديقة الحيوانات يعضُّ طرف ذيله حتى قطَّه. تفعل بعض الحيوانات هكذا من جرَّاء كيدها وغيظها، والطفل إذا لم ينل مرغوبه جعل يقضم ظفره، والبالغون يمضغون «اللادن»، أو يُدخنون، أو يعضُّون قلم الرصاص؛ تصريفًا لغمِّهم وهمِّهم وغيظهم.

وأطفال الشمبانزي ترضع أصابعها كما تفعل أطفال البشر.

إذا حدثت مُشاجرة بين العصافير في أثناء بناء العشش ارتدَّت إلى المُغازلة والتودد، وإذا لم تنَل العصفورة العروس وطرَها من حبيبها في أول حبها ذهبت إلى أمها مُتغيظة، كأنها تشكو الحبيب، أو تستفتيها في أمر حبها.

إذا حدث حادثٌ مريع لبعض الحيوانات جعل طباعها دمسة بعد الحادث. روى بافلوف مربِّي الكلاب في لينين غراد، قال: كانت كلابه تختصم كثيرًا فيما بينها، وهو يُعاني في مُصالحتها. وحدث في لينغراد طوفانٌ غير عادي، حتى كادت الكلاب تغرق في حجراتها، فأطلقها لكي تسبح إلى مكانٍ أمين مسافةَ ربع ميل، وكان البرق اللامع يُخفيها، والرعد القاصف يُروِّعها، والمطر الهاطل يُزعزع أفئدتها. ولما وصلت إلى المكان الأمين سكنت ثوراتها، وبقيت أشهُرًا في دعة وطمأنينة وسلام، ولا خصام بينها خلافًا لعادتها، وكان الكلب الواحد إذا رأى قطرات الماء تكِفُ من خصاص الباب أو من تحته ينذعر مُهتاج الأعصاب؛ إذ يتذكَّر يوم الطوفان وهطل الأمطار، بقي أثر هذه الصدمة العصبية عند الكلاب مدةً طويلة ترتعد كلما حدث ما يُذكِّرها بها.

وكثيرًا ما تُحدِث الصدمة النفسانية نوعًا آخر من الداء العصبي الذي يصاب به البشر، فبينما كانت دجاجة تنقد حَبها جيء بخنزير ووُضِع أمامها، فصدَّت عن الأكل حالًا، ولم تعد تأكل حتى بعد أن أخذ الخنزير من قبالتها، بل بقيت مُضطربةً مُنزعجة. ولم يمكن تمليقها وحملها على الأكل إلا حين وُضِع لها طعامها في مكانٍ آخر غير ذلك المكان، فأكلت. فكأن المكان الأول في نظرها مَسكن الجن.

إذا مُنِعت دجاجة عن قيادة فراخها وتغذيتها، وتعليمها كيفية التغذية والشرب بالطريقة المُعتادة؛ تحطَّمت أعصابها، وعانت من الهياج العصبي ما يُعانيه البشر.

أضاف مربِّي الفراخ إلى فراخ دجاجه ٤٠٠ فرخ في بدء حياتها؛ لكي تعولهنَّ مع فراخها، وتُعلمهن النقد، وتُعنى بهنَّ بمُقتضى غريزة الأمومة، ولكن كانت هذه المهمة فوق طاقتها، بل مُستحيلة عليها. فلما تعذَّر عليها الأمر أصبحت مريضة العصب، ولما ضاق ذَرْعها استعفت من المهمة بتاتًا، وهجرت الفراخ جميعًا، وجافتها مُجافاة الحنق، وتركت تلك الفراخ لرحمة القضاء والقدر وهي لا تدري كيف تقتات، فحار المربِّي بأمرها.

الحيوان حتى الإنسان يُربَّى أو يُدرَّب على نوع من السلوك في ظرفٍ خاص بذلك السلوك، ثم يُدرَّب على نوعٍ آخر في ظرفٍ آخر؛ أي لكل نوع من السلوك ظرفه الخاص، ولكن إذا طرأ ظرفٌ متوسط بين الطرفَين، بحيث يتعذَّر على الحيوان أن يُميِّز بين هذا وذاك، كان الإجهاد العصبي صعبًا جدًّا عليه، حتى إنه لا يستطيع أن يفعل أي واحد من الأمرَين.

كان بافلوف الروسي مربِّي الكلاب قد عوَّد بعض كلابه ألا تنتظر طعامًا إلا متى رأت على شاشة ظل دائرةً تامة، وما دامت ترى شكلًا بيضيًّا «إهليلجًا» يجب أن تعلم أنه لا طعام لها، فلا تذهب إلى مائدتها، ثم جعل يُحول الإهليلج إلى شكل دائرة تدريجيًّا، فلما قارب شكل الإهليلج بشكل دائرة غير تامة حارت الكلاب، فلم تعد تستطيع أن تُقرر هل الطعام قد أُعدَّ لها، وهل تُدعى لمائدتها أو لا. فتهيَّج بعضها، وأصبحت كأنها مُصابة بالماليخوليا، وبعضها اضطربت اضطراب الجنون. بعض الحيوانات البليدة البلهاء كالقطط مثلًا قلَّما يؤثِّر في أعصابها هذا التغيير في الظروف.

ولاية نيويورك تربِّي أسرابًا عديدة من القطا المُطوقة «أشباه الحمام» في حظائر كبيرة، ولكنها تخسر نحو ثلث نتاجها لسوء نموها بسبب الانحطاط النفساني — إذا صحَّ هذا الوصف للحيوان — فالذكور التي تخفق في الجهاد لأجل المُزاوجة تعجز عن المُزاوجة الطبيعية بتاتًا، ثم تموت بسبب هذا العجز. وقد عُولِج هؤلاء الذكور ببعض أنواع المواد «هورمونات»، وهي مُفرزات الغُدد الصُّم، فعادت لها قوَّتها النسلية، وصلح حالها.

سمك القاروص المُسمَّى ذئب البحر قليلُ الاجتماعية؛ أي إن أفراده لا تتآلف؛ ولذلك تكمن كباره في البِرك الكبيرة أو البحيرات أو الشواطئ حيث يكثر نبات البحر، حتى متى مرَّت صغاره انقضَّ عليها والتهمها، ولكن إذا أُزيلت تلك النباتات، وأصبح الماء صافيًا، ولم يعد في وُسْع هذه الحيوانات أن تترصد صغارها، أَلِفَت بعضها بعضًا، ولم تعُد الكبيرة تلتهم الصغيرة، وأصبحت كلها فرائس للصيادين البشريين فقط.

لبعض الحيوانات غرامٌ وانتقام، بعضها تعشق وتُغير وتحقد وتُقاتل بسبب عشقها، وفي سبيل معشوقاتها، والكلاب أكثر الحيوانات محبةً وولاءً وعشقًا.

وقد روى شخصٌ مثقَّفٌ ثقةٌ أن عنده كلبًا مهذَّبًا، وفي منزل على سطح منزله كلبٌ جسيمٌ شرس، وهناك كلبةٌ جميلةٌ لطيفة تُساكن هذا الكلب الشرس، ولكنها قلَّما تألفه، وكان كلب صاحبنا يصعد أحيانًا إلى السطح، فتُرحِّب به الكلبة، فيُطارده ذلك الكلب المُتوحِّش غيرةً منه، حتى يضطرَّه أن ينزل عن السطح. وما لبثت تلك الكلبة اللطيفة أن نفرت نفورًا شديدًا من رفيقها، وصارت تنزل حينًا بعد آخر وتثب على باب صاحبنا كأنها تدفعه بيدَيها، فلا يلبث كلب الدار أن يُحسَّ بها ويعلم بقدومها، فيُسرِع إلى الباب، ويعوي عواءً خافتًا كأنه يبكي، ويأبى أن يسمعه ذلك الكلب الخصم، حتى إذا فتح الباب اندفع هذا إلى هذه، وهذه إلى هذا، بدعاية شيقة، ثم يفترقان.

ففراقٌ يكون فيه دواء أو فراقٌ يكون فيه الداء

وكادت الغيرة تقتل ذلك الكلب الوحشي، فترصَّد غريمه ذات يوم، وعضَّه عضَّةً نجلاء في كتفه، اقتضت أن يُعرَض على الطبيب البيطري. وكاد الجُرح أن يفسد فسادًا مُميتًا، فأخذه الطبيب عنده تحت المُعالجة حتى شُفِي. والعجيب أن تلك الكلبة الوديعة كانت تنزل كل يوم وتهزُّ الباب، فيفتح لها لكي تتفقَّد حبيبها، وإذا لا تجده تعود آسفةً حزينة، وما كان أعظم اغتباطها حين سمعت نباحه بعد عودته من المستشفى مُعافًى، فنزلت والتقى الحبيبان في ساعة فرح لا مزيد عليه، فلم تعد تلك الكلبة تُطيق مُصاحبة ذلك الكلب المُتوحِّش، والغريب أنه احتمل جفاءها على مضض، ولم ينتقم منها.

وكان لصيادٍ كلبُ صيد جيد حسن التربية، ولصديقه كلبة كذلك، ومنزلاهما في بلدةٍ واحدة على بُعْد ربع كيلومتر، فكان الكلبان مُتعاشقَين. ولدت الكلبة، وفي مدة نفاسها كانت تُلازم جراءها، وكان عاشقها يزورها كل يوم مرتَين أو ثلاثًا وبين شدقَيه ملء فمه قسم من طعامه، على الرغم من أنها ليست في حاجة إلى الطعام؛ لأن صاحبها يكفيها طعامًا؛ لذلك صار صاحب الكلب يزيد جراية كلبه حاسبًا حساب عشيقته.

وأُخذت من كلبة جراؤها التي ولدت حديثًا، فانزعجت جدًّا، وهاج غضبها، ومرض عصبها. وفي ذات يوم استفقد أهل المنزل طفلهم، فوجدوه يرضع من ثدي الكلبة وهي مُنطرحة على جنبها تُسهِّل له الرضاعة، فكانت رضاعة الطفل خير علاج لهياج أعصابها.

وللحمام أُلفةٌ غراميةٌ نادرة في غيره من الحيوانات، فذَكر الحمام الداجن وغير الداجن أمين لزوجته، ليس في فصل اللقاح فقط، بل مدة الحياة كلها تقريبًا، فإذا فرَّق النوى بينهما ثم التقيا بعد حين عرف كلٌّ منهما الآخر، وعادا يتساكنان ويتآلفان، وذكر الحمام يُعاون زوجته في بناء العش وفي حضانة البيض ورعاية الفراخ. هذه ظاهرةٌ مُشاهَدة كثيرًا في الحمام.[1]

وأما ولاء الكلاب فحدِّثْ عنه ولا حرج، والكلب أصدق ولاءً من الإنسان، ولولائه قصصٌ كثيرة. كان لرجلٍ كلبٌ موموق جدًّا، ومرض الرجل مرضًا خطرًا جدًّا، فكان الكلب مُلازمًا باب غرفته لا يأكل ولا يشرب، وفيما كان المريض يحتضر كان أهله مُضطربين جدًّا، وكانوا يركعون عند سريره مُصلِّين، وكان الواحد منهم يضع يدَيه على حافة السرير ورأسه بين يدَيه، فكان الكلب يفعل كذلك أيضًا، فيُقعِي لدى السرير، ويضع يدَيه على حافة السرير ورأسه بينهما.

وكان الكلب يُلازم غرفة الميت على هذه الصورة إلى أن أُخِذ الفقيد إلى المدفن، فرافق الكلب الجنازة حتى القبر، ورام أن يبقى مُقعيًا لدى الضريح، فأخذوه عنوة.

والغريب أنه كان يفهم أن أهل الفقيد ينوون أن يزوروا الضريح اليوم مثلًا، فيثور حتى يأخذوه معهم. هذا ولاء ليس مثله ولاء عند البشر إلا بين الأهل الأخصَّاء.

وكان لرجلٍ شغلٌ يومي في مكانٍ بعيد، بحيث لا يصل إليه إلا في القطار الحديدي، فتعوَّد الكلب أن يُودِّع سيده في المحطة، ثم يأتي إلى المحطة في ميعاد وصول القطار فيستقبله فيها.

بعد حينٍ مات الرجل، ولكن الكلب بقي يأتي كل يوم إلى المحطة لكي يستقبل سيده، فيبحث عنه بين الركاب، حتى إذا لم يجده عاد خائبًا حزينًا، وطال عهده في هذه الزيارات الخائبة حتى مات غمًّا وصيامًا.

[1] الهلال.

أثر الألوان في الحياة

اختيار ألوان الملابس أحد العوامل التي تُعين الإنسان على النجاح في الحياة — سواء أكان رجلًا أم سيدة — فعليك بلبس الملابس ذات الألوان التي ترتاح إليها، وتشعر معها بالاعتداد والثقة بالنفس؛ فبعض الناس يجد هذا الشعور إذا لبس ملابس زرقاء، والبعض في الملابس البنية الداكنة، ومهما كان الأمر فالبسْ ما يُلائمك وتطيب له نفسك، واجعل رباط الرقبة بشكلٍ يزيد في حيويتك، ويُضفِي عليك التقدير والاستحسان من غير جنوح إلى التبذُّل أو خروج على المألوف. ولعل خير ما يُناسب السيدات إذا أردن النجاح في مهمةٍ يُباشِرْنها هو اللون الأزرق بدرجاته المختلفة، واللون الأحمر الداكن، وكذلك اللون الزيتي. وعلى أية حال يجب أن يكون اختيار الألوان مُناسبًا لنوع المهمة والوسط الذي سيوجد به الإنسان.

سلوى وجمال

سلوى عصرية، تلقَّت علومها في مدارس إفرنجية، ونشأت على حياة من الترف والدلال جعلتها محطَّ أنظار الرجال، وقد انتهى بها المطاف أخيرًا إلى الزواج، فكانت هذه قصتها.

الفصل الأول: عندما خانت سلوى زوجها أول مرة، سألها جمال غاضبًا: «لقد خنتِ عهدي مع هذا الرجل، فما الذي أغراكِ بهذا؟»[1]

[1] الدنيا الجديدة.

فأجابته سلوى: «لأنه أنيق.»

وخرج جمال يستشير أصدقاءه وخلَّانه عن أفضل «ترزي»، أين نجده؟ وأين يشتري أجمل الكرافتات؟! وعند أي حلاق يحصل على أكمل عناية بشعره وأظافره وشاربه وذقنه؟ ولما أن حصل منهم على جميع هذه المعلومات نفَّذها بحذافيرها، وعاد إلى زوجته واحدًا من أكثر الرجال أناقة، وما إن رأته سلوى حتى ارتمت في أحضانه، وصاحت في إعجاب وإكبار قائلةً: «سأعبدك مدى الحياة.»

وعاشا سعيدَين بعد ذلك.

الفصل الثاني: ولما خانت سلوى للمرة الثانية سألها جمال غاضبًا: «لقد خنتِ عهدي مع هذا الرجل، فما أغراكِ بهذا؟»

فأجابته سلوى: «لأنه قوي.»

وقصد جمال لتوِّه إلى أقرب نادٍ رياضي فالتحق به، وقضى الأشهُر الطويلة في المران الشاق حتى تفوَّق في جميع أنواع الرياضة، وتضخَّمت عضلاته حتى أصبحت قوية مثل عضلات المصارع، بل الواقع أنه انتصر على بطل المصارعة في مباراةٍ ودية، ثم عاد إلى زوجته قويًّا كالثور، وما إن رأته سلوى حتى ارتمت في أحضانه، وصاحت في إعجاب وإكبار قائلةً: «سأعبدك مدى الحياة.»

وعاشا سعيدَين بعد ذلك.

الفصل الثالث: ولما خانت سلوى زوجها للمرة الثالثة، سألها جمال غاضبًا: «لقد خنتِ عهدي مع هذا الرجل، فما الذي أغراكِ بهذا؟»

فأجابته سلوى: «لأنه غني.»

وقضى جمال ليلته هذه في حجرته المُوصَدة يعمل في الوصول إلى اختراعٍ هام، وفي الصباح وصل إلى هدفه، واكتشف آلةً فنيةً جديدة وهامة، وباع اختراعه لشركةٍ أمريكيةٍ نظير مليون من الجنيهات، وعندما عاد إلى زوجته بالمال ارتمت سلوى في أحضانه، وصاحت في إعجاب وإكبار قائلةً: «سأعبدك مدى الحياة.»

وعاشا سعيدَين بعد ذلك.

الفصل الرابع: وكانت المرة الرابعة ... والأربعين ... والأربعمائة ... والأربعة آلاف ... وفي المرة الأربعة آلاف وأربعمائة وأربعين لخيانة سلوى، سألها جمال بهدوء: «لقد خنتِ عهدي مع هذا الرجل، فما الذي أغراكِ بهذا؟» أجابته سلوى: «لأنه قاتل.»

وتلمَّس جمال جيبه، وتفقَّد مسدسه، ثم أخرجه وأطلق رصاصةً واحدة على سلوى قتلتها.

وفي هذه المرة يمكننا أن نقول بشيء من الدقة إن سلوى كفَّت بعد ذلك عن خيانة جمال.

نفسية المُعلنين عن الزواج

ماذا يفعل الإنسان ليحصل على شريكة — أو شريك — حياته وفق «المُواصفات» الخاصة التي ترسمها له ميوله وذوقه وخياله؟! ماذا يفعل إذا تعذَّر عليه العثور على هذا المخلوق من بيان معارفه وأصدقائه؟! ثم ماذا يفعل لكي يعرف الناس أنه في حاجة إلى زوج أو زوجة؟!

كانت أُسَرنا المصرية القديمة تلجأ إلى «الخاطبة» في فض هذه المشكلة، تُكلِّف الخاطبة بأن تتحدَّث عن بناتها في مجلس الأُسَر التي تعرف أن فيها شبابًا «على وش جواز ...» ولما كانت الخاطبة تاجرة أو «سمسارة»، فقد كان همها الوحيد هو «التزويج» على أية صورة، فكانت تُبالغ في أوصاف «العملاء» و«العميلات» حتى تصل إلى إتمام الصفقة؛ لهذا كان الالتجاء إلى الخاطبة أمرًا محفوفًا بالأخطار.

فما العمل إذن؟ لقد لجأ الأوروبيون إلى طريقةٍ مُبتكَرة، هي الإعلان عن أنفُسهم في الجرائد والمجلات، يذكُرون صفاتهم ومركزهم الاجتماعي في كلماتٍ مختصرة، ثم يُعيِّنون شروطهم، ويرجون «الراغبين أو الراغبات» كتابة الطلبات إلى الجريدة التي نُشِر فيها الإعلان تحت رقم معيَّن، وتتكلَّف الجريدة بضمان سرية الموضوع كله حتى لا تنكشف شخصيات المُتقدمين، وحتى تحُول بين تلاعُب من يريد العبث.

ولعل ألطف إعلانات الزواج هي تلك التي يقرؤها الإنسان في الصحف الفرنسية، فهي جميلة الصيغة وإن كانت «مكشوفة» في بعض الأحيان، ويُلاحَظ أن المُعلنين فيها يُعلِّقون أهميةً كبرى على المظهر الخارجي، وهذا مثلٌ منها:

«أريد شابًّا في طول جاري كوبر، ووجه تيرون بارو، ورجولة جان جابا، وإنسانية ريمو. لا يهمُّني المال؛ فعندي منه ما يكفيني. لست صغيرة السن، ولكنني جميلة وأنيقة.»

وقرأت مرة في صحيفةٍ فرنسية إعلانًا بالصيغة التالية:

أين الفتاة التي تنطبق عليها أوصاف زوجة «دي ونتر» في رواية «ربيكا». أنا شخصيًّا قريب الشبه جدًّا من «دي ونتر»، ولكني لست في مثل غناه. أرجو الرد بعنوان: «المسيو دي ونتر مجلة ...»

وللأمريكيين تفنُّنٌ غريب في إعلانات الزواج، وهذه أمثلة ممَّا يأتي فيها:

«مسافر غدًا في مهمةٍ صحفية في الصين، وأريد زوجةً شابَّةً مُخاطِرةً صحيحة البدن، تُجيد الآلة الكاتبة والاختزال. أنا شابٌّ في الثلاثين هيوز. أرجو المُقابلة غدًا في غرفة الاستقبال بقسم الإعلانات بصحيفة ...»

«أنا من هواة طوابع البريد، وأريد أن أتزوَّج هاويةً مثلي. أرجو الكتابة تحت رقم ... لا لزوم للصور.»

«خسرت متجري وتركتني زوجتي، وأريد أن أبدأ من جديد مع زوجةٍ ذات فأل حسن. أرجو الكتابة عاجلًا تحت رقم ... مجلة ...»

وأغرب إعلانات الزواج هي تلك التي ينشرها الفلاحون في صحف سويسرا وألمانيا، فهم يضعونها في صيغةٍ أقرب إلى إعلانات بيع المواشي، وإليك بعض الأمثلة:

«فلاحٌ قوي البدن في الأربعين من عمره، يملك شيئًا قليلًا ويُجيد الفلاحة، يطلب فتاةً قويةً طويلةً ضخمة، تُدير البيت وتعمل في الحقل وتحب الأولاد، ويُشترط أن يكون لها ملك ولو صغيرًا، يُستحسن ألا يكون لها أقارب كثيرون.»

«شابَّةٌ فلاحة في الأربعين حسنة الهيئة قوية البنية، تُجيد أعمال الحقل وإدارة البيت، تريد الزواج من رجلٍ صحيح البنية، لا يهمُّني الشكل، يُستحسن أن يكون أرملًا له أولاد، لا مانع عندي من أن أعيش مع أمه.»

ومن أعجب إعلانات الزواج في صحف أوروبا وأمريكا «الطلبات المُستعجلة» أو طلبات «الإسعاف»، وهذه أمثلة منها:

«الفتاة التي كانت في قطار «يرن» السريع الساعة ١١ صباحًا، الشقراء الزرقاء العينَين، التي كانت تلبس فستانًا أزرق، تتفضَّل بالكتابة إلى الشاب الخجول الصوت الذي كان جالسًا أمامها، والذي عرض عليها سيجارة فرفضت، وأرجو السرعة لأنني في حالةٍ سيئة، ولا أعرف طعم الراحة من ساعة أن اختفت عن عيني، اكتبي تحت رقم ...»

«لاعب التنس الفاتن الذي كان يلعب بمهارة في ملعب ... يوم ... الساعة ... يتفضل بالكتابة إلى آنسةٍ عشقته، ولا تستطيع الحياة بدونه، جميلة وحائزةٌ كل الشروط، اكتب تحت رقم ...»

والعجائز الذين يُعلنون عن أنفسهم كثيرون جدًّا وإعلاناتهم لطيفة، يُحاولون بها اجتذاب عروس شابَّة أو غنية! وإليك أمثلة منها:

«شاب في الستين من عمره [!] حسن الهيئة، مجرِّب، طويل، رياضي، ذو مركز طيب، شعره كامل ولو أنه أبيض. أريد فتاةً متوسطة السن، لا تزيد سنها عن الثلاثين، لا مانع عندي أن تكون أرملةً شابَّة لها بعض المال.»

«رجلٌ سمباتيك [!] شديد المرح، مُحب للحياة والرقص والموسيقى، يمتلك منزلًا على الرفييرا، مسلكٌ طيب وخلقٌ قويم، في الخامسة والستين من عمره، ولكنه شاب الجسم والروح.»

هنداوي